

رواية

هند عزت



حواديت قبل الاكتئاب



الرواق للنشر والتوزيع

حواديت قبل الاكتتاب

رواية

هند عزت

الرواق للنشر والتوزيع

حواديت قبل الاكتئاب

هند عزت

الطبعة الأولى ---- يناير 2022

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

الإخراج الفني: ضياء فريد

المراجعة اللغوية: إسلام منتصر

رقم الإيداع: 2021/29762


الترقيم الدولي: 978-977-824-131-0


جميع حقوق الطبع محفوظة

186 عمارات امتداد رمسيس 2 - أمام أرض المعارض - مدينة نصر

هاتف: +20220812006

rewaq2011@gmail.com

 alrewaqpublishing

 alrewaqpublishing

www.alrewaqpublishing.com



للنشر والتوزيع

إهداء

إلى وَلَدَيَّ: ليلي، ويحيى..

فدونكما لم أكن لأثق في وجود الأمومة.

كيف تكونين ابنة؟

اصمتي

لا تُفصحي عن أيِّ شعورٍ مزعجٍ

امرضي، لكن لا تُخبري أحدًا عن الألم

اعتمدي على غيرك

لا تعرفي عن السيارات

أو مِرْوَحَةَ السقف المعطّلة

تحملي القيظ وكأنَّ شيئًا لم يحدث

قولي: نعم

فضّلي الأصدقاء في خيالك على الناس في الواقع

لا تُخاطِري بشيء

لا تشربي اللبن

لا تأكلي اللحم

لا تتأملِي نفسك في المرآة

(أبريل بن - ترجمة ضي رحمي).

الفصل الأول

«إن الذكريات سواء أكانت مؤلمة أم مُمتعة، فإنها تتسبب للمرء دائمًا في المعاناة».

دوستويفسكي.

١

مها، هل انتهيت من تفحص الكتب أو سنحتاج إلى يوم إضافي حتى تضطريني للذهاب إلى العمل متأخرة كالعادة؟!

كان المتحدث أمي (زهرة). استدرتُ ببطء لمواجهة وجهها الممتلئ وحاجبيها اللذين أشبه بخط صغير، واللذين رفعتهما عاليًا في أثناء توجيه حديثها إليّ، وأنا أتمنى ألا تنتهي تلك اللحظة للأبد؛ لأنني أعرف ما الذي يليها!

صعدت درجات السلم مرتعشة وأنا أسمع صوت أمي متذمرًا مبتعدًا، موجهة كلامها لأبي المنتظر كي يستقلا السيارة:

- هذا هو السيناريو اليومي، ساعة كاملة حتى تنتهي من أخذ كتب من مكتبة المنزل التي تعرفها جيدًا، وكأنها تتفحصها لأول مرة، وفي كل مرة أخبرها بأن تهرع حتى نوصلها لمنزل خالها قبل أن نذهب للعمل، وما زلنا سنوصل شيري إلى حضانة الأطفال قبل ذلك! لا أدري ما سرُّ تلكئها ومماطلتها المستمرة؟!

لم أسمع إجابة أبي، لكن توقعت أنه سيحاول تهدئتها؛ حتى لا يتعكر صفو الوقت الذي سيقضيه معها في السيارة في أثناء ذهابهما للعمل.

كنتُ قد وصلت إلى شقة خالي، فاستجمعت أنفاسي وأنا مُترددة في دق الجرس، تُرى هل سيحدث شيء إذا جلست على درجات السلم حتى عودة أمي من العمل؟ قبل أن أسترسل في أفكارِي، فوجئت بخالي يفتح الباب مُبتسمًا، ويقول بمكر:

- لماذا لم تدقي الجرس؟! لقد سمعت صوت أقدامك الصغيرة تخطو بحذر أمام باب الشقة.. هل أنتِ تائهة؟

- لا، لكن كنت أخشى أن أكون قد أوقعتُ أحد الكتب على درجات السلم.

- هيّا للداخل، لديّ الكثير من التسلية لك، لا تجعلي كل همك القراءة فأنت في الإجازة الصيفية والسنة الدراسية المقبلة ستكونين في المرحلة الإعدادية.

أكمل بخبث وكراهة:

- سيكون عليكِ تعلُّم الكثير من أجل تلك المرحلة، فلقد أصبحتِ عروسًا بمعنى الكلمة.. دعينا نعدُّ لذلك.

وأغلق باب الشقة خلفنا وهو يمسك خاصري ويتحسَّس ظهري!

٢

كيف يا الله ترضى بذلك؟! هل أنا شريرة مثلما تقول أمي؟ أرجوك أجب الآن! أجب! أجب.. أجب!

قاطع ابتهالي المتهدج بالدموع صوت أمي وهي تصيح:

- مها، هل أنتِ صماء أو ماذا؟! أناذي منذ برهة، وما هذا المخاط الذي يتدلى من أنفك، هل تعتقدين أن الله سيقبل صلاتك وأنتِ مُلوّثة بهذه القاذورات، وما الذي يدفع طفلة في

الحادية عشرة من عمرها إلى البكاء لله؟ هل ماتت أمك اليوم؟!

- لا يا أمي.

- إذن أنتِ تؤدين أحد أدوار (أمينة رزق) ببراعة كالعادة!

أطرقتُ بوجهي وسحبْتُ منديلاً ورقياً، ونظفت وجهي وأنا أجيبها:

- لقد أخبرتك يا أمي بأنني لا أريد الذهاب إلى خالي وأني أريد الجلوس هنا وسأعتني بنفسني جيداً، أقسم لك على ذلك.

- وأنا أخبرتك باستحالة تركك في المنزل بمفردك، لماذا تكرهين خالك؟! ألن تكفّي عن نُكران الجميل؟ انظري إلى غرفتك المكتظة بالألعاب، من الذي أحضرها لك؟ أليس خالك أيتها الجاحدة، وفي النهاية تقولين إنك تنفرين من اقترابه منك! أي طفلة أنتِ؟

- لا أحب طريقة تقبيله لي وأن يلمس جسدي.

- وماذا تعرفين أنتِ عن التقبيل ولمس الجسد أيتها العاهرة الصغيرة؟! من الذي أخبرك بمثل تلك الأشياء، ألم أخبرك بأن تكفّي عن مخاطبة (ريم) التي تسبقك بصف دراسي كامل؟! أنا أعرف مصيرك جيداً ستكبرين كي تلحقي بنا العار، ليت أباك طاوعني في مسألة ختانك، لكنه مُرهف القلب، وسيكون السبب في إفسادك؛ فالفتاة غير المختونة ينتهي بها المطاف فاسقة وأنتِ خير دليل على ذلك.

أطرقتُ بوجهي مرة أخرى ولم أجب، واكتفتُ هي بالخروج من الغرفة وهي تتذمر كالعادة بصوت مرتفع.

- هل تريد شياً؟

- لا، فقط أريد أن تحتضنيني.

- هل انتهيت من غسل الأطباق؟

- نعم، ووضعت باقي الطعام بالمبرد.

- هل راجعت ما طلبته منك في الجزء الخاص باللغة الإنجليزية؟

- نعم، وأنهيته.

- اذهبي لغرفتك وأنا آتية لأسألك.

- هل من الممكن أن أجلس بحضنك قليلاً الآن؟

- لا، عندما أتأكد أنك قد استذكرت بشكل جيد.

- حسناً، سأنتظرك.

جلست في انتظارها مستغلة الوقت في ترتيب الألوان وفرزها؛ الرسم هو عالمي بأسره، ثم القراءة. ودون مقدمات وجدت خصلات شعري تُنتزع من رأسي، وتلف بلا هواده حول يد أمي!

صرخت بشدة فهوت بصفعة على وجهي أخرستني!

- لماذا تصرخين وتبكين؟ هل أذبحك ولا أعلم؟! ما الذي طلبته منك بالتحديد منذ عشر دقائق؟ أخبريني أم ابتلعت لسانك؟! أنت تعرفين أن البكاء من أكثر أسباب كرهني لك.

بترت دموعي من الرعب وأنا أقول:

- طلبت مني أن أنتظرِكَ حتى تراجعني لي ما استذكرته، وهذا ما فعلته بالضبط.

أحكمت قبضتها على شعري حتى إنني اعتقدت أن شعري سينتزع من رأسي.

- لا، لم تنفذي ما قلت، معنى ما قلته أن تذهبي وتمسكي بالكتاب حتى أعود إليك، لا أن تجلسي للهو بالألوان، لا فائدة منك.. أنت لست ذات جدوى على الإطلاق، وستظلين بلا جدوى طوال حياتك، لماذا لا يريحني الله منك؟! لماذا؟!

٤

بين أمي وخالتي الصغرى، جلست واحتضنتُ خالتي بقوة، نظرت إليَّ أمي باشمئزاز!

- هذا الأنف الضخم، لو كنت أمتلك أنفك وأسنانك التي تتدلى من فوق شفتيك لانتحرت!

ضحكت خالتي للدعابة بصوت مرتفع وهي تُقبِّلُ جبھتي وتقول:

- يا زهرة، الفتاة تُشبه أهل أبيها، فما ذنبها في ذلك؟ هل تتذكرين عندما حدّرناكِ من الزواج بمجدي من أجل ذلك، لطالما توقعنا أن تنجبي أطفالاً يشبهون أهله.

- النصيب، ما باليد حيلة، لقد طلبت منها أن تدفع أسنانها بيديها طول الوقت للداخل، ما دامت تهوى قرض أظافرها فلتستغلَّ أصابعها في شيء نافع.

قبل أن تُنهي كلامها عاد أبي للمنزل، فاندفعت إليه، واحتضنتني بقوة وقبّلني قبل أن تبدي أمي امتعاضها.

- بالطبع تحتضن ابنتك أولاً، أما أنا فالسلام عليَّ مُؤجِّل!

- ما هذا الهراء، ليس هناك مُقارنة بينكما فأنت حبيبتني وهي ابنتي، لقد أوحشتوني كثيراً.

قالها واندفع يحتضن أمي التي رمقتني بنظرة نارية، فثبت في مكاني بلا حراك.

ذهبت إلى غرفتي وجلست بهدوء، فلم يكن لديّ رغبة في فعل أي شيء، وبعد دقائق دلف أبي إلى الغرفة وهو يحمل صينيّة بها أصناف من الطعام، وقدمها لي بابتسامة وهو يقول:

- أمك تقول إنك لم ترغبي في تناول طعام الغداء اليوم، لماذا يا حبيبتي؟ هكذا ستصابين بالأمراض.

- لم أرفض الطعام بل أمي أخبرتني بأن لا غداء لي اليوم، بسبب ما فعلته أمس عندما تحدثت مع صديقتي التي لا تحبها أمي، وتوعّدتني لأجل ذلك.

- ما الذي تقولينه؟! شيء مستحيل أن تفعل أمك ذلك! سأذهب لأفهم منها.

سمعت صوتهم المرتفع نظرًا لكون غرفتي تلاصق غرفتهما.

- كاذبة، هل تُصدّق أنني أقوم بحرمان ابنتي من الطعام؟!

- نعم، يا مجدي، كيف تصدّق طفلة قليلة الأدب وتكذب أختي؟

صاحت خالتي بدورها مستنكرة كلام أبي!

بدأت دموعي في الانهيار شاعرة بالعجز.. لا سبيل للفكاك من هذا الجحيم، لقد حكم عليّ للأبد أن أبقى هنا، أين العدل الإلهي؟ لقد سمعتُ في التلفاز أحد الشيوخ يقول: إن الله لا يرضى بالظلم، لكن هل يرضى بما تفعله أمي؟!

٥

- أهلاً يا مها، كيف حالك؟

حيّتني أستاذة منى بابتسامة ودودة، ووقفت تطمئن على أحوالي لدقائق، ثم ربتت على رأسي وهرعت للحاق بحصتها، تلك الربتة الحانية أعادت إلى ذاكرتي الخطاب.. الخطاب الذي تجرأت وكتبته لها ذات يوم وأنا بالصف الثالث الابتدائي بخط طفولي ولغة عربية هزيلة:

«أحبك كثيرًا يا أستاذة منى، وأعتبرك كأمي، وأتمنى أن تطول حصتك للأبد، أرجو أن تقبلي مني هذه الأزهار».

كنت قد نويتُ أن أبتاع لها الأزهار من المحل المجاور لمدرستي قبل بداية اليوم الدراسي، لكن القَدَر لم يُمهلي، أو بمعنى أدق أُمي وجدت الخطاب بمقلمتي في ذلك المساء، علمت عبر شعر رأسي الذي سحب وأصبح بين قبضتها، وبالقبضة الأخرى أخذت تذيقني مختلف أنواع الضرب مع صياح متصل.

- تقولين لها: أُمي، يا بنت الكلب، أنتِ يتيمة؟! سوف أقتلك، لماذا دونًا عن كل الفتيات رزقني الله بك؟! عاقّة من يوم وعيت على الدنيا، أنا أكرهك.

أفقت من تلك الذكرى على صوت هبة صديقتي التي كانت تنادي عليّ، وعندما لم أنتبه اقتربت وخبطت كتفي وهي تقول:

- الحصة سوف تبدأ، هيّا سوف نعاقب.

٦

بعد انتهاء اليوم الدراسي تسمّرت في المكان الذي طلبت مني أُمي الانتظار عنده، وأنا أراقب من بعيد الأصدقاء يلتفون للحديث بجوار كافيتريا المدرسة ويستعدون للذهاب. آخر مرة انضمت إليهم في الحديث كان مصيري صفقة تلقيتها على وجهي أمام الجميع من أُمي، وكان مبررها أنها شعرت بالقلق عندما لم تجدني في مكان الانتظار، وأخذت

تبحث عني في كل مكان داخل المدرسة، رغم أنها لو نظرت حولها فعلاً فستجدني، فما كان يفصلني عنها هو خمسة أمتار تقريباً! لا أنسى نَظرات أصدقائي إليّ بعدها، وإفصاحهم عن خوفهم من أمي، كذلك إشفاق بعض أمهات الزملاء في التعامل معي بعدها؛ مما يشي أنهم أخبروا ذويهم بالوقعة، لكم شعرت بالمهانة والحرج كلما تذكرت الموقف.. أطرقت بوجهي وانتظرت في صمت حتى وصلت هي لاصطحابي مُعلنة تبرمها كالعادة من المهمة الشاقة التي فرضها عليها أبي، فهي تتمنى أن تلحقني بحافلة المدرسة، وأبي شخص قلق يرفض هذا بشدة، مما جعلها تصبُّ عليّ جام غضبها كل مرة تأتي لاصطحابي:

- هيّا، لماذا لا ترتدي حقيبتك؟! أسرع!

- إنها ثقيلة بعض الشيء، سأرتديها حالاً.

- آخر مرة أجده تاركة الحقيبة على الأرض، ارتديها حتى ولو كنتُ سأصل بعد ساعة، هل تفهميني؟

- نعم.

- أليس هذا مدرس الرياضيات الذي يولينا ظهره عند الباب الكبير؟

- نعم، إنه هو.

- حسناً.

خطونا سريعاً تجاهه.

- أهلاً أستاذ عمرو، كيف حال مها معك في الدراسة؟

- أهلاً سيدتي، إنها متفوقة كالعادة، مها بنت ذكية للغاية، تجد سعادة في حل المسائل، وهذا شيء نادر ما أجده، أتمنى من الله أن يحفظها، وأتوقع أن تُصبح مهندسة كبيرة يوماً

ما.

- مها ليست ذكية على الإطلاق، الفضل يعود لك فيما وصلت إليه هي في الرياضيات، بالعكس أنا لا أجد أنها تستمتع بحل الواجبات، تجلس متبرمة وساهمة، أنت معلم كُفء ونبيل، أشكرك لمجهودك مع عقل كعقلها، أكيد مهمة شاقة!

- على الرحب والسعة، وإن كنت أؤكد لك أنها حقًا مميزة.

قال كلمته الأخيرة وهو يربت على رأسي، رمقني بنظرة ود جانبية كأنه يعتذر إليّ من أسلوب أمي، فطرقت أرضًا ولم أنطق.

٧

في المنزل وجدت أمي تتحدث بصوتٍ عصبي وعالٍ في الهاتف مع أحد لم أُميّز كنهه، لم أستمع بطبيعة الحال إلى رد الطرف الآخر لكن سمعتها بوضوح تقول الآتي:

- لا أعلم لماذا أتلقى اللوم على عدم تحمل تلك الطفلة النكد لطعم دواء الصرع! تخيلي أن مجدي يطلب مني أن أحمل معي بشكل مستمر زجاجة عصير كي أعطيها الدواء في الطريق إذا جاء مواعده ونحن ما زلنا بالخارج؟

- بالطبع، إنه يفسدها بالدلال الزائد، لماذا لا يدعني أعلمها تحمل شيء تافه مثل طعام النقاط المرّ؟! بضع نقاط فقط، نعم، إنها تأخذه بالقطارة، نعم، نقاط تسمى (ديباكين).

- الهانم تتقيء كل مرة تأخذه بلا عصير وكأنها رضية، مجدي السبب، ولا يكتفي بذلك بل يلومني على نسيان العصير، وكأن واجبي أن أحمل الزجاجة فوق ما أحمله من أشياء، لأجل ألا تتقرز ابنته وتتناول الدواء.

- نعم، تجلس في غرفتها باستمرار وكأن جلوسها معي يحرقها في كبدها.

- بالطبع حزينة، فهي دائماً حزينة، منذ أن كانت في المهد حزينة، كأنني أطعمتها جرعات من النكد بدلاً من اللبن، إنها لا تجلس معي منذ أن وصلت للثالثة من العمر، أي طفلة طبيعية تكره أمها إلى هذا الحد؟!

شعرت بالذنب عندما سمعتُ حديث أمي، أنا لا أكرهها على الإطلاق بالعكس أحبها بشدة، أتمنى أن ألتصق بها دائماً، لكنني لاحظتُ أنها تشعر بالحزن والضيق، ولا تحب جلوسي معها، فلم أرد أن أثقل عليها بعبء الجلوس معها، خاصةً أنها ترعى (شيرى) أختي الصغيرة التي أتت إلى عالمنا منذ عام، لكن أمي لا تسمح لي بلمس (شيرى) أو التواصل معها، وتخبرني أنني غبيّة، وسأقوم بقتلها في أثناء اللعب! لا أفهم كيف سأقوم بقتلها أثناء ذلك كما ذكرت، لكنني أمتثل لرغبتها وأقاوم رغبتى في الاقتراب من أختي الوحيدة، التي انتظرت عشر سنوات حتى أحظى بها. وأخبرتني أمي بأنني السبب في هذا التأخير.

- أنت السبب، كل مرة عرضت على أبيك رغبتى في إنجاب طفل آخر، يأتي بك ويجلسك على فخده ويسألك: هل تريدين أختاً أو أختاً يا مها؟ كنتِ تقولين: لا. وكان يمتثل لرغبتك اللعينة.

لم أكن أتذكر ذلك، لكن كنتُ أشعر بالذنب؛ لأنني كنت السبب في حرمان أمي وأبي من إنجاب طفل آخر كل تلك الأعوام، كما أنني حرمتُ نفسي من وجود صُحبة ورفقة في المنزل، لا بد أنني غبية بالفعل كما اعتادت أمي أن تصفني.

٨

في صُحبة العائلة وأصدقاء والدي جلسنا لتناول الغداء بالنادي، اخترتُ مقعداً جانبياً بعيداً عن الجميع وجلستُ أتصفح إحدى مجلات القصص المصوّرة، كان أطفالهم بلهون معاً عند منطقة ألعاب الأطفال، فمال عليّ زوج صديقة أمي وقال:

- مها، لماذا لم تنضمي إليهم للعب؟

- لا أشعر برغبة في اللعب الآن يا عمي.

- لماذا يا حبيبتي؟ فالفرصة رائعة ولا تتكرر كل يوم، الجو لطيف للغاية.

- لا أعرف، فقط بعضهم لا يستلطفني ويتهامسون بعيدًا عني، عندما أقترب منهم يصمتون، عندما أوجه كلامي إليهم يسخرون ويقولون إنني أتكلم بأسلوب عجيب، وحدث أن الأنسب عندما نتجمع أن أستمتع بكتبي.

- أنت فتاة قوية وذكية، تستطيعين أن تبادليهم المزاح الثقيل، فلا أظن أنهم يسخرون منك، فقط لكل منا طريقته في التعبير عن نفسه، أنتم جميعًا تعرفون بعضكم البعض منذ ولادتكم تقريبًا، هيّا يا فتاتي فلتنهضي وتلعب معي معهم، وإذا أردت أن أتحدث معهم حتى يكفوا عن مضايقتك فسوف أفعل فورًا.

- أشكرك عمي فاروق.

نهضت مترددة للحاق بالرفاق، رأيت في أعينهم عدم الارتياح عندما اقتربت، لكنني تجاهلت ذلك الشعور وطلبت منهم الانضمام للعب.

- حسنًا يا مها، لكنك لا تعرفين كيف تتسلقين تلك الأرجوحة.

قالتها إحداهما، ثم لاحقها الآخر بالكلام:

- ولا تعرفين كيف تحلين الفوازير، كذلك لا تفهمين النكات كذلك.

- نعم، لا أعرف، لكنني أود التعلم.

صاحت إحداهما ضاحكة:

- لن تستطيعي؛ فأمي أخبرتني بأن والدتك تقول: إنك غبية، لا تستطيعين تعلم شيء من الأساس، ولو استغرق ذلك أعوامًا، أُمي تعرف ذلك، جميعنا نعرف ذلك، لا فائدة من تعليمك حيالًا للعب معنا.

ضحك باقي الرفاق، أطرقت بوجهي وذهبتُ محاولةً تسلق الرُّحْلُوفة المرتفعة، التي أخشى كثيرًا صعود درجاتها كي أدفن إحساسي بالفشل.

٩

عندما وصلت للرابعة عشرة، كانت (شيرى) أختي في الرابعة من عمرها، تعلُّقي بها كان شديدًا للغاية، فكنت أشارك في إطعامها ورعايتها؛ لأن أُمي اقتنعت أنني لن أقتلها بعد أن نما لي ثديان كما أخبرتني! لم أفهم ما علاقة ذلك بالأمر، لكنني كنتُ سعيدة لفك هذا الحصار، ولقدرتي أخيرًا على إمساك أختي واحتضانها، لم يُعفني هذا من تعليقات أُمي اللاذعة حيال كل شيء أفعله أو لم أفعله، أحيانًا هي لا تنتظر أن أقوم بفعل شيء بعينه كي توبخني عليه، بل تضع فرضية أنني سأفعله بشكل خاطئ، وتسبق في النقد والإهانة كما حدث اليوم عندما طلبت مني طهو بعض الأرز في أثناء انتظار عودتها.

- أعلم أنك لم تفهمي طريقة طهي الأرز، لكن مضطرة أن أجربك، ورغم علمي أنك ستحرقينه بغبائك المعهود.

- لن أحرقه، سألتزم بالتعليمات، وستعودين لتجدي أحلى أرز يا أُمي.

ارتسمت على وجهها ابتسامة ساخرة وهي تقول:

- نعم، بالطبع سأجد أحلى عجيين محروق!

- لكنني لم أحرقه من قبل، ولم يُعجن مني إلا مرة واحدة في بداية الأمر، ثم أصبحت أجيده.

- لا تزدِّي بوقاحة، فأنتِ لم ولن تفلحي في شيء أبدًا، اغرُبي عن وجهي.

ولا تزدِّي على الهاتف حتى عودتي وتنتهزي الفرصة في مخاطبة (هبة)، التي لا تعرفين أحدًا غيرها، كيف تبقين هكذا بلا أصدقاء، نفس الفتاة منذ الصف الثالث الابتدائي وهي تتهرب منك، وأنتِ تسعين وراءها بلا كرامة كالعادة، كم مرة أخبرتك بأن تحفظي كرامتك؟ كيف تتعايشين مع فكرة أن يرفضك أحد؟

- هبة لا ترفضني يا أمي، فقط هي تحتاج إلى وقت لتتحدث مع باقي أصدقائها.

- ولماذا لا تفعلين مثلها، وتكونين صداقات أخرى بدلًا من البكاء عندما تترك وتذهب للحديث مع أخرى؟

- لم أعد أبكي عندما تفعل هبة ذلك منذ الصف الخامس يا أمي، أفهم الآن أنها تحبني وتحب الآخرين أيضًا.

- تفهمي! لا تفهمين شيئًا على الإطلاق، أنتِ بلا مِخ!

قالت جملتها الأخيرة وهي تشير بأيديها إشارة الجنون، هذا أمر اعتادت إخباري به منذ أعوام؛ أنني مجنونة، وأقنعت أبي أنني حقًا هكذا، لدرجة أنه أصبح يصفني بالجنون أحيانًا كثيرة، عندما أخبره بشيء غير مُقنع بالنسبة له. انتشر الأمر بين العائلة والأصدقاء، أصبحت المجنونة النكدية على حدِّ وصفهم.

كنت أواظب على الدعاء لله أن تحدث معجزة، وأن أختفي بلا أثر أو رجعة.. لم أرد الموت؛ لأن أمي أخبرتني بأنني سأحترق في جهنم، لا أريد أن أعذب، أريد فقط أن أترك وشأني، هل هذا كثير على رب العباد؟!!!

حدقت في الدماء التي سالت بين قدمي برعب، كاد يتوقف قلبي.. تسمّرت في مكاني وأنا عاجزة عن الكلام أو الحركة، بدأت في البكاء وأنا أخشى من ردّ فعل أمي، أكيد ستتهمني بأنني فعلت شيئًا بشكل خاطئ.

- مها يا زفتة، هل ستنامين اليوم بالحمام؟! هيّا أريد أن أدخل.

- لا يا أمي، أظن أنني قد جرحت نفسي دون قصد رغم أنني أقسم لك.

اقتحمت الحمام بسرعة قبل أن أكمل عبارتي ونظرت إليّ بفضول قبل أن تضحك بسخرية بصوت مرتفع:

- ما بك؟ لماذا أنتِ شاحبة وخائفة؟! هيّا، ضعي تلك الفوطة الصحية وامرحي، فالآن بشكل رسمي أصبحت مصدر عارٍ حقيقي محتمل!

في المساء عاد أبي إلى المنزل، سارعت أمي بإخباره وهي ترمقني بنظرة جانبية تراقب بها احمرار وجهي وهلعي أنها أخبرته، فابتسم لي ابتسامة حانية وقبّل جبهتي وهو يقول لي:

- مبروك يا حبيبتي، لقد كبرت وأصبحت عروسة، سأعطيك نقودًا لتذهبي مع أمك لانتقاء ما تريدين من الملابس.

- ماذا تعني بما تريده من الملابس؟! سأنتقي أنا لها بالطبع، فابنتك لها ذوق بشع، ولا تجيد الاختيار أبدًا، هل تظن أن لمجرد بلوغها أنها أصبحت تستطيع الاختيار؟ دلالك لها هو ما يفسدها، هي لا ينقصها أي فساد في الحقيقة.

- حسنا، فلتساعدك أمك في اختيار الملابس، وابتهجي يا عزيزتي فأملك دائمًا حاضرة لمساعدتك.

- أنا مبهجة يا أبي، أشكرك كثيرًا.

- خبيثة أنتِ يا فتاة، تتملقين أباكِ بلا توقف، لا أعلم من أين ورثتِ كل هذا الخبث!

قالتها أُمِّي وأعطتنا ظهرها، وذهبت لتفقد (شيري).

١١

عندما جاءت أُمِّي بأوراق اختيار الرغبات، بعد ظهور نتيجتي في الثانوية العامة، جلست وحدقت في بجدية وقالت: هيا سأملِّي عليكِ الرغبات.

- لكن يا أُمِّي اتفقت مع أبي أنني سأملؤها معه.

- لن يحدث هذا، أبوكِ سبب إفسادك الدائم، لن أسمح لكما أن تجعلاني أقل من أحد بموافقته على التحاقك بكلية هزلية لا معنى لها.

- كلية الفنون الجميلة ليست هزلية، فأنا أريد أن أمتهن النحت، وأنتِ سمحت لي بدخول امتحان القدرات الذي..

قبل أن أكمل قامت بجذبي من شعري وهي تصرخ بجنون:

- نَحَّاتة! تريدان أن تمتنهي مهنة تجعل الله يسخط عليكِ إلى آخر حياتك! لن أسمح لك بهذا.. لا أعلم كيف وافقك مجدي على هذا الهراء، لكنني تصرفتُ.

أطلقت سراح شعري والتقطت أنفاسي، وأنا أكتم دموعي، وأعجز عن التنفس بشكل طبيعي، وعبثت هي بحقيبتها وأخرجت ورقة، ولوّحت بها في وجهي.

- هل ترين هذه الورقة؟ هذه فتوى رسمية من الأزهر الشريف أن النحت حرام، وسألصقها بأنف أبيك، لن يحدث هذا، على جثتي، الرغبة الأولى كلية تجارة قسم لغة إنجليزية،

ويكفي أنك لم تحسلي على مجموع كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، والغريب أنك كنت تريد الاستمرار في قسم علمي رياضيات، واعتقدت بأنك ستلتحقين بكلية الهندسة قسم عمارة!! لم يكن ليحدث هذا أبدًا، ولولا أنني أنقذتك وحوّلت أوراقك إلى القسم الأدبي لكان مكانك أحد المعاهد الخاصة يا فاشلة.. ولا أريد أن أستمع إلى أي كلمة أخرى.

كتبت الرغبات التي أملتها عليّ وأنا في حالة أعجز عن شرحها، لم أكن أشعر بشيء تقريبا، لم أكن حزينة حتى! تجمّدت مشاعري دون سابق إنذار، وهذه كانت أول مرة أشعر بها بهذه الحالة لكنها لم تكن الأخيرة.

جاءت الصغيرة (شيرى) على صوت أمي وهي تصرخ، واحتضنتني بقوة دامعة، لكن أمي نهرتها وشدت يديها واحتضنتها هي.

- لا تكوني مثل تلك العاقبة أبدًا، أنتِ يا شيرى لك مستقبل آخر مُبهر، ستكونين ناجحة وقوية وذكية، وورثت مني الجمال عكس تلك الدميمة، ولن يوقفك أحد أبدًا، لقد ألحقتك بأحسن المدارس، وسأفعل لك كل ما تريدن؛ لأنني أعلم أنك تستحقين.

نظرت (شيرى) إليّ في وجوم، كنت أعلم أن (شيرى) تحبني مثلما أحبها.. فقط هي لا تستوعب ما سبب غضب أمي تجاهي.

١٢

انتهيت من ارتداء ملابسى سريعًا، كان الوقت المتبقي على موعدى أقل من نصف ساعة وتأخرت بالفعل، هرعت إلى باب المنزل وأنا أرئدي حذاءى في أثناء الهرولة، استوقفتنى أمى على الباب وقالت وهى تتفحصنى بنظرات مُريبة:

- هل ستنزلين بهذه الملابس البالية؟!

- ليست بالية يا أمي، إنها ملابس جديدة وأنتِ من انتقاها لي منذ شهرًا!

- نعم، أعرف يا غبية، لكن أنتِ لا ترتدين طاقم الملابس بشكل سليم، بدلتِ مع طاقم آخر بذوقك المهترئ!

- حسنًا يا أمي، سألتزم بذلك في المرة المقبلة، فمحاضرتي ستبدأ بعد وقت قليل وأنا بالفعل متأخرة.

- لا يهمني تلك المحاضرة، فأنتِ فاشلة في الدراسة بالفعل، ولديك مُلحق بمادتين من العام السابق؛ مما أضاف عليكِ مواد أكثر هذا العام، وليس لديّ شك أنكِ ستترسبين، لكن أريد أن أهنئك حتى تلتقطي عريسًا من الكلية؛ لأنكِ إذا تخرجتِ دون أن تجدي واحدًا ستظلي عالقة معي إلى الأبد، وأنا أفضل الموت على ذلك.

- أمي، أنتِ تعلمين أنني لا أُجيد التعامل مع زملائي الشباب منذ أن كنتُ في المدرسة، وأرجوكِ فلنعاود الحديث بهذا عند عودتي.

لمعت عيناها بنظرةٍ غاضبةٍ أعرفها عندما لا أولي لحديثها ما تريده من الاهتمام، ورفعت يديها كي تطبق على شعري لكنني باغتها بسرعة، وأبعدت رأسي، ودفعت يديها بعيدًا وسط نظراتها المذهولة، وجريت إلى الخارج، ونزلت درجات السلم بشكل جنوني وأنا أسمع صوتها تصيح وتولول وتتلفظ بألفاظ غير لائقة.

١٣

كان الجميع بانتظاري في أحد الكافيهات الشهيرة بالمعادي، اتفقنا على أن نلتقي قبل المحاضرة المسائية ونستذكر معًا، كانوا مجموعة أصدقائي المقربين الذين استطعت تكوينهم بعد عَناء في السنة الثانية من التحاقني بالجامعة، وبهذه المجموعة أقرب اثنين إلى قلبي، (محمود)؛ وهو من يخفق قلبي بصخب عندما أراه، وأول حب في حياتي،

و(ماري) صديقتي الأقرب وهي بمنزلة (شيرى) إلى قلبي، لا أرى أي فارق في حبي لهما،
لَوَّحت لهما بسعادة فبادلني الجميع التلويح وجلست.

- أهلاً يا رفاق، كيف أحوالكم؟

هَمَّ الجميع بالرد، وهمس (محمود) بالقرب من أذني بلوم:

- لماذا تأخرتِ يا مها؟!

- تعلم أن أمي كلما كنتُ في حالة عجلة تصطنع المشكلات كي تعطلني، ماذا بك؟!

نظرت له بلوم ولم يجب، بينما تدخلت (ماري) لتخفيف التوتر وقالت:

- لا، مزيد من المشادات الكلامية اليوم، مفهوم؟ نحن هنا للاستذكار وأنا لا أطيق أن أرى
صديقتي في حالة من الحزن، هل فهمت يا محمود؟ هذا يعني أنها ستكون متعكرة المزاج،
وستهاتفني ليلاً لتبكي مثل كل مشاجرة تحدث بينكما.

نظرت لها باستنكار كي تتوقف، فما صرحت به معلومات لا أود أن يعلمها محمود، فأخبر
شيء أحتاج إلى أن يراني به هو صورتى الحزينة، فتوقفت بالفعل، ووجهت كلامها إلى
باقي المجموعة.

وعندما انتهينا من الاستذكار والمحاضرة اجتمعنا كلنا مرة أخرى أمام باب المدرج، وكنا
نعتاد أن نذهب معاً أنا و(ماري) و(محمود) إلى المنزل في طريق العودة، فنحن نسكن
بنفس الحي تقريباً.

تبادنا خطة اليوم التالي وميعاد لقائنا مع المجموعة، وتحركنا في طريقنا للعودة، وأوقفنا
إحدى سيارات الأجرة، وجلسنا متجاورين.

- مها، هل أنتِ حزينة بسبب ما قلته؟

- لا يا محمود، كل ما في الأمر أنني لا أشعر بأنك تستوعب وضعي مع أمي جيدًا، وكأنني كاذبة أو أفتعل المشكلات.

- لا يا مها، لم أقصد ذلك، لكن ليس من الطبيعي أن أجد كل يوم أمًا كأمك، فما تسردينه من مشكلات معها صعب أن يصدقه من لا يعرفك، وأنا أعرفك فأنت لست بكاذبة أو تافهة لكن ربما تعانين بعض الحساسية في النظر للأمور، وربما هذا هو سبب فهمك الخاطئ لتصرفات أمك أحيانًا.

- فهمي الخاطئ؟! ما الذي تراه تحديداً من مواقف بها فهم خاطئ مِنِّي، أنا أسرد المواقف كما حدثت لا أزيد أو أنقص منها حرفًا، ونعم، أنا شخص حسّاس لكن هذه الحساسية ليست سبب ما يحدث لي، العكس صحيح.

قلت جُمَلتي الأخيرة بحدّة، فنظر إليّ محمود بتبرم:

- حسنًا، حسنًا يا مها، أنت على حق.

كانت (ماري) تتحدث بهاتفها المحمول، وأنهت المكالمة ونظرت إلينا:

- لا مزيد من النكد يا شباب أرجوكم، لقد كان يومنا لطيفًا، لا داعي للعودة إلى المنزل بحالة من الوجود بعد ذلك.

ثم ساد الصمت العربية.

في السنة النهائية من الجامعة تركني محمود، لم يستطع أن يتعامل مع شخصيتي الحساسة على حدّ قوله، وأفصح لماري أنه يخشى أن أكون مصابة بمرض نفسي وأنقله للأطفال فيما بعد!

- لا تبكي يا عزيزتي، سوف تحظين بحبيب رائع يومًا ما، لم يكن محمود يستحقك؛ فهو أناني للغاية.

- أنا لا أستحق أي شيء يا ماري، إذا كنت أستحق شيئاً فهو ما فعله بي محمود، كسره لقلبي يجعلني عاجزة عن التنفس، أريد أن أذهب وأشرح له أن وجهة نظره عني مخطئة، أريد أن أحظى بفرصة أخرى معه وأعدّه بأنني سأكون مثلما يريدني أن أكون.

- هل أنت جادة؟! بالطبع لا، على جثتي إن حدث هذا، مها، أنتِ محبة ولطيفة معه للغاية، وهو لم يُحسن معاملتك منذ اليوم الأول في علاقتكما، دائماً هو متذمر ومتبرم وأنتِ تبذلين قصارى جهدك كي يشعر بالرضا، وفي المقابل كان يتهرب منك أحياناً كثيرة، محمود لم يُحبك ولن يحبك، وأرجوكِ كُفّي عن إعطاء هذا الوغد فرصة.

- لماذا لم تحبني، لماذا؟

صرختُ وأنا أشدد على السؤال، انتابتنني حالة من الهستيريا في أثناء البكاء، مما جعل (ماري) تنتفض من مكانها وتهرع لاحتضاني وضمي بقوة.

- حبيبتي يا مها، صدقيني هذا يحدث كل يوم، أن نحب أشخاصاً ولا يبادلونا هذا الحب أو لا يحبوننا بنفس العمق والقوة التي نشعر بها تجاههم، أنت تستحقين الأحسن، صدّقيني يا عزيزتي.

- لا أستحق شيئاً، أنا أعلم أنني لن أحظى بالحب أبداً، فكيف تحبني أحد وأنا فشلت في جعل أُمي تحبني يا (ماري)، أخبريني.

- أمك تحبك من أعماق قلبها حتى لو لم يبدُ عليها ذلك، صدّقيني سيأتي اليوم وتتأكدين فيه من كلامي.

عند تخرجي التحقت بالعمل بقسم التسويق في إحدى الشركات متعددة الجنسيات، كان العمل بالنسبة لي مصدر هروب رائع من المنزل، لم يتغير شيء من وضعي مع أمي أو سعيها لمحاصرتي في كل شيء، فكانت ترفض أي محاولة لي للتنزه بعد العمل مع أصدقائي، وكنت أضطر للمرور على (ماري) بالمنزل بشكل سريع قبل عودتي للمنزل، أهرب معها من الألم وأتحدث معها عن يومي ومشاعري.. ضغطت على اسمها في شاشة هاتفي المحمول وسمعت صوتها.

- أهلاً مها، كيف حالك؟

- أنا بخير، ماذا ستفعلين اليوم؟

- لا أعلم بعد، فنحن في منتصف النهار، وما زلتُ في العمل، ولن أنتهي قبل الخامسة.

- حسناً، فلتها تفيني عندما تنتهين لنرى ما الذي سنفعله اليوم.

- مها، هل أنتِ حبيبي وأنا لا أعلم؟!

- ماذا تعنين؟!

- أعني أننا لسنا في علاقة عاطفية كي أضطر يومياً أن أخبرك بما أنتوي فعله أو حتى أن أرافقك يوماً للحديث أو الخروج، نحن لا نتواعد، هل تفهمين هذا؟!

نزل كلام (ماري) على رأسي كالصاعقة، هل تقابل اهتمامي بها وحبّي بكل هذا النفور؟ هل لا تطيق التعامل معي وتتصنع الود، هل أنا عبء ثقيل عليها للدرجة؟

- مها، هل أنتِ على الهاتف معي؟

- نعم يا ماري، طبعاً أفهم ذلك، أنا فقط أحب صحبتك وأرغب في الجلوس معك دائماً.

- حسنًا، لكن ليس من الطبيعي أن نظل ملتصقتين بهذه الصورة، أنا لديّ حياتي واهتمامات أخرى أريد القيام بها، ولست مضطرة لقضاء الوقت المتبقي لي بعد العمل معك.

- معك حق، حسنًا فلتحدثيني عندما ترغبين.

جلست في وجوم مُحمّلة في شاشة الحاسوب، ولم أعد أستمع إلى ما يدور في الغرفة من حولي، حتى أفقتُ على صوت ممدوح مديري وهو يطرق على مكثبي بأصابعه للفت نظري.

- نعم.

- هل أنت بخير؟

- نعم، فقط كنت أركّز في العمل.

- حسنًا، هل انتهيت من تنسيق حملة تسويق منتجات الألبان؟

- نعم، لكن يتبقى بعض الرتوش التي سأسهر اليوم لوضعها.

- لا بأس، عندما تنتهين تستطيعين إرسالها عبر البريد الإلكتروني.

- لن أذهب اليوم إلى المنزل حتى أنهيتها، فلديّ طاقة كبيرة للعمل.

بعد ذهاب مُعظم زملاء العمل لمنازلهم جلسْتُ بهدوءٍ أنهي ما وعدتُ (ممدوح) بإنهائه، لم يعفني هذا من مكالمات أمي المتذمرة التي تطالبني بالعودة مبكرًا للمنزل حتى لا تفسد سُمعتي ويطلقوا عليّ لقب العاهرة في الحي، ولا يقبل أحد أن يتزوجني!

الفصل الثاني

«عندما تعطيك الحياة سببًا لتيأس، أعطها ألف سبب للاستمرار، لا شيء أقوى من إرادة الإنسان على هذه الأرض.»

ديل كارنيجي.

١

كان ترشيح أحد الأصدقاء للدكتور (وائل المصري) الطبيب النفسي بالنسبة لي من أفضل الأشياء التي حدثت في حياتي بأكملها، كنت في الحادية والعشرين من عمري، وحديثة التخرج، وفي بداية حياتي العملية، واستقلالي المادي أخيرًا عن أمي جعل لي القدرة على التصرف في أموالني بشكل ما عن ما سبق من سنوات إنفاقها عليّ. شعرت بعد موقفي مع (ماري) بأنني مريضة وبحاجة لعلاج. أشعر بالنبذ والهجر والرغبة في الالتصاق بأحد أحبه، أيًا كان هذا الشخص، المهم هو وجود من ألتصق به وأشعر بدفئه العاطفي.

كنت أشعر بترقب شديد في أثناء انتظاري للدخول لغرفة الكشف، بدلت موضع قدمي مرات عديدة وأنا أحاول ترتيب أفكاري، كنت أخشى الرفض وأن يخبرني الطبيب بأنني أتوهم كل ما أمرُّ به.

طرقت الباب ودخلت لأجد رجلًا في العقد السابع من العمر تقريبًا، شعره بلون الثلج، وملامحه هادئة، وتتميز بالوداعة الشديدة، ألقى التحية وأذن لي بالجلوس وهو يعدل من وضع نظارته ويبتسم:

- مها، صح؟

- نعم يا دكتور، مها مجدي.

- كم عمرك يا مها؟

- واحد وعشرون عامًا.

- حسنًا، فلتخبريني ما الذي جاء بك اليوم؟

- عذرًا، لا أفهم!

اتسعت ابتسامته وهو يقول:

- ما الذي دفع مها لزيارة الطبيب النفسي اليوم؟ ما الذي تشعرين به وتظنين أنه سبب

رئيسي لمجيئك إلى هنا؟

- أعتقد شعوري بالنبذ، فلا أحد يطيق الاقتراب مني والبقاء، مؤخرًا حتى أقرب صديقة لي لم تُعدّ تحتل وجودي.

- ما الذي دفعك للشعور بهذا؟ تصرف معين أم أخبرتك بشكل مباشر؟

- قالت لي نصًا: أنتِ لست حبيبي كي نتقابل يوميًا وأخبرك بخططي!

- ممم.. كلام يبدو قاسيًا يا مها، وأتخيل أن وقعه عليك ليس بالهين تمامًا.

- نعم، لقد شعرت بأن قلبي ينخلع من مكانه، فماري كانت هي أقرب الناس إلى قلبي ولا

أزال أحبها للغاية لكن أشعر بأنني مجروحة وضررت في موطن أمانني.

- هل صديقتك هي موطن أمانك؟

- نعم، فلقد اخترتها بنفسى وميَّزتها دونًا عن أي أحد، عكس الأهل، فلا أحد منا يختار أهله؛ فالأصدقاء إذا خذلونا نخسر شعورنا بالأمان.

- والأهل ألا يعطوننا شعورًا بالأمان أيضًا؟

- لا أعلم، المفترض. أكيد يمنحوننا شعورًا بالأمان.

اتسعت ابتسامته فزادت من طيبة ملامحه التي استشعرتها خلال تجاعيده الدقيقة، فجعلني أتذكر جدي بشكل ما، وقال بشيء من المزاح:

- أي إجابة أعتد هنا، لقد أخبرتيني بثلاث إجابات مختلفة تمامًا، فلا تعلمين يعني أنك لم تختبري الشعور، والمفترض تعني أنك تنتظرين هذا الشعور وتتمنينه لكن لم تجديه بعد، وأكيد هي صيغة جزم أنك تحصلين عليه.

عند هذا الحد فقدت تماسكي، وبدأت في بكاء هستري لا أعلم سببه، فلم يكن أسلوب دكتور وائل أو حتى كلامه يسيء إليّ في أي شيء لكن أحسستُ بارتباك وضعف وخجل من نفسي وبأنني سأنبذ هنا أيضًا.

دفع إليّ بعلبة المناشف الورقية وعلى وجهه علامات تعاطف، وقال وهو يهدئ من روعي:

- لا بأس بالبكاء، خُذي وقتك.

بدأتُ في محاولة إسكات نفسي وتجفيف دموعي، ولعدّة دقائق ظللتُ صامتة أستجمع أنفاسي؛ وهو احترام هذا الصمت.

- لا أعلم لماذا بكيتُ، لكنني أشعر بضغط شديد، وكأن داخلي يشتعل بحق، فقط سؤالك جعلني أفهم أنني لا أعرف ماهية شعوري تجاه أهلي بحق. علاقتي بأبي لا بأس بها لكن علاقتي بأمي صعبة للغاية، لا أريد أن أقول إنها تكرهني رغم أنني أشعر بذلك أحيانًا!!

- الكُره كلمة كبيرة ودقيقة، وأنا موقن أنك تعرفين معناها جيدًا، فمن طريقة حديثك أنت فتاة ذكية ومثقفة، متى بدأتِ تشعرين بتلك المشاعر من أمك؟ هل بسبب خلاف ما بينكما؟

- لا، ليس بسبب خلاف، فأنا أشعر بذلك منذ نما وعيي، كأني كنت أشعر به في أثناء قيامها بإرضاعي! كنت أتلقى الكُره وليس المحبة، أنا لا أريد أن أظلم أُمي فأنا أحبها لكن يعلم الله أنني لم أستشعر هذا الحب ولو مرة واحدة منها.

- أخبريني يا مها كيف حال ذاكرتك؟

- ذاكرتي؟!

- نعم، هل تستطيعين تذكُّر الأحداث الماضية من طفولتك ومراهقتك بسهولة أم تواجهين صعوبةً في ذلك؟

- الحقيقة أنا أواجه دائمًا صعوبة في تذكر معظم الأحداث لتلك الفترات، فقط أتذكر أحداثًا بسيطة متفرقة، وأحيانًا تكون تلك الذاكرة ضبابية ولا أتذكر شيئًا، والموضوع امتدَّ معي فأصبحت أنسى حتى الأحداث الحالية كثيرًا من الأحيان.

- هل تستطيعين تذكر بعض الأحداث التي حدثت بينك وبين أمك وجعلتك تشعرين بأنها لا تحبك؟

- نعم، ربما هناك أحداث لا أتذكرها لكن أتذكر البعض.

- حسنًا، فلتخبريني بما تتذكرينه، تذكُّري لا ضغط، إن لم تستطيعي التذكر سأساعدك دائمًا.

- لقد كانت تضربني دائمًا وتنهرني عند القيام بأي شيء خاطئ بسيط.

- وماذا أيضًا؟

- تخبرني أنني لست ذات نفع، وأخبرتني مرات عديدة بأنها تكرهني وأنا طفلة، وأيضًا في مراهقتي، لكن لا أستطيع تذكر المواقف بالتحديد لكن أتذكر الكلمة وطريقة نطقها وملامح وجهها وهي تخبرني بها.

- حسنًا، هذا كافٍ حاليًا، أخبرتيني في البداية بأنك تشعرين بالنبذ، هل هذا بسبب موقف صديقتك ماري أو أن هناك أصدقاء آخرين كرروا نفس الفعل معك؟

- ليس بنفس الصورة لكن في نهاية الأمر أُنبذ لنفس السبب؛ وهو كوني ألتصق بمن أحبهم بشدة

- الالتصاق هنا لأي مدى؟ هل تقومين بمطاردتهم يوميًا مثلًا عبر الهاتف أو في الأماكن التي تعلمين وجودهم بها؟

- ليس إلى هذا الحد، فلدي الكثير من الكبرياء، فقط أتصل بصديقتي المفضلة يوميًا لأعلم إن كان هناك فرصة سانحة لرؤيتها والجلوس معها.. هل لحالتي تشخيص مُعيّن يا دكتور؟ ابتسم وهو يخلع نظارته ويضعها أمامه:

- لا يوجد تشخيص في العالم من الجلسة الأولى، وحتى إذا راود الطبيب يقين بتشخيص معين لا بد له أن يطرده في جلسته الأولى، ويستمر بالجلسات العلاجية فترة حتى يكون التشخيص سليمًا ودقيقًا.

- أخشى فقط أن أكون مجنونة أو عندي اضطراب مؤذٍ لمن حولي ولا أعني ذلك.

- ليس هناك أحق من أن تخشي عليه الآن سوى نفسك، سأعطيك بعض التمارين لتقوية ذاكرتك وأخرى للاقتراب من نفسك بشكل أكبر حتى نستطيع معًا رؤيتها بشكل أوضح، مع طلب واحد أن تُدوني كل ما تشعرين به على مدار الأيام المقبلة حتى موعدنا.

- حسنًا، ما هي التمارين؟

- أريدك أن تكتبي لي عشرة أشياء تحبينها في نفسك، وعشرة أخرى جعلتك راضية عن نفسك حتى ميعادنا المقبل، وبالنسبة لتمرين تقوية الذاكرة.

قطع كلامه وهو يفتح أحد أدراج مكتبه ويخرج ورقة من ملف شفاف ممتلئ بالأوراق، ومدّ يديه بها إليّ:

- أقرئها يا مها الآن وأخبريني إذا لم تستوعي أيًا من المكتوب.

بدأت أقرأ وارتسمت على وجهي علامات الدهشة مع أول سطر:

- المشي للخلف!!

ضحك وهو يعود بالخلف بكرسيه.

- نعم يا مها، المشي للخلف، ربما يبدو طريقة غير مألوفة أن يُطلب منك أن تمشي للخلف في غرفتك بُرهة، لكن العلاقة بين الزمان والمكان علاقة وثيقة للغاية، وبناءً على ذلك قام باحثون من جامعة (روهامبتون) البريطانية باستغلال هذا الرابط الذهني بين الزمان والمكان للبحث عن وسيلة لتحسين قدرتنا على استحضار الأحداث بتجربة ذلك بشكل عملي على متطوعين، وحققوا نجاحًا كبيرًا.

- حسنًا، النقطة الثانية هي الرسم. أنا أحب الرسم، وسأقوم بما هو مكتوب، سأرسم ما أريد بدلاً من كتابته، هل أستطيع أن أرسم قائمة تسوقي مثلاً؟

- بالطبع فرؤيتك لتفاصيل الأشياء بدقة تجعلها تلتصق بمحك.

- مممم.. الرياضة، الاسترخاء، القيلولة. حسنًا أعتقد أنني سأحاول الالتزام بذلك، فقط سيكون أصعب شيء هو سزد الأشياء التي أحبها في نفسي.

وشعرت بالوجوم من مجرد الفكرة، وظهر ذلك على ملامحي مما جعل دكتور وائل يقول
بابتسامة واسعة:

- حاولي وتذكري أنك جئتِ بنفسك لرغبتك في الخلاص.

- نعم يا دكتور، أنت مُحق، حسنًا، أشكرُك وإلى اللقاء، نلتقي في الجلسة المقبلة.

- إلى اللقاء، في انتظارك.

خرجت من غرفة الكشف، وما زلت واجمة، فمطلوب مني الآن أن أكتب عشرين شيئًا يتسم
بالإيجابية عني!! عني أنا! هذا عبء ثقيل للغاية لا أعلم كيف أقوم به حتى.

٢

كان (شادي) زميلي بالعمل يحاول لفت نظري بطرق ملحوظة، مثلًا يضع نوع الشيكولاتة
المفضل لي بجوار الحاسوب الخاص بي يوميًا صباحًا، يساعدني في أي شيء له علاقة
بالعمل، يعرض عليّ خدماته حتى تجاه الأشياء التي لا أحتاج فيها إلى أحد. مع الوقت
تعلّقت به من بعيد، وكنت قد أخبرت (ماري) عنه كثيرًا، فكانت تطلب مني فقط أن أتوخي
الحذر فهو في الرابعة والثلاثين ولم يسبق له الزواج، وهي ترى أن ذلك مؤشر لشيء غريب
خاصة أنه أخبرني بأنه لم يسبق له الارتباط من قبل! بمجرد ما حدثت الفجوة بيني وبين
ماري قررتُ الاقتراب منه بكل قوتي.

- أسَلِّمَتِ (ممدوح) ما طلبه أم لا؟

- سلَّمْتُهُ بالفعل أمس.

- أعتقد أنك لم تنهيه وبحاجة للمساعدة.

- أشكرك على دماثة خلقك الدائمة يا شادي.

- على الرحب والسعة دائماً يا مها، بصراحة أنتِ شخص مميز للغاية، وسأكون سعيداً إذا سمحت لي بمساعدتك في أي شيء.

ابتسمتُ له ابتسامة خجولة وقلتُ:

- سيسعدني ذلك أنا أيضاً.

كنتُ في قرارة نفسي أعلم أنني ربما أندم لاحقاً على ذلك، لكن لديّ احتياج مُلح إلى أن أشعر بأنني محبوبة الآن وحالاً ورغم أنف أي ظروف.

عندما انتهيت من عملي وافقت لأول مرة أن أذهب معه إلى النادي كي نتحدث قليلاً.

- أنت عضو في هذا النادي منذ وقت طويل؟

- نعم، منذ طفولتي.

- وأنا أيضاً، وما زال التراس هنا أكثر مكان أشعر بالراحة عندما أجلس فيه.

- مم! لا أعلم، فكل الأماكن هنا سواء بالنسبة لي.

- ألم تمارسي هنا أي لعبة من قبل؟ أنا مارستُ السباحة وما زلتُ أتمرن.

- لا، لم أتمرن من قبل.

- حسناً، ما الذي تحبين فعله؟

- أحب الرسم والنحت والتصميم كثيراً.

- ولماذا لم تلتحقي بأي كلية تتيح لك تحقيق حلمك؟

- حاولت لكن أمي رفضت، وامتلثت لرغبتها.

- لم يفتُ الوقت، تستطيعين أخذ دورات تدريبية في هذا المجال حتى لو استغرق الكثير من وقتك، لكن الأمر يستحق.

- لم أفكر في ذلك من قبل، لكنه اقتراح رائع، أشكرك كثيرًا سأبحث عن أماكن تقوم بهذا وأتحقق بها.

ابتسم ابتسامة واسعة وهو يمرُّ أصابعه في خصلات شعره البني متوسط الطول شديد النعومة وقال:

- أخيرًا، سمحت لي بمساعدتك في شيء!

كنتُ أشعر في قرارة نفسي بعدم ارتياح بشكل ما في أثناء تودد شادي لي لكن الجوع الشديد للحب أحمَد جميع الأصوات.

٣

في غرفتي التي لا أأغارها تقريبًا بعد عودتي من العمل جلستُ أبحث عن المراكز التي تقوم بإعطاء مثل هذه الدورات المتعلّقة بالرسم والنحت والتصميم.

اقتحمت أمي الغرفة بطريقتها البوليسية المعهودة.

- أمنية حياتي أن نشعر بأننا نعيش معك في المنزل!

- عن ماذا تتحدثين؟

- عن كونك لا تغادرين الغرفة حتى موعد ذهابك للعمل في صباح اليوم التالي لعودتك!

- غير صحيح، أنا أخرج لتناول الطعام، وتنظيف المطبخ بأكمله، وجلي الصحون، وترتيب أي شيء أجده غير مُرتَّب.

- وما هي آخر مرة قمتَ فيها بتنظيف المنزل كاملاً؟!

- منذ أسبوعين، أعلم، كان لدي الكثير من العمل طوال الأسبوعين الماضيين، واحتجت إلى الراحة الجمعة السابقة لكن سأقوم بتنظيف المنزل بأكمله الجمعة المقبلة.

- هل تعتقد أن من سيتزوجك سيحضر لكِ خادمة كي تتفرغي للعمل؟!

- ولمَ لا؟ لربما حظيتُ بمن يساعدني ولو بشكل متقطع مثلما تساعدك أم حسن أحياناً.

- هل تُقارنين نفسكِ بي؟! أنتِ أقل من أي أحد، فلا تحاولي المقارنة من الأساس.

نظرتُ إليها بغضب مكتوم، فلم أكن أريدُ الشجار ولديّ الكثير لأقوم به، فأجبرتُ نفسي على ابتسامة صفراء!

- حسناً، سأضع هذا بعين الاعتبار عندما أتزوج.

استدارت كي تخرج من الغرفة، ورمقتني باشمئزاز وهي تُغلق باب الغرفة وتتمتم:

- هذا إذا وجدتِ مَنْ يتزوجك من الأساس.

زفرت بارتياح عندما أغلقت باب الغرفة، وركّزت فيما كنتُ أفعله قبل إطلالتها القادمة.

٤

في الأسبوعين التاليين لأولى جلساتي العلاجية ركّزت بشدة مع شادي، كنت أراه يومياً بعد العمل في النادي، وشعرت بتعلق شديد به، وكأنني لم أحب قبله أي شخص، ولم أفهم سبب

ذلك لكنني لم أكرث، أريد أن أشعر بأنني مهمة، لديّ شخص ما فقط، كنت قد قدمت للالتحاق بكلية الفنون الجميلة، قسم تصميم جرافيك، وأشعرتني هذا براحة كبيرة؛ فأخيراً بعد شهر سأبدأ في تحقيق حلمي القديم بدراسة ما أحبه وأريده بشدة.

أخفيت ذلك عن أمي لكنني أخبرت أبي وطلبته منه ألا يخبرها؛ لأنني في غنى عن سلسلة النقد والإحباط من عزيمتي، وعدني بعدم إخبارها، وكذلك أخبرت صغيرتي (شيرى) التي كان لديها الكثير من الأسئلة حول الأمر.

- هل يعني ذلك أنك سوف تعودين إلى الجامعة؟

- نعم يا عزيزتي، لكن بشكل مختلف.

- وهل سيُسقط ذلك شهادتك الأخرى؟

- لا بالطبع، فقط سأحصل على شهادتين مختلفتين.

- لكنك تكرهين الدراسة؟

- نعم، أكره دراسة المواد التي لا تتعلق بالفن، أنا بالفعل أحب دراسة ما قررت الالتحاق به، لا تقلقي.

- ولماذا لن نخبر أمي؟

- أنت تعرفين أنها ستقوم بتوبيخي، هل تريد ذلك؟

- لا بالطبع، فأنا أتوتر كثيراً عندما تتشاجران.

- حسناً، فلنغلق أفواهنا، حتى لا نحظى بشجار آخر.

- حسناً.

في الموعد المحدد كنتُ أجلسُ أمامَ دكتور وائل الذي قابلني بابتسامة واسعة ودعاني للجلوس.

- كيف الحال؟ أخبريني عن أيامك للأسبوعين السابقين؟

- أنا بخير، وأنجزتُ الكثير مما طلبته مني.

ناولته ورقة مكتوب فيها ما طلبه مني، وأخذ يتمتم بما يقرأ وهو ينقل بصره بين الأوراق وبينني.

- هل أخذ منك ما كتبتِ وقتًا وجهدًا؟

- نعم، الكثير بالفعل، في البداية ظللتُ ثلاثة أيام أنظر للورقة، ولا أجد ما أكتبه بها، وفي النهاية قررتُ أن أبدأ بما يراه البعض في، مثل أنني طيبة القلب وصادقة، ومن ثم بدأت تنوأل الأشياء حتى أنهيتُ القائمة، وشرعتُ أكتب العشرة أشياء الأخرى التي جعلتني راضيةً عن نفسي في تلك الأيام.

- خطوة التحاقك بدراسة ما تحبين تبدو مذهشة، أنا فخور بك كثيرًا.

شعرتُ بحرارة في وجنتي من الخجل، فلم يخبرني أحد من قبل بأنه فخور بأي شيء فعلته.

- ليس لدرجة الفخر؛ فالكثير من الناس يفعلون ذلك فلستُ أول واحدة.

- أعلم، لكن جميعهم يستحق الفخر وخصوصًا أنتِ.

- أشكر، لكن لم أبدأ بعد، ولا أعلم إن كنتُ سأنجح فلثوَّجِّل شعورك بالفخر حتى أستطيع تحقيق ذلك.

وَصَعَّ الورقة على المكتب وأمعن في النظر:

- لماذا تحاولين نفي مشاعر الفخر؟

- لستُ أنفيها، أنا فقط لا أشعر بأنني أستحقها بعد.

- مممم! هل تتضايقين إذا قام أحدهم بمدحك؟

- أعتقد بأنني لا أنسجم مع المديح.

- حسنًا، إليك جزءًا من الواجب الجديد، أريد منك أن تكتبي عشرين سببًا يدعوك للفخر بنفسك واستحقاق المدح.

حملت فيه بذهول:

- ماذا؟! أنا بالفعل لا أقبل سببًا واحدًا، فكيف تريدني أن أكتب عشرين سببًا يدعوك للفخر بنفسك واستحقاق المدح؟

رفع حاجبيه. وأشار إليَّ:

- فلتجديهم، فهذا هو المطلوب منك، وليس مني.

ختم الجملة بابتسامة لطيفة:

- حسنًا، سأحاول، الجديد أنني قررتُ أن أخوض علاقة حب مع زميل لي في العمل كان يتودَّد لي من فترة، ولم أكن أعطيه فرصة، قررتُ أن أعطيه فرصة بعد آخر جلسة.

- لا بأس، لكن ما كانت أسباب رفضك لذلك في البداية؟

شرعت في إخباره بترددي ورأي (ماري) في (شادي)، وعدم ارتياحي أحياناً لتودده وإصراره.

- إن عدم ارتباطه حتى الرابعة والثلاثين أمر مثير للتساؤل، لكن السؤال الحقيقي هنا ما الذي غيّر وجهه نظرك من النفور للقبول؟

- أريد أن أشعر بأنني محبوبة.

- فقط؟

- نعم فقط، من حقي أن أشعر ببعض الدفء العاطفي؛ فأنا أحيا في صحراء بشعة، لا شيء سوى النفور وعدم القبول، وعندما أعطيته الفرصة أشعر بأنني فعلاً أحبه، لربما أحبته منذ البداية، ولكنني لم ألحظ ذلك، هل هذا شيء خاطئ؟

- الحب ليس بشيء خاطئ أبداً، لم يكن ولن يكون، لكن من نحبهم ونوجه لهم تلك المشاعر هو الشيء الذي بإمكاننا أن نخطئ ونُصيب به.

نظرت إليه بتحدٍّ:

- هل لمجرد أنني حُرمت من الحب بشكل كافٍ يجعلني هذا غير مؤهلة للاختيار؟

لاحظ نبرتي وملامحي فاعتدل وقال بجديّة:

- لا يا مها، ليس هذا السبب، فقط الجوع العاطفي مثل الجوع الجسدي يسوقنا أحياناً إلى محاولة إشباعه بأي شكل حتى لو كان بشيء لا نستطيعه، ولا يناسب جسدنا أحياناً لمجرد أن نسد ذلك الاحتياج، هذا فقط يحتاج إلى قليل من الوعي باحتياجاتنا وكيفية تسديدها، هل فهمتيني؟

أطرقْتُ بوجهي:

- نعم، فهمتك، ربما ذلك صحيح، لكنني لا أستطيع أن أقاوم نفسي حاليًا، لربما تغير هذا مع الوقت، فلا أريد أن أشعر بالذنب تجاه المزيد من الأشياء.

- هل تشعرين بالذنب بشكل دائم يا مها؟

- نعم، فأنا أعيش وفوق ظهري كرجاج لا يفارقني، أقوم بجلد ذاتي طوال الوقت بلا هوادة، أشعر بالذنب ربما حتى من إثقالي عليك بهذا الكلام في أثناء الجلسة الآن.

- لكنني، لا أشعر بأي ضيق؛ فهذا هو عملي، لا تقلقي. هل قُمتِ بتمارين الذاكرة؟

- نعم، وكانت (شيري) تشاركني إياها خصوصًا تمارين الرجوع للخلف.

قلتها وأنا أضحك، واسترجعت لحظات تخبُّطي أنا و(شيري) في أثاث الغرفة.

- جميل، عليكِ المواظبة عليها، فنريد أن نغوص بشكل أكبر في الأحداث السابقة، وحتى نلتقي في الجلسة المقبلة، الواجب هو ما ذكرته عن عشرين شيئًا يجعلك تشعرين بالاستحقاق للمدح، وأيضًا عشرة أسباب من أجلهم لا بد أن تتوقفي عن الشعور بالذنب.

- أنت بارع في اختيار أسباب لتعذيبي!

- هيّا يا فتاة، إنها ليست أسباب تعذيب، أنتِ تعلمين في قرارة نفسك أنكِ تمشين على المسار الصحيح، فقط فلتبذلي قصارى جهدك تجاه نفسك، لا أطلب أكثر من ذلك.

- وهذا كثير لطلبه بالفعل.

- لا تستصعبين الأشياء قبل البدء بها.

رفع كتفيه وأخفضهما بشكل هزلي وهو يقول ذلك فضحكت.

- حسناً يا دكتور، هناك شيء أريد التحدث به.

- تفضلي كلي أذان مُصغية.

- لقد تعرضتُ للتحرش من خالي في نهاية مراحل الطفولة.

خلع نظارته ونظر إليَّ باهتمام.

- هل تتذكرين الحادثة بالتحديد؟ وهل كانت مرة أو باستمرار؟

- لا أتذكر كل شيء، لكنني أتذكر أجزاء من ذلك، أحياناً أشعر بأنه كان كابوساً يراودني وأنه لم يحدث، حدث ذلك لفترة، كلا، لم يكن مجرد مرة.

- هذا شيء ثقيل للغاية، أتفهم تماماً مشاعرك، لكن سنحتاج إلى الخوض في التفاصيل، هل أنت مستعدة؟

- نعم.

وبدأت في سرد ما أتذكره، وانتابني حالة من الارتعاش وبرودة عمّت كل أوصالي حتى كدتُ أفقد الوعي، فأستوقفني الدكتور وائل.

- لا بأس عزيزتي، سنكتفي بذلك القدر اليوم فأنتِ مصابة الآن بنوبة هَلَع نتيجة لاسترجعاك ما حدث، فبشكل تلقائي انتابتك نفس المشاعر التي مررت بها وقتها، أنا بجوارك لا تقلقي سنجتاز تلك المحنة.

سالت دُموعي عندئذٍ، فقدم إليَّ علبة المناشف وهو يبتسم ابتسامة مطمئنة بوجهه الممتلئ بالتعاطف.

- أنتِ فتاة رائعة يا مها، لقد مررتِ بالكثير، أتفهم مدى ألمكِ، لا بأس بالبكاء، لن تنهضي إلا عندما تشعرين بأنك بحال أفضل.
- ساد الصمت لدقائق لا أتذكر عددها، استجمعت بها أنفاسي واطمأننت بوجه الدكتور وائل البشوش وطريقته العطوفة، انتابتني مشاعر هادئة فاستأذنته في الانصراف.
- حقًا؟ هل تشعرين بأنك أفضل الآن؟ لا بأس بالانتظار، سأقوم بتأجيل الجلسة التي تليكي، المهم الآن هو ألا تنهضي إلا عندما تشعرين بأنك بخير.
- أنا أفضل حقًا، أشكرك كثيرًا على كل شيء.
- لا داعي لشكري يا مها، ثقي في أننا سنتجاوز كل ذلك، سأعرض عليك خطة العلاج وكل شيء في المرة المقبلة، وممتن لثقتك بي وأني سأسرد تلك الواقعة.
- أنت تستحق تلك الثقة يا دكتور، لم أتخيل يومًا أنني سأسرد ذلك لأي مخلوق، ستجدني مستعدة المرة المقبلة لنبدأ علاج ذلك.
- في انتظارك يا مها.
- إلى اللقاء يا دكتور.

٦

تأملتُ ملامحي في المرآة لأول مرة منذ أن وعيتُ على العالم، كنت أتجنبُ أن أطيلَ النظر في المرآة طوال سنوات عمري وكأنني سأفزع من المسخ الذي سألقاه، الآن أول مرة أنظر لنفسي وأعرف ملامحي.

تراجعتُ للوراء فزعة من الفكرة، هل كنت لا أعرف ملامح وجهي؟! هل أنا مجنونة أم عاقلة؟

اقتربتُ مرة أخرى ببُطء من المرأة، وتأمّلت ملامحي الهادئة. وجدتُ عينيّن واسعتين عسليتي اللون، تحوّلتا إلى اللون الزيتي مؤقتًا بفعل ضوء الشمس المنعكس على وجهي من فرجات شيش الغرفة؛ بشرة بيضاء يشوبها احمرار؛ شعر بني جذوره ذهبية ومجعد ملتف حول وجهي بعشوائية، أنف طويل، ولكن ليس بشكل منفر، بل باتّساق مع ملامحي، وكذلك فمي! فابتسمت مُتردّدة حيال شعوري تجاه نفسي.. فالأول مرة أشعر بأنني جميلة!

- آسفة للتأخير يا شادي، الطريق كان غاية في الازدحام، وأخذتُ الكثير من الوقت للاستعداد للنزول.

- لقد شغلّت وقتي ببعض المكالمات يا مها، لا تقلقي، لكن الغريب أنكِ ترتدين ملابسك في خمس دقائق ولا تأخذين وقتًا كالفتيات نهائيًا، ما الذي يحدث؟! ما أخبارك احكي كل شيء فلم تعودي تحكين بالتفصيل أي شيء منذ أن تركت العمل معك يا حبيبتي.

ضحكت وأنا أقول:

- لربما الحديث مع الطبيب بشكل مستمر يجعل جُعبتي فارغة من الكلام أحيانًا.

- بالمناسبة ما أخبار الجلسات؟ فأنتِ تواظبين الآن منذ ستة أشهر، أشعر بالقلق عليكِ بسبب الأدوية التي صمم أن تأخذوها.

قطبت حاجبي وأنا أقول:

- أنت تعلم بالفعل أنه في خلال الستة أشهر التي تلت بدئي للعلاج قد واظبت على التمارين العلاجية وعلى رأسهم تمارين الذاكرة التي ساعدتني كثيرًا على تذكُّر أحداث من طفولتي ومراهقتي، وكان ينصت لها دكتور وائل باهتمام شديد، ويعلقُّ بأسئلة بسيطة،

حتى إنني كنتُ أشعر بأنه يُمارس معي نوعًا من العلاج له علاقة بالاستماع أكثر، واعتدتُ
الوضع فمجرد أنني تذكرتُ وبدأتُ أحكي ما تذكرته فرق لي بشكل لم أكن أتخيله، كنتُ
أنهار وأهلع أحيانًا بسبب ما أسترجعه وأدخل في نوبات اكتئابية؛ مما جعله يساعدني
ببعض الأدوية الخاصة بالاكتئاب ونوبات الهلع، ما الذي تقلق منه في كل ما ذكرته؟! وفي
الأساس تحدثنا في ذلك من قبل، فلماذا تجعلني أبرر لك تناولتي للعقاقير مرة أخرى؟

- لا ألومك على ذلك يا مها، لكنني أشعر بأن ذلك يبعدك عني بشكل ما.

- كيف؟

- لم تعودني تتحدثين معي سوى أحاديث مقتضبة قصيرة، وبصراحة أنا أفضل مها القديمة
عن مها الحالية.

- حقًا! إذن لماذا تشغل بالك بي؟

نهضت وأنا أسحب حقيبتني كي أستعد للرحيل، ففزع شادي ونهض وأمسك ذراعي.

- انتظري يا مها، ما الذي يحدث؟ لقد أصبحت تبدين كثيرًا من العدائية مؤخرًا! لا أفهم ما
الذي يحدث لك، لكن كل هذا حدث منذ أن واطبتِ على جلسات العلاج وتعاطيتِ تلك
العقاقير، وفي نفس الوقت تغضبين عندما أخبرك بذلك.

أزحت ذراعه جانبًا وشعرته بغضب شديد.

- أولًا: أنا أكره أن يلمسني أحد في أثناء الشجار، وأخبرتكَ بذلك من قبل. ثانيًا: العلاج
النفسي هو أجمل ما قمتُ به في حياتي تجاه نفسي، ولن أتركه إلا إذا شفيت تمامًا، ثالثًا -
والأهم:- إذا كنت ترغب بـ(مها) المريضة فلن تجدها مرة أخرى، فأنا في طريقي لسكة
علاج وتعافي قد يطول وقتها كثيرًا، لكنني لن أياس ولن أنهيها إلا عندما أتحرر من كل
ألبي النفسي، وأنا أعتقد أن هذا لا يناسبك.

- نعم يا مها، هذا لا يناسبني فلقد أحببت فتاة أخرى غير التي نتحدث معي حاليًا.
- أعلم، فأنت تريد فتاة مذعورة، لا تعلم كيف تقوم بأي شيء بشكل صحيح كي ترشدها؛ فهذا مصدر إحساسك بالأمان.
- رفع حاجبيه وقال بغضب:
- طبعًا هذا كلام طبيبك العجوز العبقرى.
- نظرتُ إليه بابتسامة ساخرة.
- لا يا عزيزي، هذا تحليلى وحدي؛ فلقد زِحت الغشاوة من على أفكارى.
- حسنًا يا مها، أتمنى أن تفيقك الحياة من أفكارك النارية الجديدة.
- فلتتمنَّ ما شئت، مع السلامة.
- واستدرتُ ورحلتُ بسرعة وحسُم دون أن أنتظر ردّه.

٧

- عندما تلقيتُ الاتصال الأول من (ماري) بعد شهور من القطيعة، كنتُ قد وعيتُ لمشكلتي الحقيقية، وهي أن (ماري) ليست من تسبب بآلامي، لكن احتياجي المفرط لها واعتمادى على وجودها هو من فعل ذلك، ربما هي تحدثت بفضاظة لكن من منا يستطيع التحكم بنفسه طيلة الوقت؟!
- أوحشتيني كثيرًا يا ماري.
- وأنت أيضًا، لقد افتقدتك كثيرًا يا مها.

- كيف حالك؟ أخبريني.

- أنا بخير، وأريد أن أراك.

- حسناً، أنا أنهى عملي في السادسة كما أنا ف...

قاطعتني بحماس وتعجبت من ذلك.

- اليوم، أريد رؤيتك اليوم سأكون بانتظارك في كافيه (فيفون) بجوار المرعشلي في تمام السادسة والنصف.

- حسناً، لن أتأخر؛ فالمسافة من الدقي للزمالك قريبة للغاية.

- أعلم، ولذلك اخترتها.

قالتها بسخريتها المعهودة، وضحكت فضحكت معها.

كانت مشاعري متضاربة بين الفرح لعودة صديقتي المُقَرَّبَة لمحدثتي وبين خشيتي أن يصدر مني ما يجعلها تنفر، لكنني استجمعت صوت المحامي الذي علّمني إياه دكتور وائل للردّ على هذه الشكوك، وأخبرت نفسي بأن لا بأس حتى ولو أخفقتُ فلاأكن حقيقية ولا أنتظر ولا أبالي بشيء.

في الميعاد المحدد وجدتها تنتظرنني، واحتضنا بعضنا بود وشوق حقيقي.

- يا إلهي! لقد أوحشتني بشدة.

- وأنت أيضاً.

- أتمنى ألا أكون تسببت لكِ بآلم في فترة غيابي يا مها، فالرب وحده يعلم كم أحبك، لكنني شعرت بأنك كالطفل الذي بحاجة إلى فطام، وكنت أشعر بثقل من جميع النواحي لكنه ليس

تخليًا عنك، صدّقيني.

- أعلم يا ماري، ولا أحمل أي ضغينة يا عزيزتي، وأنتِ وصفتِ وصفَ حقٍّ، احتياجي للشعور بالأمان كان يجعلني أقوم بممارسة ضغوط كبيرة عليكِ وعلى أي أحد يقترب مني.

- أتمنى أن تعلمي أنني لم أشعر بأي نفور منك، فقط كنت بحاجة إلى بعض المساحة.

- أستوعب ذلك، لم يكن بسهولة بالطبع لكن دكتور وائل ساعدني كثيرًا.

قطبت حاجبيها وسألت بجديّة:

- من هو دكتور وائل؟

- لقد اتخذت خطوة الذهاب إلى طبيب نفسي منذ بضعة أشهر، هي خطوة تأخّرت لكن أفضل من عدم القيام بها.

انفجرت أساريرها وهي تسمع مني التفاصيل وربتت على يدي:

- رائع يا عزيزتي! وهل تشعرين بتغير فعلاً؟

- نعم، أشعر بفارق كبير، أعلم أن أمامي مشوارًا طويلًا لكن لا أبالي، في النهاية أريد أن أتعافى مهما كلف الأمر.

- أوافقك؛ فأنتِ تستحقين السعادة.

- أخبريني عن أحوالكِ يا (ماري)، وكيف حالّك مع (روبرت)؟

- بخير عزيزتي، وأريد أن أدعوكِ إلى حفل زفافنا الشهر المقبل، أنتِ أول من أدعوه، ولن تكتمل فرحتي دونك.

- مبارك يا ماري، أنا سعيدة للغاية، وأنا بجانبك في أي شيء تحتاجين إليه قبل الزفاف.

- بالطبع، فلن أعتد على أحدٍ غيرك.

- حسنًا. هذا يوم سعيد بحق.

- وبالنسبة لي أيضًا، فقد كنتُ أخشى من ردِّ فعلك طوال الفترة السابقة، وأريد أن نتصالح، لكنني خفتُ أن مكالمتي قد تزيد من ضيقك.

- بالعكس يا ماري، أنا مَنْ كنتُ أشعر بالخجل منك، فلقد ضغطك لسنوات طويلة، وفي النهاية لكل إنسان طاقة.

قالت بشيء من المزاح:

- أفتقد أن تجعليني أفقد صبري.

- حسنًا، سأحاول استعادة بعض طباعي القديمة لأجلك.

قلتُ ذلك وانطلقتُ ضحكتنا معًا.

عندما عدتُ إلى المنزل شعرتُ بأن هناك شيئًا لا أفهمه بي، فلم أخبر (ماري) عن (شادي)، ولا عن أمي. لم أشعر برغبة من الأساس في إخبارها عن أي شيء سوى بعض الأشياء العادية. وبالرغم من اندهاشي فإنني شعرت بنوع من الراحة، تخلصي من التعلُّق المرضي بـ(ماري) في اعتقادي هو خطوة كبيرة واجبة في سبيل الشفاء.

وعندما ذهبتُ إلى دكتور وائل في الجلسة التي تلت تلك المقابلة كنتُ أشعر بفخر تجاه نفسي! كانت هذه هي أول مرات شعوري بالفخر تجاه نفسي، كنتُ قد بلغتُ الثانية والعشرين من عمري ولم أفخر بنفسي بعد!

- اليوم أنا فخورة بنفسي يا دكتور!

- رائع! هذه هي أول مرة أسمعك تتفوهين بها يا مها.

- نعم، وستسمعها كلما حققت إنجازًا.

- فلتخبريني، هيّا.

- لقد تصالحت مع ماري، وللغرابة عندما التقيتها لم أشعر بذلك الشعور المحموم بأنه لا بد لي أن أخبرها بكل شيء، لم أجلس أمامها كمقترف الذنب الذي يطلب المغفرة من القس كما اعتدت أن أفعل سابقًا، وهذا ولدّ لدي شعورًا بالراحة والفخر.

- جميل يا مها، هذا هو بالضبط ما كنا نسعى إليه، التخلّص من الاعتمادية في العلاقات، وما فعلتبه هو خطوة جيدة في سبيل ذلك، وسنستمر كما نحن تحسبًا لأي انتكاسات بنفس التمارين التي نعمل عليها باستمرار كي نُعزّز ثقتنا بأنفسنا، فلتخبريني كيف هي الأحوال مع أمك؟

- لقد عَلِمْتُ بالتحاقي بكلية الفنون في أثناء تمشيطها لدولابي وحدثت إيصالات دفع المصاريف، وثارَت وكادت تفتك بي لولا تدخل أبي و(شيرى)، وعندما سألتها: لماذا كل هذه الثورة؟ أخبرتني بأنه لا يجوز لي العيش تحت سقفها دون أن تعلم كل شيء عني، وأن هذا هو حقها، وأي مخالفة لذلك هي عقوق مني، وبأنني في كل الأحوال سأحترق في الجحيم كالعادة، ووجّهت اتهامات بالدلال والإفساد لأبي.

- حسنًا يا مها، آن الأوان الآن أن نتكلم في قضية والدتك بشكل آخر، فلتنصتي إليّ جيدًا، أي طفل على ظهر هذا الكوكب يتطلّع إلى والديه من أجل الحب والدعم والتشجيع، ومن المهم أن يشعر الأطفال بأن آباءهم يرونهم ويسمعونهم في أثناء نموهم، وإنه من المؤلم حقًا أن تكبري مع أم تحرمك من هذه الحقوق العاطفية. ولكن لسوء الحظ، هذه هي حقيقة

الأطفال الذين يكبرون مع أمهات نرجسيات؛ فأمك -للأسف يا مها- مُصابة باضطراب الشخصية النرجسيّة.

اتسعت عيناى وأنا أستمع إلى تشخيصه، واضطربت دقات قلبي، فأنا على وشك أن أتأكد أنني لستُ بمجنونة بعد سنوات العذاب والشعور المستمر بجلد الذات.

- فالأم النرجسية يا مها غير قادرة على إعطاء طفلها الاهتمام الكامل، والتحقق من القدر الذي يحتاجون إليه ليشعروا بالحب والأمان العاطفي. وقد يؤثر هذا في معتقدات الطفل وسلوكياته وتقديره لذاته حتى مرحلة البلوغ.

فاضطراب الشخصية النرجسية NPD هو اضطراب نفسي، يتميز بأعراض مختلفة. فالأم النرجسية مثلاً تشعر بأهميتها الذاتية فوق الجميع، وتسعى إلى نيل الإعجاب من جميع من حولها، وتعتقد أنها أفضل من الآخرين، وتفتقر إلى التعاطف، وتستغل أطفالها، وتحط من قدر الآخرين، وتعاني فرطاً في الحساسية تجاه النقد، وتعتقد أنها تستحق معاملة خاصة. والأسوأ من ذلك كُله، أنها ربما لا تتبين الضرر الذي تتسبب فيه. بالإضافة إلى ذلك، قد تستخدم الأم النرجسية أطفالها لتحقيق أهدافها ورغباتها على حساب رغبات الطفل، وحتى احتياجاته العاطفية أو الجسدية. فعلى سبيل المثال، قد تأمر الأم النرجسية طفلها بالمساعدة في أعمال منزلية شاقة بعد أن يشكو مثلاً من مرض أو من التعب نتيجة يوم مرهق وطويل، ولا تهتم بسؤال طفلها عن حاله والاستماع إلى شكواه ومعرفة ما يعانیه. نتيجةً لذلك، قد يكبر أطفال الأمهات النرجسيّات وهم يشعرون بالارتباك والضعف والدونيّة وعدم المحبة وعدم الشعور بالأهمية.

- يا إلهي، أشعر بأن قلبي سيتوقف يا دكتور وائل. كيف كنتُ أستطيع اكتشاف كل ذلك وحدي؟!

- صعب طبعاً أن تكتشفي ذلك وحدك، لكن هناك سمات أساسية مشتركة تفضح شخصياتهم، فمثلاً تحتاج الأم النرجسية باستمرار إلى أن تكون المحادثات عنها، تتفاخر

بإنجازاتك أمام الآخرين، ولكن نادرًا ما تُثني عليك أو تعترف بك شخصيًا، تلوم الآخرين على أي مشكلات قد تكون لديك، وهي مشكلات تنبع من سلوكها، تكون حنونًا ومهتمةً في وجود الآخرين، لكنها متحكّمة وقاسية عندما لا ينظر أحدٌ إليها، تجعلك تشعرين بالسوء لعدم فعل ما تريده على الفور، تجعلك تشعرين بالذنب من خلال التباهي بما تفعله من أجلك، لا ترحم، تفعل أي شيء يمكنه أن يجعلها متصدّرةً جميعَ المشاهد، تجعلك تشعرين بالقلق، وغالبًا ما تُقلل من ثقتك بنفسك. ببساطة هي تمحو صورتك الذاتية وتضع مكانها صورةً مشوهة لا تمت للواقع بصلة يا عزيزتي.

بكيث، سالت دموعي ساخنةً دون إرادتي وأنا أحاول استيعاب كل كلمة ذكرها، فمدّ يديه بعلبة المناديل ونظر إليّ بعطف.

- أعرف أن هذا ثقيلٌ على نفسك، ليس بالهين أبدًا أن نعرف أن أحد والدينا لا يعرف ما هو الحب، لكن هذا ليس شيئًا اختياريًا للأسف، الاختيار الذي تملكين أمره هو التعافي يا مها، وأثق في قدرتك على ذلك.

- أشكرك لثقتك يا دكتور، بالفعل أنا كُلي عزم أن أترك تلك المشاعر وراء ظهري، فليس لديّ ترف اختيار آخر، فلقد قصّت أُمي جناحي وألقنتني من أعلى الجبل وهي تقول لي: هيا طيري! الآن إما أن أطيروا إما أن أسقط وألاقي حتفي ببساطة، وأنا قررت الطيران.

- ستفعلينها يا فتاة، فأنت مميزة للغاية، شخصية نادرة يا مها، وتقدمك جيد، والوقت معنا.

- نعم يا دكتور، أشكرك للغاية.

الفصل الثالث

«لا تتحدّد كينونتي بما سبق وحدّث معي، ولكن بما أختار أن أصبحه».

كارل يونج.

١

عندما التقيتُ عبدالله للمرة الأولى في العمل اعتقدتُ بأنه شخص ثقيل الظل للغاية؛ فهو عبوس، لا يتبادل الدعابات عكس باقي الزملاء. وكنت قد حصلت على ترقيتي في القسم الذي أعمل به (التسويق)، وبدأت أنسّق العمل مع قسم (الدعاية والإعلان)، وهو القسم الذي يعمل به عبدالله.

- عبدالله، من فضلك أريد ردًا حاسمًا اليوم.

- ردّ حاسم على ماذا يا مها؟!

- ميعاد بدء الحملة مرتبط بموعد انتهاء عمل الدعاية كما تعلم.

- نعم، لكنني أحتاج إلى أسبوع آخر.

- أسبوع؟! عبد الله، هذا سيؤدي بنا للهلاك، فمسيو (لوران) لن يقبل بذلك.

- شغل الخواجات يسبب لي ألمًا بالرأس الحقيقة، لا أعلم لماذا يتركون بلادهم ويأتون للعمل هنا، فنحن بنفس كفاءتهم وأعلى!

هذا حقهم؛ لأنها شركة متعددة الجنسيات كما تعلم.

قلتها بنوع من التهكُّم، لاحظته هو على الفور، فنظر إليَّ بضيق، فتظاهرت بالانشغال بتعديل خصلات شعري.

- حسناً يا عبد الله، أنتظر منك التسليم في خلال يومين.

- أظن أنك أخطأت السمع.

- لم أخطئ السمع فقط، أخبرك كيف ستدار الأمور طبقاً لخطة المدير الأجنبي الذي تكره وجوده.

لم يجبني ونظر إليَّ بطريقة لم أستطع تفسيرها.

هذه هي بداية علاقتي بعبد الله التي وصلت إلى أننا أكملنا شهرين معاً منذ خُطبتنا!

- لماذا لم تردي على اتصالات أُمي أمس يا مها؟

- لقد كنتُ نائمةً وسأحدثها اليوم يا عبد الله.

- هل من العسير أن تجيبها ثم تُكملي نومك؟!

- نعم، فأنا في الأساس أضع هاتفي على الوضع الصامت كما تعلم في أثناء النوم، فكيف أجيبها إذا لم أسمعها من الأساس؟!

- ولماذا تُصرِّين على أن تفعلي الخاصة الصامتة في أثناء النوم من الأساس يا مها؟!

- لأن نومي خفيف ومضطرب، وأحتاج إلى مُنوم كي أنام، ورغم ذلك أستيقظ مع أبسط صوت.

- وها شيء آخر لا يعجبني يا مها، لماذا تتعاطين هذه العقاقير؟!

- أنت تعلم منذ أصبحنا أصدقاء وقبل خُطبتنا لماذا أتعاطى هذه العقاقير؛ أي منذ ما يقترب من العام وأنت على علم بهذا، فلماذا الآن تشعرني بأنك تعرف هذه المعلومة للمرة الأولى؟

- لأنني مستاء من ذلك.

- وتذكرت استيائك عندما لم أرد على اتصالات والدتك يا عبد الله؟

- نعم، ولا أرى غضاضة في ذلك، فلا بد أن تُحسني علاقتك معها؛ فنحن سنسكن في الطابق الأعلى لشقتها وهي تهتم بأمرك كثيرًا، وترى أنك لا تُحبين صحبتها.

- كيف لا أحب صحبتها وأنا أعاملها بشكل جيد دائمًا؟ أنا فقط لستُ بشخص متحدث لكني أراعي ذلك عند رؤيتها.

- ليس كافيًا؛ فهي تريدك أن تزورها بشكل دائم.

- أنت تعلم أن أمي سوف تدفني حيّة لو فعلت ذلك!

- ها هي نفس النعمة، أمك ستقتلك لو زرت أمي، أو خرجت معي، أو إذا حدثتُك في وقت متأخر وكأنك طفلة ولا تقتربين من الخامسة والعشرين من العمر وعلى وشك الزواج!

- أنت تعلم منذ البداية طبيعة علاقتي بأمي يا عبد الله، فهذا شيء أخبرتك به منذ البداية أيضًا!

- لكنه شيء يُخيف أمي كثيرًا.

- أمك! وما دخل أمك بذلك؟ ولماذا تخبرها من الأساس عن شيء يَحْصني! ما الذي يحدث هنا؟ لا أفهم!

- بصراحة أُمي لديها تحفُّظات وتخوُّفات من زواجنا يا مها، ومؤخَّرًا شعرت بأنني أتفق معها.

- هل هذا يعني إنهاء خِطبتنا، فلتكُن صريحًا يا عبد الله، لا أريد كلامًا غير مباشر.

- سيكون هذا في مصلحة الجميع.

- حسنًا، فلتحدِّث أبي وتُنهي الأمر.

- أُمي ستحدِّثه.

- ليكن.

أمسكتُ بهاتفني بمجرد مغادرة عبد الله، واتصلت بعيادة دكتور وائل لحجز ميعاد مُبكر عن المعتاد، وبعدها توجهت إلى منزلي كي أخبر والدي بالخبر.

- أبي، لقد فسخ عبد الله الخطبة.

- جيد، كنت أراه سخيًّا.

- حقًّا؟!

- نعم يا حبيبتي، فقط لم أرد أن أتدخل في اختيارك لكنني لم أحبه حقًّا.

- لربما شعرتُ بأنه سخي في بعض الأوقات أيضًا لكنه عاملني بلُطف في كثير من الأحيان.

- أنتِ تستحقين أن تُعاملني بلُطف طيلة الوقت يا عزيزتي.

- مشكلتي هي أنني لا أريد أن أخبر أُمي، هَلَّا أخبرتها نيابةً عني؟ أم تظن أن هناك فرصةً لعدم إخبارها من الأساس؟

ضحك أبي كثيرًا واحتضنني.

- لا تقلقي، سوف نخبرها معًا.

- حسنًا.

سحبني من يدي وذهبنا إلى غرفة أُمي التي كانت تجلس على الفراش تطوي الملابس.

- لقد فسخت خطبة مها وعبد الله.

التفتت أُمي إليّ بنظرة نارية ورطمت على صدرها:

- ماذا تقول؟! لماذا؟! ما الذي فعلت به يا مها؟ ألم أخبرك مليون مرة بأن تحسني التصرف معه؟

شرعت في البكاء وقالت من وسط نهنهتها:

- من الذي سيَرْضى بالزواج بك الآن؟!

٢

- أخبرني يا دكتور ما مُشكلتي تحديدًا في العلاقات؟

- حدّثيني أولاً عن مشاعرك الآن؟

- بصراحة، أنا لست حزينة، لكني لست فرحة أيضًا! أحيانًا أشعر بأن مشاعري مخدّرة.

- تجاه عبدالله أو في العموم؟

- في العموم، منذ أن عملت جاهدة للسيطرة على احتياجي وتلقي الشديد بالآخرين وأنا أشعر بهذا التخدير.

- في هذه المرحلة هذا شيء مقبول يا مها، لكن أريد أن أعرف هل فسحة الخطبة لمست أو أثارت أي شيء بداخلك؟

- نعم، أشعر بأنني لا أستحق الحب، وأني لست جيدة ولا صالحة للخوض في علاقات، أنا لا أستحق.

- عندما تنشئين في عائلة تُهيمن عليها أمٌ نرجسية، يمر كل يوم وأنتِ تحاولين جاهدةً أن تكوني فتاةً جيدةً وتفعلين الصواب. أنتِ تعتقدين أنكِ إذا بذلتِ قصارى جهدك لإرضاء الناس، فسوف تكسبين الحب والاحترام الذي تتوقين إليه، ومع ذلك تستمعين إلى أصواتٍ داخليةٍ مألوفةٍ تقدّم لكِ رسائلٍ سلبية تُضعف احترامك لذاتك، وثقتك بنفسك، وطبعًا أمك بذلت قصارى جهدها لإيصال ذلك.

- هذا وصف دقيق يا دكتور؛ فدائمًا ما أشعر بأنني لستُ جيدة بما فيه الكفاية، وأنني مُقدّرةٌ لِمَا أفعله، وليس لِمَا أنا عليه، وأنني غير محبوبة.

- نعم يا مها، ولأنك سمعتِ مثل هذه الرسائل التي تُنكر ذاتك عامًا بعد عام، والتي كانت نتيجة التغذية العاطفية غير الكافية عندما كنتِ صغيرة، فإنك تشعرين بالفراغ في الداخل ونقص عام في الاطمئنان. أنتِ تتوقين إلى أن تكوني حول أناسٍ مخلصين يتمتعون بالأصالة، وهذا بالطبع يجعلك تكافحين مع علاقات الحب، وحالة التخدير الموجودة حاليًا نتيجة مقاومتك لمشاعرك؛ لأنك تخشين إذا تركتها أن يكون الألم مبرحًا، لكن لا بدّ لكِ من تركها يا مها، أن نتألم هو شيء صحي وجزء من رحلة التعافي، لا بد أن نقبل الألم ولا نهأه؛ فبعض الألم شفاء.

- نعم، هل تعلم يا دكتور وائل أن أكبر مخاوفي قد هدأت عندما فسخت الخطبة؟

- وما أكبر مخاوفك؟

- أن أنجب وأصبح مثلها.

- لن تُصبحي مثلها أبدًا يا مها، أنتِ هنا كي تتخلصي من آثارها السامة، وأي سمة قد اكتسبتها من التعامل معها نحن في طريقنا للتخلص نهائيًا منها.

- المشكلة أن نموذج الأمومة في رأسي ومشاعري أصبح مُشوَّهًا تمامًا، لا أستطيع أن أستوعب ما هو معنى الأم الجيدة من الأساس.

- يا مها، إن الأمهات لسنَّ بكائنات كاملة، ولا يحتجن إلى ذلك. ليس هناك كائن بشري مُطالب بالكمال عمومًا؛ فقط الأم الجيدة هي التي يراها الطفل بعيونه الصغيرة تُوفي متطلباته العاطفية؛ فقط هو يحتاج إلى مشاعر صادقة، وأن يشعر بأنه يستطيع الاعتماد عليها والوثوق بها. (الأم الجيدة) مصطلح صاغه (د. دبليو وينكيوت) لوصف الأم التي تستطيع تلبية احتياجات طفلها العاطفية والنفسية عبر التكيُّف معه ومع احتياجاته.

- فقط؟!

- نعم فقط، لكن الأم لن تتصرَّف دائمًا بشكل صحيح، بل عليها التعلُّم كيف تفعل ذلك، وعندما لا تفعل ذلك، يحدث العكس، بأن يُضطرَّ الطفل إلى التكيُّف مع الأم، مما يتسبَّب في أن ينشأ الطفل بنفسية مزيفة غير حقيقته التي عجز عن رؤيتها في كنف رعاية الأم. ببساطة يا مها، نستطيع تلخيص رسالة الأم المشبعة عاطفيًا في عبارات بسيطة مثل: أنا أراك، أنا سعيدة لأنك هنا، أنت مميز بالنسبة لي، أنا أحترمك، أنا أحبك، احتياجاتك مهمة بالنسبة لي، أنا هنا من أجلك ومن أجل راحتك ومساعدتك، سأخصِّص وقتًا لك، سأبقىك آمنًا، أنا أستمتع معك، ستجد الراحة معي، وبالطبع وعلى النقيض من تلك الرسالة، نجد

رسالة الأم غير المتاحة عاطفياً والمنتهكة لطفلها، عكس كل ما قلته؛ ومن هنا تُخلق المعاناة.

- وأنت لا تعتقد أنني سأكون مثلها إذا أنجبت ذات يوم؟

- لا أعتقد ذلك على الإطلاق، فقط نحتاج إلى أن نتمهل قبل أن نخوض في أي علاقة حتى نتحقق من صلاحية الشخص لك يا مها، أنت مميزة للغاية، ولا تحتاجين إلى مَنْ يخبرك بأنك غير ذلك بأي حالٍ من الأحوال، وخطوة علاجك خطوة حاسمة في حياتك كلها.
- نعم.

- سؤال أخير: هل لفشلي في العلاقات العاطفية علاقة بالتحرش الذي حدث لي؟

- لا يا مها، لقد خُضنا خلال الستة أشهر الماضية رحلة علاج مكثفة للغاية بخصوص ذلك، ولقد أبدت استجابة رائعة وحققنا تقدمًا سريعًا يحتاج إلى عزيمة فولاذية، أنت تملكينها بالفعل.

- أنا نفسي استغربت لذلك!

- عندما يتعرض الإنسان للاعتداء الجنسي، تكون لديه رغبة بالانفصال عن الحدث، إبعاده عن ذاكرته ومحاولة نسيانه تمامًا. تشير العديد من الدراسات إلى أن هذا الجهد يفشل في كثير من الأحيان، ويزيد من الشعور بالقلق والعُزلة عند ضحايا الاعتداء الجنسي، في حالتك يا مها، رغبتك في الخوض في الحدث والشفاء منه ساعدتنا كثيرًا.

- تمارين الاسترخاء التي علمتني إياها في أثناء الجلسات أفادت كثيرًا يا دكتور، كذلك التخلص من تلك الذكرى عن طريق الحديث عنها بشكل مستمر طوال الستة شهور الماضية طهرتني تقريبًا.

ابتسم لي وهو يعتدل بكرسيه:

- تذكيرك لنفسك دائماً أن الأمر مجرد ذكرى وقد مرّت ولكنها ليست واقعاً شيء ساعدك أيضاً، أنت قوية يا عزيزتي، أنا فخورٌ بكِ.

ابتسمت بفخر.

- أشكرُك يا دكتور.

- هل هناك شيء آخر يُؤرِّقُكِ بشأنِ فسخِ الخطبة؟

- نظراتِ أمي!

- إذن عليك الانشغال بعملك ودوراتك التدريبية وقضاء وقت كبير بعيداً عن المنزل حتى تشعرني بأنك تستطيعين تحمل الوجود بقربها، لا نريد أن تنشغلي بنظراتها وتهملي تعافيكِ من العلاقة، فمهما كنتِ غير مكترثة بشأنِ خطيبك السابق إلا أن هناك آثاراً عليكِ تخطيها، هل تعمل الأدوية معكِ بشكل جيد أم نحتاج إلى تغيير شيء؟

- لا، أنا بخير لا أريد تغيير شيء في دوائي.

- جيد، فنحن على المسار الصحيح.

ختم قوله وابتسم، فبادلته الابتسام.

٣

عندما بلغت الثامنة والعشرين دون زواج كادت أمي تقيم مأتماً يوم مولدي! لكنني لم أكرث، فسبع سنوات من العمل على نفسي جعلتني صلبة أمام ضرباتها النفسية المؤلمة، واستجمعتُ شجاعتي، وقررتُ ترك عملي الحالي، والعمل بشكل رسمي بمجال التصميمات.

- لقد جُننتِ بحق!

صاحت أمي وهي تقتحم غرفتي بغتة.

- ماذا هناك؟

- ماذا هناك؟! ماذا هناك! هل ستتركين عمك كما يقول مجدي؟

- نعم.

- وتتوقعين أنني سأوافق على ذلك؟

- وما دخل موافقتك يا أمي في عملي؟

- موافقتي على كل شيء هي أساس وجودك يا هانم.

- لا أعتقد أن موافقتك على تغيير مجال عملي شيء له علاقة بكونك أمي.

- ستظلين غيبية وجاحدة إلى آخر يوم في حياتك، لا فائدة منك، تريدين أن تُصبحي مُصممة تافهة وتتركي شركة عالمية قبلت بمثلك في فرصة لن تتكرر طوال حياتك مرة أخرى! لقد كانت معجزة وحيدة أنك قد أفلحت في شيء، والآن تريدين أن تركلي النعمة التي أرسلها لك الله بهذه البساطة؟!

- معجزات الله تتجلى في كل شيء، لقد تجلّت إليّ في التصميمات هذه المرة.

قلْتُ جملتي بسخرية مكتومة، لكنها أدركتها واقتربت مني، وجلست على الفراش المجاور لمكتبتي وقالت بصوتٍ هاديٍّ:

- هل تعلمين شيئاً، هناك سبب وجيه لكوني أخشى عليكِ بهذه الطريقة يا مها، أنتِ ضعيفة، غيبية، بلهاء بالمعنى الحرفي، لا تُجيدين شيئاً طيلة حياتك، أنا أحاول مساعدتك وأنتِ

ترفضين بمنتهى التبجُّح والجحود، حسناً فلتفعلي ما تشائين، لكن لا أريد أن أسمع نحيبك ليلاً عندما تفشلين، فصوت نحيبك الليلي يزعجني عندما أحاول مواصلة نومي.

- أعدك بأنني سأخفض صوت نحيبي إذا فشلتُ.

قلتها بنفس السخرية المكتومة، وعدتُ للالتفات إلى ما كنتُ أفعله على الحاسوب.

٤

لقد أضاء قراري هذا حياتي حرفياً؛ أن تمتهن ما تحبه وتهواه مختلف تماماً عن العمل بشيء أنت فقط وجدته فرصة جيدة.

- مها، لقد افتقدتُك يا عزيزتي كثيراً، كيف حالك؟

- أنا بخير يا (ماري)، كيف أحوالكم جميعاً؟ وما أخبار صغيري ديفيد؟ لقد افتقدته كثيراً.

- هو أيضاً مفتقدك بشدة، ويكثر من السؤال عن ميعاد زيارتك المقبلة.

- أخبريه بأنني سأتي قريباً، فقط أنا أضع اللمسات الأخيره على أحد المشاريع المهمة؛ لأن (عادل) في إنجلترا ولم يعد بعد.

- عادل الذي لم ألقه حتى الآن.

- سأجمعكم قريباً يا عزيزتي.

- سيكون هذا جيد؛ لأنني أراه شخصاً جديراً باللقاء.

قالتها بلهجةٍ ماكرةٍ أعرفها، فضحكت.

- إننا مجرد شركاء عمل، (عادل) كما حكيثُ لك ألف مرة، المعيد الذي درس لي في كلية الفنون، وانضمامه لي في مشروع نوع من التشجيع، ونحن نعرف بعضًا منذ خمسة أعوام، فما الذي سيجدُ الآن؟

- سيجد أن شركاء العمل يستطيعون الاندماج أكثر، ويملكون الفرصة لمعرفة بعضهما عن قرب، وأنا أراه مناسبًا.

- وأنا؟

- لا يهمني رأيك.

قالتها وضحكنا معًا بمرح.

- سأقيم حفلة بسيطة للترحيب بصديقة عائدة من الخارج، وقررت الاستقرار طويلاً، وأريد أن أدعوكِ إليها، ولن أقبل الرفض يا عدوة الحفلات!

- أرسلني لي الميعاد عندما تُحددينه وسوف أحضر يا عزيزتي، لكن إذا جلست أنعق كالبومة لا تغضبي.

- انعقي كما تُحبين، المهم أن أراك.

أنهيتُ المكالمة على باب العيادة، حيث كان ميعادي مع دكتور وائل بعد شهرين من آخر جلسة، فبعد أن قطعت رحلة تعافٍ طويلة، أصبح نمط جلساتي فقط عند الحاجة، وكنت أشعرُ أن بلوغي الثلاثين الشهر المقبل شيء محوري، وأريد أن أرى أين أصبحت ببساطة.

- أهلاً يا عزيزتي، كيف حالك؟

- بخير يا دكتور، سعيدة لرؤيتك.

تأملت تجاعيد وجهه التي زادت بشكل كبير وشعره الذي أصبح بلون الثلج بشكل كامل،
وشعرت بالخوف من فقدّه، لقد مثل (وائل) في أعماقي أبي الذي كنت أرغبه طيلة حياتي
رغم أنه في عمر جدي تقريبًا، لكنه أصبح نموذجًا للأبوة في عيني.

- ما أخبارك؟ طمئنني على مشروعك الجميل.

- بخير، أنا الآن معروفة بشكل نسبي وسط المصممين، وهذا معقول نظرًا لأنني الشهر
المقبل سأكمل عامين منذ بدء ذلك المشروع، لا أخفي عليك أن العمل الحر مرهق، ويتطلب
مجهودًا لا يتوقف خاصةً في البداية، لكن كل هذا يهون أمام أن أكون كما أريد أن أكون،
ليس كما فرض عليّ كونه.

- فخور بك كثيرًا يا مها، لقد تقدمتِ عبر السنوات ببسالة شديدة، وأرى أخرى غير التي
جاءت إليّ منذ أعوام، لقد أصبحتِ مها التي كنت تبحثين عنها، وهذا أكبر إنجاز في الرحلة.

- أشكرك يا دكتور، لكنني ما زلتُ أتعرض لبعض الانتكاسات.

- نعم، وهذا أيضًا لا بأس به، تحدث الانتكاسات، ونُشابر كي نخرج منها بأقل الخسائر.

- الذي اختلف بحق أنني توقفت عن محاولاتي لكي أكون ذات جدوى في نظر (زهرة) أمي؛
إذ كنت دائمًا عديمة الجدوى مهما بذلت من مجهود؛ أنا التي عكفت طيلة الوقت على بذل
مجهود رهيب في جميع علاقاتي بالبشر، حتى برعت في لعب دور المقامر. كنتُ أمتلك
طاقةً من العطاء فيّاضةً، لا أرى مانعًا من أن أزيد. عقلية المقامر تعتمد دائمًا على زيادة
الرّهان. لقد راهنتُ بألف جنيه من مالي وخسرتُ. هل إذا راهنتُ بألفين سأكسب الرهان
مضاعفًا؟ بنفس المنطق، كنتُ أتعامل -كمقامر عاطفي- في استثمار علاقتي بالبشر، هل إذا
أعطيت أكثر ستنجح هذه العلاقة؟ لم أنجح في أيّ علاقة بشرية بهذا المنطق الخاسر
المريض أبدًا؛ لأن هذه العقلية كانت منجم ذهبٍ للنرجسيين، وبالذات النوع الخفي منهم.

- هذا إنجاز ليس بالهين أبدًا، حاليًا لا أرى مكانًا لمزيد من النرجسيين بحياتك يا مها.

- نعم، أشعر بهذا في قرارة نفسي، فمع الضربات المتفرقة تعلّمت أن أطردهم وأطرد معهم هذا المقامر الخاسر من حياتي، مع طرده تخلّصت من عادة إدمانية كارثية، جعلني التخلّص منها شخصًا متوازنًا. لم أعد مُولّعة بإنجاح علاقاتي؛ فالعلاقات الإنسانية بالأساس علاقات تبادلية قائمة على رغبة مشتركة في التواصل والعطاء والاستمرارية، إذا غفل طرفٌ منها عن ذلك، فليس دور الطرف الآخر أن يضع العلاقة على عاتقه ويجول بها منتظرًا استمرارها. في مجتمعاتنا الشرقية تقوم معظم العلاقات الإنسانية على عائق النساء، وعُززت وعُززت فكرة أن تضحية النساء هي أساس العلاقات الصحية والسليمة، فأصبحت حتى الصداقات النسائية معتمدة على قدرة طرف على التضحية أكثر من الآخر، كأنه شيء إلزامي. لم يعد هناك مجال لفكرة نقطة التلاقي التي ببعض المجهود ستريح جميع الأطراف، وإن كان ذلك في صداقة وطيدة!

- تخلّصك من المقامرة في العلاقات استحقّ مجهودك المبذول كله، التضحيات لا تعني أن نلغي ذواتنا لنحظى بالقبول.

- اكتشفت ذلك في رحلة العلاج، أعتزُّ كثيرًا بكوني أصبحت أقدر قيمة نفسي؛ فجزءٌ من مقامرتي كان نابغًا من عدم تقديري لقيمتي الفعلية. كنت أفضل الآخرين على نفسي. فقط تعلمت أن أكونَ طيِّبة وكريمة ومُضحية تجاه نفسي، مثلما أفعل مع مَنْ أحبهم وأفضّلهم في حياتي. فقط وضعتُ نفسي على قَدَم المساواة معهم، أحببتُ نفسي دون خجلٍ أو ادّعاء زائف أن حبَّ النفس خطيئة؛ حبُّ النفس دون أنانية وندرجسية مريضة هو أهم أنواع الحب؛ فمن لا يحب نفسه لا يستطيع أن يحبَّ أحدًا مهما خدع أو أوهم نفسه أو الآخرين بعكس ذلك. ليس من المعقول أبدًا أن نطالب الآخرين أن يحبونا ويتعاملوا معنا بطيبة وكرم، ونحن نضنُّ على أنفسنا بهذه المعاملة أساسًا! مَنْ أحقُّ من نفسك أن تراعيه؟! راعِ نفسك أولًا كي يراعيك الآخرون بالتبعية. مفتاح نجاتي بدأ بتقديري وحيي لذاتي، ثم توالت أمراضِي بالشفاء تباغًا.

- أنتِ الآن على أرضية صلبة، وهذه أرضك لا تُفرطي فيها أبدًا.

- بالفعل يا دكتور أشعر بهذا، إنني أقف حاليًا على أرضي الصلبة، فَرِحَةً تارَةً وحَزِينَةً أُخْرَى.
لكن مهما عصفت بي مشاعر جيدة أو سيئة، أشعر بالطمأنينة؛ لأن هذه الأرض استغرق بناؤها سنوات من عمري؛ فعندما يكون مصدر أمانك هو نفسك، فلن يكون هناك ما يُخيف،
وستقبل كُلَّ ما هو آتٍ بصدر رحب.

- كالعادة يا مها أنا فخور بك، ليس الجميع يحرزون ما أحرزتيه في علاجك، فأنتِ حقًا
مميّزة.

- شكرًا جزيلًا يا دكتور.

الفصل الرابع

«يمكن للمرأة البالغة أن تبحث عن قيمتها الذاتية وأن تعثرَ عليها، وقد ترتقي سُلّم الأهمية، إلا أن الفتاة خلال مرحلة الزعزعة من الطفولة إلى الأنوثة تحتاج إلى المساعدة في تحديد قيمتها، ولا أحد يمكنه مداهنتها مثل والدتها».

جان والدرون

«التخلي عن سيمون»

ترجمة د. ليلي أحمد حلمي.

١

في الميعاد الذي حددته (ماري) للحفلة كنتُ أدقُّ الجرس مع (عادل) الذي كان متأنقًا كعادته وكأنه خرج للتو من دُش بارد مُنعش بشعره الذي تدلَّت خصلة منه أحيانًا في أثناء تحركه، فيقوم برفعها بيديه بحركة راقية تلقائية تنجح دائمًا في زرع ابتسامة على ثغري.

- مرحبًا تفضلوا، نُورَت يا عادل، وأنتِ يا مها أوحشتني كثيرًا.

أعقت عبارتها بعناق طويل قطعه أن (إيفون) أختها صاحت بترحاب شديد منادية اسمي، وجريت لتحضني وبعد تبادل السلام المصحوب بالمزاح جلسنا.

- لقد كنتُ أنتظر رؤيتك يا عادل بفارغ الصبر، ف(مها) حدثتني عنك كثيرًا.

- وأخبرتني بالكثير عنك أيضًا يا (ماري) مما جعلني متشوقًا للجلوس معك، أشكرك كثيرًا على الدعوة.

- لا حاجة للشكر فهذا بيت مها؛ هي أختي التي أعتز بها كثيرًا.

- أنت أيضًا يا (ماري) أختي، وسعيدة بأننا استطعنا توفيق ميعاد لنرى بعضنا البعض، فمشغولياتك ومشغولياتي أصبحت لا تترك مجالًا للقاء مثل سابق عهدنا.

- نعم يا عزيزتي، للأسف!

عند هذا الحد من الكلام سمعنا طرقات على باب الشقة وسرعان ما ظهرت ليلى، كانت هي المرة الأولى التي أراها فيها، لكنني بمجرد النظر إليها شعرت بأنني أعرفها منذ سنوات طويلة! بشعرها الأصفر المرسل الذي يتخلله بضع شعيرات بيضاء، عيونها البنية اللامعة، وجهها المستدير الممتلئ قليلاً، من ملامحها، خَمَّنت أنها تكبرنا ببضع سنوات، لربما خمسة أو أكثر بقليل، وجدتها تحمق في وتبتسم، فبادلتها الابتسام فاقتربت مني، عرفتنا (ماري) ببعضنا، جلست وهي تقول:

- مها، أنا أشعر بأنني رأيتك من قبل.

- أنا أيضًا يا ليلى ربما بسبب صوري مع (ماري) على (فيسبوك)؟

- لا، هذا مختلف، أشعر بأننا جلسنا وتكلمنا من قبل.

- ربما هذه ظاهرة (دي جافو)؛ (شوهد من قبل) الشهيرة التي تحدث للمخ أحيانًا فتُسبب هذا الشعور.

- ربما.

- سعيدة بمعرفتك.

- أنا أيضًا يا عزيزتي.

تبادلنا الأحاديث طوال الحفلة لدرجة أنني تركت (عادل) تمامًا للحديث مع (ماري) وباقي الأصدقاء، كلما كنتُ أرمقه كي أطمئن عليه أجده منهمكًا في الحديث مع أحدهما فأعود لحديثي مع ليلي بسعادة، لم نشعر بمرور الوقت حتى تأخر الوقت، تبادلنا الأرقام وسَلَّمنا على الجميع ثم نزلنا من المنزل وتوجَّهنا إلى السيارة.

- سأوصلك.

- لا يا عادل، أرجوك، سيتسبب هذا في مشكلات مع أمي.

- مها، أنتِ لستِ طفلة! أعلم، لكن الوقت تأخر، ولا أستطيع تركك بمفردك في هذا التوقيت.

- أستطيع الاعتناء بنفسِي، لا تقلق، أيضًا الأسبوع المقبل سأستلم السيارة التي قمْتُ بحجزها من شهر، أخيرًا سيكون عندي سيارتي.

- مبروك يا عزيزتي، لكن لن أتركك أبدًا ترحلين بمفردك في هذا التوقيت.

قالها وهو ينظر إلى عينيِّ بمزيج عجيب من الحزم والحنان، فطرقت خجلة ولم أنطق وركبت بجواره.

- مها، هل تتزوجيني؟

- نعم؟!

- لا أريد أن أفزعك بهذه المباغثة، لكنني شخص صريح، أو من أن أقصر الطرق هو المباشرة، وأنا لا أريد العبث معك بأي شكل؛ لذلك.. هل تتزوجيني؟

لم يخفق قلبي من قبل مثلما خفق لعادل في هذه اللحظات، فطوال العامين المنصرمين منذ أن تقاربنا بسبب قيامنا بأعمال مشتركة وأنا منجذبة له وأداري مشاعري وأتحكَّم بها

بإرادة من فولاذ، مجرد نطقه برغبته في الاقتران بي أذابت كل الجسور التي وضعتها حول قلبي حتى أستطيع التعامل معه كشريك عمل وصديق.

- موافقة.

- حسنًا، سأصعد معك إلى المنزل الآن لأطلبك من والدك.

- ماذا تقول؟!

- أتحدث عن أنني بالفعل رتبْتُ كل شيء، ولم يتبقَّ سوى موافقتك، أهلي على علم بأنني سأطلب يدك اليوم.

- لكن لا أستطيع أن أصعد بك، أمي سوف تقتلني.

- لن تقتلك، اتركي لي الأمر، أنا بارع في الإقناع، وأعدك ألا أنزل درجات سلم بيتك إلا وأهلك سعادة يباركون الوضع بأكمله.

وقد كان.. لم أكن أتخيّل أن عادل يملك كل تلك المهارة، خصوصًا أن (زهرة) انبهرت به، عند انتهائه من الحديث معهم ونزوله قالت لي:

- أتمنى ألا يهرب منك مثل سابقه، فتحملك بحاجة إلى معجزة كونية من نوع نادر، هو يبدو صبور ومقدام، أكيد والدته تدعو عليه باستمرار.

- بالعكس، أنا واثقة أنها تسجد لله متضرعةً يوميًا أن يجد إنسانة تعيش معه في سعادة وهدوء.

تبادلنا النظرات المتحدية! وكان هذا مثيرًا للأعصاب بالنسبة لها؛ فلقد سعت في آخر سنوات أن تُرهبني بكل الطرق وفشلت، أصابها بإحباط شديد جعلها تفقد أعصابها وتتحدث أمام أبي و(شيري) بكل ما اعتادت أن تخبرني به منفردة.

- ما الذي تقولينه لهما يا زهرة؟ مها ابتتنا من يأخذها هو المحظوظ بحق، مها لا مثيل لها،
بارك الله فيك يا حبيبتي، مبروك.

ضمّني إليه وقبّلني، فنظرت إلينا (زهرة) بسخرية ومصّت إلى غرفتها.

٢

على مدار عامين نجحتُ أنا وعادل في ترتيب كل ما يتعلق بالعمل، وبتجهيز شقة الزوجية
أيضاً دون مساعدة من أحدٍ، كنا نتحرك بهدوء وتأنٍ نظراً لرغبتنا المشتركة في أن يكون كل
شيء أقرب للكمال. لم يكن هذا صحيحاً لكننا أحببنا القيام به معاً.

- هل تستطيع تركيبها بمفردك؟

- نعم يا عزيزتي، هذا أمر بسيط، راقبيني وتعلّمي.

- يا عادل، لا تصغي إلى مها، وانتظر الكهربائي يُكمل تلك الأشياء.

- يا طنط زهرة، لا تقلقي أنا أفعل ذلك طوال الوقت، أحب تركيب الأشياء بمفردني، لا دخل
لها بذلك.

- حسناً يا حبيبي، سأمسك لك السلم بقوة.

- لا يا حبيبتي، ابتعدي، السلم ثابت وقوي.

- حسناً.

انهمك عادل في تركيب المصابيح، ودخلت أنا المطبخ لإعداد القهوة، وفي خلال ثوانٍ
سمعت صوت ارتطام قوي وصياحاً من أمي. هرعت للغرفة وأنا أوقن أن (عادل) قد سقط،
فوجدته سقط لكن رأسه ارتطم بصندوق المعدات الذي كان بجوار السلم، والدماء تسيل

من رأسه بسرعة مخيفة فنظرت إليه بذهول، لم أنطق وكأنني أحلم. هذا الملقى أرضًا ليس عادل أنا واثقة، أنا الآن أحلم وسأصحو في أي لحظة، مع صيحات (زهرة): اتصلي بالإسعاف! أفقت وأمسكت بهاتفني، جلست على ركبتي واحتضنت رأسه بينما جلبت زهرة قطعة كبيرة من القماش لربط رأسه ووقف النزيف، لكن عادل لم يفق، لم يكن حتى يتنفس، في نفس لحظة ارتطامه توقف قلبه وفارق الحياة أمام عينيّ وسط صياح أمي بي:

- لماذا لم تمسكي له السلم؟! لقد فارق الحياة بسبب أنايتك، كان لا بد أن تنصتي إليّ.
أخذت تصيح وتلطم وجهها وأنا لا أنطق ولا أبكي بل لا أرى حتى.. دماء عادل جمّدت إحساسي بكل شيء.

٣

قضيّث الأسبوعين التاليين لوفاته في مصحّة نفسية عاجزة عن النطق، الحركة، أو حتى البكاء.. أشرف على حالتي دكتور وائل الذي رغم تدهور حالته الصحية كان يأتي ليطمئن على حالتي ويترك التعليمات للجميع. (شيرى) أخبرتني بذلك عندما نطقث لأول مرة بعد أسبوعين من دخولي المصحّة.

- يا مها، يا حبيبتي، قلوبنا تتمزق من رؤيتك هكذا، لولا أن دكتور وائل يشد من أزرنا كنا فقدنا الأمل في تحسّنك.

- حسنًا، أريد الذهاب إلى المنزل يا شيرى.

- لماذا يا حبيبتي؟ اليوم هو أول يوم في التحسّن، أرجوك أعط نفسك الوقت والفرصة كي تتعافي. ليس من الطبيعي أن تتحركى الآن بعد هذه الرقدة الطويلة.

- أريد الذهاب إلى المنزل الآن، أرجوك يا شيري.

- حسنًا، سأتحدث إلى دكتور وائل الآن.

في الطريق للمنزل صاحبني صوت ضحكات عادل عندما كنا نازل معًا لشراء تجهيزات المنزل، فأغمضت عيني حتى وصلنا.

- حبيبتي، ارتاحي الآن تمامًا.. أي شيء تحتاجين إليه سأحضره لك.

- شكرًا يا أبي.

- لا تشكريني، بل أنا الذي أشكرُك على بقائك وصمودك؛ فلقد كنتُ مرعوبًا من فكرة أن أخسرُك يا حبيبتي.

- لا تقلق، أنا بخير.

- (شيري) ستقوم بالحجز لك مع دكتور وائل غدًا.

- لا، أرجوك متى أصبح مستعدة سأخبركم.

- حسنًا، نحن بجوارك.

اقتحمت (زهرة) الغرفة ورمقتني بتفحُّص:

- هل تشعُرين بتحسن؟

- نعم.

- والدة عادل -الله يرحمه- اتصلت للاطمئنان عليك، لا بد أن تردِّي عليها.

- صعب حاليًا، لن أصمد في الحديث معها.

- كيف؟! هل من الطبيعي ألا تُقدّمي إليها واجب العزاء؟!

...

- بالطبع ليس طبيعيًا، فلتحمدي الله أنها لم تتهمك بقتل ابنها، فلولا...

قاطعها والذي بحزم، وصاح:

- ما هذا الذي تقولينه؟! مها لم تقتل أحدًا! هذه إرادة الله، وهذا ليس الوقت المناسب لأي مناقشة!

- هل من الممكن أن تغادروا الآن الغرفة؟

- حسنًا يا حبيبتي.

ورمقتني (زهرة) بغلٍّ شديد وهي تُغلق باب الغرفة.

٤

سنة أشهر وأنا أتساءل: لماذا؟! لماذا يا الله اخترت عادل تحديدًا؟! ألم يكن هناك ما يكفي من البشر المؤذيين حولي كي تنتقي منهم؟! كان كل حزني قد تحوّل إلى غضب!

- يا مها، الموت والحياة ليس لهما قواعد، وأنتِ تعلمين ذلك، وأفهم جيدًا ما تشعرين به، لماذا لا تدعيني أساعدك تلك المرة؟

- يا دكتور، أنا أحضر إليك بإرادتي، إذن أنا أريد المساعدة!

- ليس حضورك فقط المطلوب يا مها، أنتِ تحضرين للجلسات دون تفاعل حقيقي وحتى الدواء تركتيه دون الرجوع إليّ.

- لأنني أردتُ البكاء. جُلُّ ما أردته هو البكاء على فراق حبيبي، والأدوية لم تسمح لي بهذا.

- وبكيثُ وانتهيثُ، لماذا لا نعود للأدوية والتعبير عن مشاعرنا؟

- هل تريدني ألا أحزن أو أغضب؟!

- لا أريد شيئاً، أريد فقط أن تساعدني نفسك بتجاوز هذا الأمر وتسمحي لي بمساعدتك.

- حسناً، سأحاول.

- لا بأس، فلنبدأ أولاً بالأدوية.

- هل من الممكن أن نُوجِّلها للجلسة المقبلة؟

- لا يمكن، فأنتِ تماطلين منذ ستة أشهر.

نظرتُ بإشفاق لوجهه المرهق والمتعب، فهو من وعكة صحية إلى أخرى منذ عامين، وبلغ الثانية والسبعين منذ شهرين، فلم أُرِدْ أن أنهكه أكثر من ذلك.. عشر سنوات مع دكتور وائل قدّم لي فيها كل ما يمكن لدكتور وعالم مخضرم مثله أن يفعله.

- حسناً.

وشرع يكتب بخطه المنمق الأدوية الجديدة.

- لا أطيق (زهرة).

- هل ما زالت تلقي عليكِ اللوم؟

- بالطبع، أنا أفكرُ في الانتقال من المنزل.

- جيد يا مها، لكن عليكِ تحضير نفسك جيدًا ماديًا ومعنويًا؛ لأنها لن تتوانى عن تحويل القضية إلى ساحة حرب وقتال.

- أعلم ذلك، سأخطط جيدًا كيف سأفعلها، وسأتحدث مع (شيرى) وأبى، فقد عقدت العزم أن أنجو وأحيا وأنقذ نفسي، مثلما أنقذت كلَّ من حولي طوال سنين كنت فيها عَوْصًا عن إنقاذ نفسي، ألعب دورَ المنقذ في حياة الآخرين مما استنزف طاقتي يا دكتور، أنت تعلم هذا جيدًا.

- نعم يا مها، أعلم، أكملى، أسمعك.

- وحرقت أعصابى، وضاعف سنوات عمري حتى كففت عن العد. كنت المرأة الخارقة التي تُهدر وقتها ومواهبها في رحلة خلاص الآخرين. لم أستطع أن أرى شخصًا في مأزق دون الهرولة إلى مساعدته، مهما كلَّفني هذا من مجهود. وأعود إلى المنزل بعد يوم حافل بإنقاذ الآخرين، لأكمل في الهاتف بآخر سَعَةٍ في صدري حلَّ ما لا يقدر الآخرون على حلِّه؛ لم لا وأنا أرى في نفسي شخصًا قادرًا على فعل أي شيء! أتذكر تلك الأيام، أتعجَّب من غروري!

كيف لي أن أتقلد دور الآلهة بثقة؟ وكأن موازين الكون ستقلب إذا لم أمسك بزمام الأمور؟! كم كنتُ حمقاء وساذجة! مع الوقت والعلاج، تعلَّمت أن قدراتي محدودة، وأن الإنقاذ الذي قمتُ به للآخرين على مدار أعوام كان تهرُّبًا من إنقاذى لنفسي، التي هي في أشد الحاجة إلى الإنقاذ.

- هذا حقيقي لكنك أيضًا وعيتِ لذلك مبكرًا وساعدتِ نفسك كثيرًا يا مها لدرجة تدعو للفخر.

- عندما قررتُ إنقاذ نفسي لأول مرة يا دكتور، وجدتُ جروحًا تفوق عدد جروح جميع من قمتُ بإنقاذهم! غفلت عن تلك الصغيرة التي تعلَّقتُ بيدي دهرًا حتى قررتُ الالتفات إليها.

تجاهلت كل نداء واستغاثة صدرت من قلبها الصغير الممزق، وعاملتها بقسوة، ولم أترقق بحالها وسط رحلة هروبي التي أنهكت طاقتي، ولم يتبق لها شيء.

استجمعت قوتي وشجاعتي، والتفتُ إليها، ورأيتها عن قُرب، تنتظر في لهفةٍ أن أمدَّ يد العون إليها، وأرفق بروحها الرقيقة الهائمة، في انتظار أن أراها ولو مرّة. كان مشهد لقائي بها لا يُوصَف؛ فدموعها أذابت جسورًا صنعتها من فولاذ كي لا تصل إليّ. انصهر الفولاذ، وتبقى شخصي الحقيقي الذي يشتهي أن يحيا بما يليق به. فلاكُن أول (INFJ- A) لا ينقذ إلا من يسعى لإنقاذ نفسه!

- لم تخبريني أنكِ قمت بالاختبار؟

- قمتُ به بعد الجلسة السابقة وشعرتُ بأن التحليل مناسب لي، لفت انتباهي أنني منذ فترة توقفتُ عن إنقاذ الجميع. فقط أساعد من يريد مساعدة نفسه كي يصل إلى بر الأمان. لا أكلف نفسي فوق طاقتي، أقوم بمد يد العون مرةً واحدةً، إذا لم تُؤخذ، أسحبها على الفور؛ فلن أعلق في هاويةٍ لا فكاكٍ منها لمجرد أن الآخر لا يريد الفكاكٍ من هاويته؟! تعلمت أن من لا يرى دوائمه، لن يُنقذ منها ولو سحبتُه كل الأذرع الممدودة عنوةً. تعلمت أن هناك من يهوى الغرق، ولا يريد عقله وقلبه أن يرى تلاطم الأمواج، أن هناك من يخشى فراق حزنه، وألفه حتى بات الحزن جزءًا منه. هناك من لا يرى نفسه يستحق من الأساس، فلا يرى أن هناك مشكلةً لديه في الأصل، فيغرق نفسه عمدًا في أعماق محيط مظلم، راغبًا في معاقبة نفسه دون رحمة، كأن الغرق هو مُنقذه ومُطهره ممّا يُثقل قلبه.

- يا مها، الحياة ليوم واحد إضافي هي هبة أكبر من أن تدركها عقول وقلوب البعض؛ فرغم كل ما نراه من نشاز، إلا أن هناك سيمفونيةً عذبةً خاصةً لكل شخصٍ راغبٍ في سماعها. فقط مجرد الرغبة في السعادة كفيلة بأن تجعلنا نستمتع إلى سيمفونية تغمر أرواحنا في سلام نفسي وجبر لقلوب كُسرت، ظننّا أنها لن تلتئم أبدًا.

الفصل الخامس

«إن العذاب هو المصدر الوحيد للإدراك، رغم أنني قلت في البداية: إن الإدراك هو أسوأ ما يتميز به الإنسان.»

فيودور دوستويفسكي.

١

بعد أحد عشر شهرًا من صدمة موت عادل، رحل دكتور وائل عن عالمنا! جلست في عزائه أبكي كما لم أبك عمري كله، عندما انتهيت من العزاء أخذت سيارتي وذهبت إلى المقطم، أغلقت زجاجها، وفتحت موسيقى صاحبة على أعلى درجة من الصوت، وشرعت في الصراخ دون مُقدّمات، ولم يلتفت لي سوى حبيبين جلسا متشابكي الأيدي على بُعد عشرة أمتار من سيارتي. فجاء إليّ الشاب ضاربًا الزجاج بيديه، فأخفضت الموسيقى وفتحت الزجاج.

- نعم.

- هل أنت بخير؟

كان القلق على ملامحه، ووقفت حبيبته تراقبني في قلق وتوجُّس من بعيد.

- نعم، لا شيء فقط فقدت شخصًا عزيزًا.

- أنا آسف كثيرًا لذلك، وإذا أردت الجلوس معنا مرحبًا بك، لا تقلقي هذه خطيبتني وهي من لاحظت أنك تصرخين وتبكين.

- أشكرك كثيرًا وأشكرها نيابةً عني، أرجوك، سأرحل، أحتاج إلى النوم. أشكرك مرة أخرى وأسفة على الإزعاج الذي تسببت به.

- لا تشكريني ولا تعتذري، أتمنى لك الراحة والسلام، الله يرحم الفقيد، خالص عزائي.

- الله يرحمه، شكرًا.

عندما وصلت إلى المنزل ارتميتُ بملابسي في فراشي، نمتُ نومًا أشبه بالموت.. عند استيقاظي وجدت المنزل فارغًا فأخذت حمامي، خرجت وأنا عاقدة العزم على الرحيل من المنزل.

جمعت أشياءي بسرعة غريبة، فكنت أتحرك كآلة حتى أنهى كل شيء، وأغادر قبل أن تعود (زهرة) أو (شيرى)، نجحت في ساعة ونصف تقريبًا أن أجمع كل شيء له علاقة بي، وهرعت إلى بيت ليلي.

- يا مها، أوحشتيني، تفضلي.

احتضنتني بقوة، حملت معي الحقائب ودخلت.

- آسفة يا ليلي على وجودي بهذه الحقائب، لكن كما أخبرتك في الهاتف أحتاج فقط إلى يومين للبحث عن شقة في نطاق مكان مكتبي أنا وعادل -الله يرحمه- رغم أنني أنتوي أن أغلق المكتب وأعمل من المنزل فقط دون مقر، فلا داعي له لكن عادل كان يحب التواجد في بيئة عمل بعيدة عن المنزل.

- لا تعتذري أبدًا يا عزيزتي، فهذا منزلك، تحت أمرك أي وقت كل ما يهمني هو راحتك وسعادتك، قلبي معك في فقدك لدكتور وائل، أعلم كم كنت مرتبطة به، أعلم أن عامًا فقط مرَّ على صداقتنا لكن يا مها أشعر بمشاعرك دائمًا، كأنك صديقة الطفولة.

- أعلم يا ليلي؛ لذلك لجأت لك عندما قررت الرحيل.

- من القادم؟

صاح بهذا صوت نسائي مرح تقدم نحو الغرفة، فالتفت ووجدت أنها سيدة ذات ملامح هادئة ورقيقة، وترتدي نظارة طبية، وتعدّد شعرها ذيل حصان، على ثغرها ابتسامة محببة للنفس.

- تعالي يا إنجي، أعرفك بـ(مها) حبيبتي وصديقتي.

- يا مها، هذه إنجي صديقتي في سنوات الغربة التي حكيت لك عنها كثيرًا، هي هنا في إجازة لم يسعفني الوقت كي أخبرك.

تبادلنا السلام والقبّلات، وجلسنا نحن الثلاثة نتحدث بحميمية، وكأننا نعرف بعض منذ ولادتنا! وحوّلنا أطفال ليلي وإنجي يمرحون في المنزل.

وعندما حلّ الليل هاتفتني أبي الذي أخبرته (شيرى) بأنني رحلت كما أخبرتها بأن تفعل.

- مها، لماذا يا حبيبتي؟ أخبريني ما الذي فعلناه لك؟ أستطيع إصلاح الموقف.

- لم تفعل لي شيئًا يا أبي، لم أعد أحتمل فقط، جُلّ ما أريده هو السلام، أمي لا تسمح للسلام أن يحل في روعي أبدًا.

- سأخاطبها وأحلّ الموقف. فقط عودي، أرجوك لا أستطيع أن أعيش دونك.

- حبيبي، مَنْ الذي أخبرك بأنك ستعيش دوني، فقط سأنتقل لحي آخر، تستطيع المجيء أي وقت، تعال للإقامة معي إذا أردت لكن لن أعود لذلك المنزل قط.. على الأقل وهي به.

- أنا أعلم أنها قاسية معك يا مها لكن لم يعد في العمر بقية، هي لن تتغير لماذا لا نتحمل بضع سنوات أخرى ونبقي معًا كأسرة؟!

- لن أستطيع، لقد تحملت فوق طاقتي على التحمل، أشعر بأنني سأفارق الحياة من كثرة الضغوط، هل تريد ذلك؟

- لا يا حبيبتي، بالطبع لا تتفوهي بذلك قط، هل تسمحين لي بمساعدتك في إيجاد مكان ملائم؟

- لقد وجدته بالفعل، صديقتي ليلى ساعدني زوجها عبر مكالمة هاتفية في توفير شقة سأذهب لأشاهدها غدًا. لا تقلق إذا شعرت بأنني لا أريدها أو أعجز عن إيجاد منزل ملائم سأخبرك بالتأكد لتأتي معي للبحث.

- هل ستبیتين اليوم عند ليلى؟

- نعم، اليوم هو يوم تجمعنا كسيدات فقط، زوجها في زيارة لأمه سيبيت معها، أنا وليلى وإنجي والأولاد سنبیت بالمنزل.

- حسنًا، المهم أن تطمئنيني عليك، أرجوك أن تجيبي اتصالاتي أنا و(شيرى).

كنتُ أستمع إلى (زهرة) تنعق في الخلفية، تتوعد وتصرخ كالمجازيب، تتهمني بالفسق، وتتهم أبي بإفسادي، لكنني تجاهلتُ صوتها تمامًا، ابتسمت وأنا أشعر بأنني أخيرًا سأخرج من شرنقتها التي طالما خنقتني وأصبحت على وشك الموت بعد أربعة وثلاثين عامًا من العذاب.

بعد ساعتين أتت (مارى) لتقديم واجب العزاء لي، وجلست مع ثلاثتنا حتى أوشك الليل على الانتصاف.

- أشعر بألمك يا عزيزتي، اعذريني لعدم وجودي بقربك عند وفاة عادل، أنتِ تعلمين جيدًا مسؤوليات المنزل والأطفال وما إلى آخر ذلك.

- نعم يا ماري، لا بأس، فقط مكالمات متفرقة منك كانت ستفي بالعرض.

- لقد قَصَّرت، أعلم ذلك، لكنه طبع الحياة تدركين ذلك.

- أدركه.

ابتسمت لها ابتسامة باهتة، استقبلتها ثم أخفضت عينيها ورحلت.

اقتربت مني (ليلي) وربتت على كتفي.

- هل تشعرين بالغضب من (ماري)؟

- لا أشعر بغضب تجاهها، لا أشعر بشيء في الحقيقة.

٢

تَمُرُّ الذكريات في عقلي بطريقة أشبه بلسعات المخ الكهربائية التي تنتج من الأعراض الانسحابية لأدوية الاكتئاب! يجب أن أرثب أفكاري. قد أسمع اسمي في أي لحظة.

لم أكن أحب نفسي قط قبل بضعة أعوام، وأيضًا لم أكن أستشعر حبَّ المحيطين بي؛ فكيف لمن لا تُحبه أمه أن يُحبه أحدٌ على الإطلاق؟! فمن لا تُحبه أمه لا يستحق أن يُحبَّ.

كانت هذه الجملة شعارًا لحياتي تقريبًا، كانت تُسمِّم كل مشاعري وكياني، وتعصف بعلاقتي بنفسي قبل علاقتي بالآخرين حتى!

قاطع أفكاري صوت الدكتورة جيهان وهي تنظر إليّ وتقول:

- مها، هل توذنين المشاركة؟

ها هي اللحظة التي كنت أخشاها أتت، وكنت أحاول ترتيب أفكاري!

قلت بعد تردُّدٍ بصوتٍ خافت:

- أنا مها مجدي، عندي أربعون عامًا، وهذه المرة الأولى لي في المجموعات العلاجية. اليوم لا أشعر بأنني قادرة على المشاركة، لكن ممتنة لوجودي معكم.

تصاعدت أصوات الجميع كالمهمة: «أهلاً مها، نحن سعداء بانضمامك إلينا». وعلاً صوت الدكتورة جيهان في الترحيب بي، متعمدةً إشعاري بأنني مرغوبٌ فيّ.

كنتُ مرتبكة بشأن مشاركتي مع المجموعة العلاجية للمرة الأولى؛ ولذا أخذتُ أستعيدُ تلك الذكريات بداخل رأسي، حتّى أجد ما أتكلم عنه حين أدعى إلى المشاركة، لكنني في نهاية المطاف، وجدت أنني ليس لديّ رغبة في مشاركة مشاعري اليوم.

المكان -بالمناسبة- هو مصحة نفسية في مكان متطرّف بالمعادي. المعادي التي أفقد بوصلة طريقي فيها دائماً وأبداً! فمن عجائب القدر أن أضطرّ إلى الذهاب المنتظم للجلسات الجماعية في المنطقة التي أهوى فقدان طريقي بها! فعلى الرغم من أنني قد عملت في منطقة المعادي لفترة طويلة، لكن ذلك لم يؤثر في قراري بأن أضلّ الطريق يوميّاً وأنا أشرح لسائق التاكسي المتذمّر، بطريقةٍ غير مفهومة، معالم المنطقة التي تحيط بالشارع الذي يقع فيه مقرّ عملي! فينظر إليّ السائق نظرة العالم ببواطن الأمور، ويقول بثقة:

- واضح أنه أول يوم عمل اليوم يا أستاذة.

فأجيب في استسلام:

- نعم.

فيتحمّس السائق لإيصالي في الموعد. سيناريو يومي يتكرّر مع كل سائق، بدايةً من وصولي إلى كورنيش المعادي.

كانت هذه الأفكار تتتابع في رأسي حتى تنبَّهت إلى سرد زميلتي في المجموعة العلاجية، التي فاتني معرفة اسمها للأسف. بعد انتهائها، انتهى وقت الجلسة العلاجية، ومن ثم أخذت حقيبتني، وألقيت كلمات مودّعة على الجميع وأنا مبتسمة، ثم رحلت.

في طريق العودة، قمتُ بوضع عنوان المنزل على برنامج خرائط الطرق الشهير، وتفضّل بإرشادي إلى الطريق بمنتهى اليُسْر. لا أعلم كيف كانت حياتي دونه من قبل؛ فقد كنت أقف للسؤال مرات عديدة قبل أن أصل إلى وجهتي، وقد لا أصل أحيانًا!

عند عودتي إلى المنزل، كانت قطتي في استقبالني، تموء بشوق، فحملتها، وتوجّهت إلى غرفتي، ومدّدت جسدي على فراشي بملابسي شاعرةً بالاسترخاء، رغم أنني في المعتاد كنت أهرع إلى ارتداء ملابس النوم، والذهاب إلى المرحاض عند وجودي في منزل العائلة، لكن لم يعد هذا من طقوسي منذ ما يقارب الستة أشهر تقريبًا؛ فلقد ماتت أمي، ولم أعد مضطرّةً إلى الهروب من تفحّصاتها لي عند عودتي، ومحاصرتها لي في أثناء استبدال ملابسني؛ إذ كانت تحرص حرصًا شديدًا على ألا تجعل لي أي خصوصية بداخل المنزل، أو في حياتي بشكل عام، وكان هذا يُشعرنني بنفور شديد. فلماذا تجلس أم طبيعية أمام ابنتها وهي تستبدل ملابسها، وتحّدق فقط كي تشعرها بعدم الراحة وأنها مُراقبة بشدة؟! وإذا طالبتها بالخروج، تنظر إليّ بشك كأنني أملك سرًا أحاول مداراته، وتفتعل الشجار معي، وتبتزني عاطفيًا بغضبٍ لا أساس له من الصحة، لا لشيء سوى جعلي أستمر في الخضوع لمزيد من رغباتها غير المنطقية وغير الإنسانية.

توقفت عن الاسترسال في الأفكار، فما تسبب في عودتي لهذا المنزل هو وفاة أبي منذ عامين بشكل مفاجئ، وأني ضعفت كثيرًا أمام انهيار (زهرة)، ودخولها المستشفى، ولم أكن أعلم أن هذا جزء من مخططها لعودتي إلى المنزل إلا بعد فوات الأوان.

في الصباح التالي ركبت سيارتي، وانطلقت سريعًا إلى اجتماع عمل صغير في منطقة الزمالك، وكان اللقاء في أحد المقاهي الهادئة.. كافيهِ راقٍ، كما يُطلق عليه حديثًا، ولا ضير

لديّ في تسميته مقهى. كانت جلسة العمل موفقة، ولم تستغرق وقتًا كبيرًا. عندما انتهيت منها، رفعت هاتفي المحمول إلى أذني كي أشارك تفاصيل يومي مع (شيرى).

- لقد أوحشتني كثيرًا.

- وأنت أيضًا كيف حالك؟

- العمل كالعادة والعودة للمنزل والنوم، ومؤخرًا دكتورة جيهان ألحقتني بمجموعة علاجية؛ لأنها ترى أنني في حالة جمود وعُزلة لا بد لي من كسرها.

- لديها حق يا مها، فمنذ خمس سنوات تقريبًا وأنتِ تعملين فقط، أغلقتِ دائرتك تمامًا على (إنجي) و(ليلى)، وهذه ليست بحياة! حتى (مارى) قطعتِ علاقتك بها وهي تسألني عليكِ.

- يا (شيرى)، وما هي الحياة بالأساس؟ ثم إن (مارى) تعرف رقم هاتفي وتستطيع مخاطبتي، لكنها أصبحت بعيدة عني نفسيًا وفكريًا منذ فترة، ولم أعد قادرة على التواصل معها.

- الحياة لا بد أن تستمر، ففقدك لعادل ودكتور وائل وأبى لا يعني أن الحياة توقفت، أنت التي ضغطتِ زر الإيقاف بنفسك، وأنتِ حُرّة طبعًا بخصوص ماري، أنا أخبرك حتى أبرئ ذمتي.

- نعم، فعلت وكنثُ بحاجة إلى هذا الوقت لاستيعاب كل تلك الأحداث، وأشكرك على إبلاغي بخصوص (مارى).

- خمس سنوات يا مها!

- أرجوك لا تلوميني، لستُ بحاجة للوم، فكلما كنت أفيق من صدمة تأتي الأخرى، ومن فقدتهم هم أعلى الناس على قلبي، خمس سنوات لاستيعاب فقدان ثلاثة أشخاص يا (شيرى).

- حبيبتي أنتِ بحاجة إلى زوج وأطفال وحياة طبيعية، فأنا أمامك متزوجة منذ خمسة أعوام وأشعر بأنني بخير، لماذا لا تجربين هذا الحل بدلاً من إنفاقك كل تلك المبالغ الطائلة على العلاج؟ فالزواج استثمار جيد أيضًا.

- أعلم يا (شيرى) ما هو في صالحى، وأرجوك لا أريد أن أبدأ يومي بمشادات كلامية.

- حسنًا يا عزيزتى، لا أقصد مضايقتك، فلتستمتعي بيومك وتطمئنيني عليك باستمرار.

- حسنًا.

لم تكن (شيرى) متأثرة بموت (زهرة) والدتنا، رغم أنها قامت بتمييزها وتدليلها واسترضائها بكل الطرق، وأيضًا لم تنجح (زهرة) في تفريقنا، رغم أنها حاولت بكل الطرق أن تجعلنا نكره بعضنا البعض، وكانت تشعر بالغيرة والعصبية إذا عرفت أن بينى وبين شيرى أسرارًا نخفيها عليها، وكانت تتعمد أن تُظهر لي تفضيلها لشقيقتي بطريقة فظة، حتى أكره شقيقتي الوحيدة. لكنني لم أستسلم قط لمشاعر الغيرة والكره. بالعكس، لقد أشفقت كثيرًا على (شيرى)؛ لأن (زهرة) لم تحبها حب الأم لابنتها، بل كانت تحبها حب الرسام للوحته الفنية! لا تراها كشخص على الإطلاق! تراها كشيء تمتلكه. وتسبب هذا في تخريب حياة شقيقتي ونفسيته حرفيًا؛ فهي متزوجة حتى تحصل على (اللقب) الذي قامت أمى بتغذية عقلها به طيلة حياتها، وتعيش مع زوج تكرهه كثيرًا، لكن لا تبالي في ظل إغداقه عليها من الأموال!

٣

جلست بعد مهاتفة شيرى في أحد المطاعم الهادئة. تناولت غدائي بشكل سريع، ثم تحركت تجاه السيارة، وعيناي معلقتان بالنيل؛ إذ لم أكن فارقت منطقة الزمالك حتى تلك اللحظة.

كان الجو شتويًا باردًا كما أحب وأفضّل، فشعرت بإغراء أن ألقى نظرة عن قرب إلى النيل، وأن أتمتع بالرياح الباردة التي تُدغدغ حواسي وتُشعرنني بسلام نفسي؛ إذ كنت عكس السائد من غالبية البشر، أكتب في فصل الصيف، وأزدهر مع قرصات الهواء البارد في الشتاء.

اقتربت من السور الحديدي المحيط بالكورنيش، ولمحت بابًا حديدًا مفتوحًا، فاقتربت منه ببطء متوقعة أن أجد حارسًا أو شخصًا ما يقول: «ممنوع يا أستاذة». لكن بدلًا من ذلك وجدت مشتل زهورٍ بديعًا. تحرّكت تجاهه كالمسحورة، ونزلت درجات السلم المتهالكة بحرص، حتى وصلت إلى الأرض الممتلئة بأحواض الزهور. ولمحت بجانب عيني جزءًا من سور حجري قديم وقصير مُطل على النيل بشكل مباشر، فهرعت إلى هناك قبل أن يظهر الحارس ويقوم بطردي، ثم جلست ورفعت قدميَّ بمحاذاة السور، وسرعان ما امتلأ وجداني بالسلام والطمأنينة.

ولا أعلم كم لبثت في مكاني، حتى أفقت على صوت غاضب يصيح:

- ما الذي أدخلك إلى هنا؟ هذا مشتل خاص!

فانتفضت وقمت مُسرعة، وقبل أن أكمل وقفتي والالتفات، سمعتُ صوتًا هادئًا ومُطمئنًا للغاية يقول:

- انتظري يا عم إبراهيم. لقد استأذنتني في المشاهدة، وسمحت لها بالدخول، وصعدت للمنزل أحضر شيئًا سريعًا وتأخرت في إخبارك.

شعرت بالغرابة وأنا أنظر إلى صاحب الصوت؛ فهو شابٌ لا تدل هيئته على العمل في المشتل، ولا يربطني به سابق معرفة. وفهمت سريعًا أنّ له قدرًا عند عم إبراهيم، الذي لانت ملامحه، وسارع بالاعتذار بهممةٍ سريعة، ثم ذهب مسرعًا إلى الغرفة الخشبية المُلحقة بالمشتل.

قبل أن أتفوه بالشكر، سارع الشاب بالكلام:

- اسمي هو هشام فؤاد، وشاهدتك وانت تشاهدين المشتل، وتوقعت السيناريو الذي سيحدث مع عم إبراهيم، فارتديت ملابسني سريعاً كي أحقه، لكن للأسف كان قد أنهى صلاته وسبقني للدخول.

قلت له بصوت خافت:

- آسفة للإزعاج، أنا فقط.. أحببت أن أشاهد النيل عن قُرب، وسرحت عندما جلست ولم أنتبه أنني استغرقت وقتاً طويلاً.

- لا يوجد أي داعٍ للاعتذار. أنا أرى أن الزهور والنيل وكل المناظر الجميلة لا يجوز أن تكون حكرًا على أحد. ولولا أن هناك أناسًا تدخل لتخرّب الورد والزرع لكنت تركت المشتل مفتوحًا دائمًا.

لم أحاول إمعان النظر في ملامحه في أثناء الحديث، لكن عندما نظرت لوجهه بشكل سريع، وجدت عينين بُنيتين مليئتين بالطمأنينة والهدوء تنظران إليّ، وبشرة قمحية، وشعرًا أسود تتخلله خصلات بيضاء خفيفة، وملامح وجهه رجولية للغاية، فشعرت بالخجل، ثم تساءلت في فضول:

- هل المشتل ملكك؟

ردّ بسرعة وأريحية:

- نعم، أنا وإخوتي. الأرض طبعًا ليست ملكًا لأحد فينا، هي ملك الحكومة، لكن من زمان، حصل والدي -رحمه الله- على تصريح إقامة مشتل، ولم يكن هدفه الربح بقدر ما كان يريد أن تصبح المنطقة شكلها مريح للعين.

فقلت له سريعًا:

- الله يرحمه ويصبركم.

ابتسم هشام وقال ببساطة:

- والدي توفي منذ زمن، وأنا أعيش هنا مع أمي وأخي في نفس العمارة، لكن وحدي في شقتي حتى أستطيع التركيز في عملي.

كنت قد استعدت توازني بالكامل، فابتسمت ابتسامة خفيفة وأنا أقول له:

- فرصة سعيدة يا أستاذ هشام. شكرًا لوقتك كي تصلح الموقف.

وبدأت أستدير مردفةً:

- مع السلامة.

استدار هشام معي سريعًا في شبه ملاحقة لي وقال:

- أنا كاتب بالمناسبة، والكتابة حولتني لشخص يستطيع قراءة الناس. دون إرادتي قرأتك وأنت تشاهدين المشتل. ودخولك إليه مثل المسحورين دفعني دفعًا للهرولة إليك.

شعرت بالدهشة من جراته، ووقفت لوهلة عاجزة عن الرد، ثم استجمعت نفسي وأخبرته بحزم:

- لا تحاول الحكم على أحد سريعًا.

قاطعني سريعًا:

- لا أستطيع أن أحكم عليك أو على أي أحد. كل ما في الأمر أنني أحسست بألفة ناحيتك، ربما لأنني أنبهر مثلك بالطبيعة وتأثر بها، سأكون صريحًا أكثر، وسأطلب منك أن نشرب

فنجان قهوة واحد فقط معًا، وصدّقيني لن أضايقك في أي شيء، بالعكس لكِ مطلق الحرية في القبول أو الرفض، ولكِ كامل الاحترام في الحالتين.

سرحت بعيدًا في قواعد (زهرة) مع كلماته عن (الاحترام). بالنسبة إليها، لم أكن أستحق أي احترام، وطيلة عمري لم أفهم السبب!
ابتسمت... وأخبرته بقبولي للدعوة.

٤

في أحد المقاهي المشهورة المزدحمة جلسنا. وشعرت بالانزعاج -كعادتي- من ضوضاء الحديث المنهمر حولي في كل ركن. التمس هشام ضيقي من خلال نظراتي المنزعجة، فابتسم ابتسامته المطمئنة وهو يقول:

- أنا آسف أنكِ منزعجة من الضوضاء، لكن تعمّدت نجلس بمكان ممتلئ بالناس كي لا تشعري بالقلق مِنِّي.

أزعجني أنه يحاول قراءة مشاعري، فنظرْتُ له بتحدٍّ وقلت:

- ومن أخبرك بأنني قلقة؟! لست طفلة يا أستاذ هشام. عمري أربعون عامًا، ولا أخاف من الناس؛ لأنني أعرف كيف أحمي حدودي جيدًا.

قال بسرعة:

- نهائيًا صدّقيني. لم أفكر أنكِ خائفة مِنِّي. كل ما في الموضوع أنكِ لو قلقة، فأحاول طمأنتك فقط. إذا أثار هذا ضيقتك، أرجوكِ اعتبري أنني لم أقل شيئًا، وأعطني فرصة لأبدأ كلامي من البداية. أنا هشام فؤاد، عمري ثمانية وثلاثون عامًا، تخرجت في كلية الحقوق، لكن لا أعمل بالمحاماة كثيرًا. الكتابة كانت دائمًا هواية لديّ، وكلما كبرت بالعمر، كنت أشعر

بأنها صوت محبوس بداخلي، وأتألم من كتمانها. والدي -الله يرحمه- كان صديقه محمد مصيلحي المخرج، وفي أحد الأيام في أثناء جلوسي معهما قلت له: أنا أتمنى أن أترك المحاماة وأتفرغ للكتابة. فقال لي: هيّا. قلت له: هيّا! كيف؟ قال لي: اكتب وأنا معك. أرسل لي ما تكتبه، وما أجده يستحق النشر، سأساعدك كي يرى النور. لم أكن أصدّق نفسي، وأني سيخرج مني شيء يستحق. لكن ما كتبتة أعجبه، وبدأ تحويله لسيناريوهات، وقدّم منه مسلسلات وفيلمين. ثرثار أنا صحيح؟

ضحك هشام كثيرًا وهو يقول جملته الأخيرة، فضحكت معه، وقلت له بشيء من المزاح:

- بالطبع ستخبرني أن الثرثرة جزء من خطتك كي لا أقلق.

ضحك أكثر وقال:

- إذا قلت: نعم، سوف تتضايقين وتظنين أنني أحكم على مشاعرك، وإذا قلت: لا، ستعتقدين أنني أخرجك. لكن في الحقيقة أريد أن أكون كتابًا مفتوحًا أمامك، وأعطيك الحق في تكوين وجهة نظر عني.

- لكن أنا لا أشاهد مسلسلات أو أفلام عربية كي أكون وجهة نظر عنك من أعمالك.

أخبرته بذلك وأنا ابتسم ابتسامة طفولية ماكرة أجيدها منذ الصغر. فقال وهو مستمر في الضحك:

- إذن هذه فرصة كي أحكي لك عنها.

وبتر ضحكته بغتةً وقال بجدية:

- تخيلي، حتى الآن لم تعرفيني بنفسك!

شعرت بالدهشة؛ فأنا لم أخبره حتى باسمي، وسارعت بالقول:

- مها مجدي، أربعون عامًا. تخرجت في كلية تجارة قسم لغة إنجليزية، وأيضًا لم أستطع العمل بمجالي وغيّرتَه، أعمل مصممة جرافيك، لكن بشكل حُر، لا أعمل في مكان ثابت.

قلت ذلك بشكل مُبرمج، عكس الطريقة التي صاغ بها هشام كلماته. فكلماته كانت ممتلئة بالحماس والعاطفة، أما كلماتي فخرجت كأنها معلومة من جهاز حاسب آلي! لا مجال لسرد قصة عاطفية عن حرمانني من دخول الكلية التي طمحت إليها منذ المرحلة الإعدادية، حتى جاء وقت التنسيق.

- مها، أنا سعيد من وقت أن رأيتك من الشرفة، ولا أعرف ما هو السبب! وأنا واثق من أنك تقابلين أناسًا كثيرين تسعد لمجرد أنها رأتك؛ لأنك جميلة جدًا، لكن بعيدًا عن الجمال، الذي أسرني وأنا أقف في الدور الرابع، شيء بعيد عن جمال ملامحك.

شردتُ بعيدًا، متأملة الشارع عبر النافذة الزجاجية وأفكر في كلامه.

أفقت على صوت هشام يقول:

- تشردين كثيرًا. لن أعتبرها دلالة سلبية، إنني مُعل، لكن رغبًا عني سأعتبر أنك تحملين الكثير بداخلك. وأنا لست بمتطفل، لكنني سأرحب عندما تعرفيني أكثر، وتثقين بي وتمنحينني الفرصة للاستماع إليك.

أنهيت قهوتي وأنا أنظر إليه في ترقُّب؛ إذ إنه لم يكن قد انتهى بعد من شُرب قهوته. وكنتُ في حالة من الوجود. أفصحتُ ملامحي عمًا بداخلي، وقررتُ إنهاء اللقاء. هممتُ بالنهوض، فهمَّ هشام بالتحرك أيضًا، وقال:

- ثوانٍ من فضلك، سأحاسب النادل وأوصلك إلى سيارتك.

هممتُ بأن أقول: إنني سأحاسبُ على قهوتي، وقبل أن أنطقها، قال:

- من فضلك اتركي لي الحساب هذه المرة... ممكن؟

استسلمتُ، نظرًا لرغبتني في الهروب سريعًا من أمامه والعودة إلى سيارتي، فلم أنطق بكلمة. مشى معي حتى سيارتي، دون أن نتبادل الكلمات، إلى أن وصلنا، فنظر إليّ مليًا، وقال:

- مها، أنا سعيد جدًا إن القَدَر وضعك أمام شرفة منزلي اليوم. هل تسمحين لي بالتواصل معك، أم أنك لا تشعرين بالراحة تجاهي؟

رددتُ سريعًا:

- حسنًا يا هشام، أنا لستُ شخصًا اجتماعيًا بالأساس. أنا انطوائية، ولست أنسب شخص تشعر بالراحة بالتواصل معه. لكن بشكل عام إذا أردت أن نتواصل معًا...

أخرجتُ بطاقة تعريف شخصية صغيرة من تابلوه السيارة...

- هنا ستجد صفحة عملي على (فيسبوك). تستطيع أن تراسلني إذا احتجت إلى تصميم، وبها أيضًا بريدي الإلكتروني، وأيضًا صفحتي الشخصية. وتشرّفت بمعرفتك، وأشكرك كثيرًا على الوقت اللطيف الذي قضيته معك في المشتل وفي الكافيه.

ابتسم هشام ابتسامته المطمئنة المعتادة، وهو يقول:

- بالطبع إذا أقسمتُ لك أنني أيضًا انطوائي لن تصدقينني، لكن أنا متشكر جدًا أنك أتحت لي فرصة التواصل معك.

دلفتُ إلى السيارة، وأغلق لي الباب، وأشرتُ مودعةً وأنا أدير السيارة، وانطلقتُ سريعًا.

الفصل السادس

«يمكن التفريق بين الحاجة والرغبة كشخص جائع جدًا يُسّر لأي طعام، وآخر يختار شرائح اللحم ليتناولها بكل هدوء».

ثيوردرايك.

١

لم أشعرُ بالوقت وأنا أعمل حتى اقترب الليل من منتصفه. شعرت بالملل المفاجئ، فقرّرت إغلاق كل شيء، والقيام لفعل شيء مُسلّ قبل النوم، حضّرت وجبة عشاء مبهجة ممتلئة بالسعرات الحرارية وكوبًا من الشاي بالحليب، وجلستُ في الشرفة بعد أن أنزلت التندة تاركةً مساحة صغيرة لرؤية الشارع شبه الفارغ، وأيضًا كي أشعر بلسعة الهواء البارد كما يجب. وأمسكت بهاتفي كي ألعب بعض الألعاب الطفولية التي قمْتُ بتنزيلها بغرض إفراغ رأسي من أي شيء.

لعبتُ لدقائق، ثم قررتُ أن أدخل على حسابي الشخصي كي أتأكد من إرسال هشام إليّ رسالة كما أتمنى. بالفعل وجدتُ ضالتي؛ رسالة منه ترغب في التواصل معي متى كنت متفرغة.

أغلقت الرسائل، ولم أرسل ردًا. لن أفعل شيئًا إلا بعد التحدّث مع الدكتورة جيهان غدًا؛ فموعد جلستي الخاصة في الواحدة ظهرًا، ولا ضير في الانتظار حتى ظهر الغد.

في الموعد المحدّد، طرقت باب غرفة الكشف، وكانت الدكتورة جيهان تنتظرني بابتسامة ودودة كالعادة، وقالت لي سريعًا قبل أن أهم بالجلوس:

- لقد تحدثتِ بتلقائية أمس.

ضحكت في أثناء جلوسي، وأنا أعلم أنها تدعمني لتشجيعي على الحديث في المرة المقبلة،
وقلت:

- أعلم أنني لم أتحدث كما يجب، أنا فقط لم أكن قادرة على الحديث؛ لأنني استرجعت
الكثير من الذكريات وشعرتُ بالارتباك.

فقلت مبتسمة:

- لا يوجد مشكلة يا عزيزتي. جميل أنكِ شاركتِ بتعريف نفسك بثقة وببساطة. ولا تنسي
أنها أول مرة، وأنت في الأصل غير منفتحة على الناس بسهولة، هذه المرة تمام. أنجزتِ ما
اتفقنا عليه؟

- آه، تفضلي. (أعطيتها الدفتر) كتبت كل شيء شعرت به. لكن هناك حدث جديد وقع أمس
لم أكتبه.

- احكي أنا أسمعك.

- أمس قابلتُ أحدهم بصدفة غريبة، كنت أريد مشاهدة النيل، ودخلت المشتل الخاص به،
وجاء كي يرد الحارس عن طريقي. في النهاية تعارفنا، وشربنا معًا قهوة بشكل سريع، لكن
كان لديه رغبة مَلِحَّة ان يتعرَّف بي أكثر. هو كاتب ومحامي سابق.

- كالعادة تسردين الأحداث بلهجة تقريرية. أين مشاعرك يا مها؟ أين انطباعاتك عنه
وإحساسك عندما تكلم معك؟ أنت سردتِ موجز الأنباء، وليس لقاءً بين اثنين.

- ممم... أحاول التغلُّب على موضوع الكلام بلهجة تقريرية مثلما اتفقنا. لكن من الممكن
أنني لم أستوعب بعد مشاعري بعد المقابلة حتى أتحدث.

- تكلمي دون قيود. اترك الكلام يخرج دون تفكير.

- الإحساس الغالب على أنه شخص دافئ، في كلامه احتواء وطمأنينة، وذكي في التعبير عن نفسه، وواثق في ذاته، يعرف أهدافه، وواضح وبسيط.

- تستطيعين وصف انطباعاتك جيدًا!

ابتسمت وقلت:

- أحاول.

- هل تشعرين بحاجة لمعرفة أكثر أم أن ذلك لا يناسبك؟

- ما رأيك؟ أنا خائفة من الإقدام على أي تواصل معه، وفي نفس الوقت أنا بحاجة لكسر رهبة تعاملي مع الناس.

- الطبيب النفسي لا يُقرّر بالنيابة عن عملائه يا مها، افعلي ما تجدينه مريحًا لك؛ فأنت إنسان حكيم وعامل وناضج بدرجة كافية، وتستطيعين تحديد ما يناسبك، والخوف في سبيله للزوال. كل المؤشرات الحالية تشير إلى أنك تنفضين مخاوفك. لكن أريد تقريرًا مفصلاً عن إحساسك تجاهه المرة المقبلة.

واستطردت سائلة:

- هل من جديد بخصوص الكوابيس؟

- لا أعلم.

. ليست منتظمة كالسابق، لكن رأيت (زهرة) مرتين هذا الأسبوع، وكنت كالعادة أصرخ بصوت مختنق، وأقول لها: أنتِ لستِ أمي، ولا تستحقين الأمومة حتى. استيقظتُ بدموعي

التي كانت في الحلم، لكن هناك مرة منها صوتي لم يختنق وخرج عاليًا، ولم أستيقظ باكيةً من الحلم.

- مواظبتك على كتابة مشاعرك سوف تُحرِّرك من الكوابيس، وستجعل صوتك أقوى مرة بعد مرة، ومع الوقت الكابوس سيختفي. نحتاج فقط إلى صبر ومواظبة على الكتابة، وتفريغ المشاعر بشكل منتظم. هل ما زلتِ ترفضين تناول دواء يساعدك في موضوع الأحلام؟

- لا عادي، ممن الممكن أن أتناوله. أنا فقط أحببتُ أن أجرب قدرتي على التعامل مع الموضوع.

واستطردتُ مبتسمةً:

- الإرادة... أحب أن أختبر نفسي وأعرف قدراتي وصلت إلى أيِّ حدِّ.

- أنت صاحبة إرادة قوية، ومن مثلك دائمًا قدراتهم مُبهرة.

- أشعر بالقلق أحيانًا أنني لن أتجاوز هذا الاكتئاب اللعين، لماذا انتكست بهذه القوة؟ ولماذا تركت نفسي خمس سنوات بهذا الوضع رغم كل ما فعلته من خطوات علاج ناجحة مع الدكتور وائل؟

- الفَقْد يا مها كان أكبر من قُدْرَتِكَ على التحمُّل، لقد فقدتِ أكثر شخصيات أثرت فيكِ، حتى موت والدتك أثر فيكِ لكن بشكلٍ آخر، خطوة الذهاب لطبيب آخر بعد وفاة الدكتور وائل كانت ثقيلة على قلبك وأنا أدرك ذلك.

- اعتقدت أنني سأسترشد بضوء ما ممرت به من رحلة العلاج معه، وسأصبح قادرة على حلِّ ذلك بنفسِي، لماذا أنتكس؟ ولماذا أحتاج إلى كل ذلك الوقت؟

- الصدمات النفسية (Trauma) يا مها لا تختفي، لا أحد يُشفي من صدماته بشكل نهائي، وإذا كانت (التروما) مُتعلقة بالأم يكون ذلك أصعب، قد نحتاج لمتابعة التداوي منها بشكل مستمر، هذا لا يُقلل من شأن وأهمية العلاج، فنحن نُثابر ونتعايش بسبب العلاج من الأساس في تلك الحالة، فقط بعض الأحداث قد تسبب الانتكاسات لكننا لا نعود للوراء إذا أمكن علاجنا بشكل سليم، لذلك أنتِ لم تعودي للوراء، أنتِ في نوبة اكتئابية بسبب الفقد وقد تسبب ذلك في فتح الجروح القديمة بشكل أو بآخر.

- إذن أنا على نفس المسار؟

- نعم، أنتِ على نفس المسار؛ لذلك أحسست بأنه من المناسب أن تنضمي لجلسات العلاج الجماعية.

- الغريب أنني أحياناً أشعر بالأم كالذي شعرت به في بداية علاجي مع الدكتور وائل، وأحتاج إلى بعض الجهد كي أرى نفسي بشكل جيد.

- الحالات التي تعاني نتاج أم نرجسية، غالباً لا يرون أنفسهم من الأساس؛ لأنها تكون مُسخرّة طوال عمرها في محاولات لاسترضاء هذه الأم، ودائماً لا ترى احتياجات أطفالها؛ لذا يكبر الطفل فاقد القدرة على رؤية نفسه. الأم هي أول مرآة لنا. وعندما رأيتِ نفسك وقت علاجك واستقلالك، كان شيء جديد عليكِ واستغرق بناءه سنوات، لكن رجعنا بضع خطوات عند وفاة والدك بسبب تعلُّقك به وعودتك للعيش معها بعد وفاته وحتى وفاتها هي. كل هذا ليس بهين، ومن الطبيعي أن ينتج عنه انتكاسة ولو بسيطة.

- أتمنى ألا أظل على وضع تكرار الأحداث واللَّف في دوائر مغلقة، برأيك متى سأتخلص من تأثيرها السام؟

- مع الوقت. لن نستطيع تحديده، لكن تقدّمك ملحوظ وسريع حالياً، ولن يطول الوقت أعدك؛ لأنك مُصرّة على مصالحة نفسك، وهذه سكة العلاج الأساسية، وأنتِ بالفعل قد

قطعت أشواط كبيرة، بالإضافة لأنها توفيت، ففرصة الانتكاسات العميقة شبه منعدمة.

- ما زلت أستعيد الأحداث (فلاش باك) دائمًا؛ الأحداث التي من المفترض أنني تشبعت من التفكير بها، منزعة من كوني ما زلتُ أفعل ذلك.

- استعادتك للأحداث بعد وفاتها شيء وارد. وطالما أن الذكريات لن تسبب لنا إعاقة في ممارسة الحياة، فكل شيء على ما يُرام، الموضوع بأكمله يعتمد على قوة الإرادة، ورغبتك في تحرير دماغك وأفكارك.

- أشعر أيضًا أن نمط حياتي أصبح بطيئًا بعدما كنت أركض في الأرجاء دائمًا.

- بوفاتها انتهى مصدر القلق، واختفى للأبد الكرياج الذي كنت تهربين بسببه لإنجاز كل شيء، طبيعي تكون هذه المرحلة من حياتك هادئة ومتأنية، استمتعي بكل لحظة لا مانع في ذلك.

- أعلم أن وقت الجلسة انتهى ولكن لديّ سؤال سريع يا دكتورة: هل المجموعة العلاجية ستكون في موعدها أم أن هناك أي تغيير؟

- نعم، لقد أكدت على الجميع، وسنجتمع في نفس المكان والميعاد.

قمتُ، وتوجَّهت نحو باب الخروج، وأنا أُلقي تحية السلام على الدكتورة جيهان.

دلفتُ إلى السيارة مسرعةً، ثم أمسكت هاتفي، وفتحتُ الرسائل ورددتُ على هشام التحية، وأخبرته بأنني بخير وأن المقابلة لم تزعجني. أُلقيت الهاتف بجواري، وانطلقتُ إلى المنزل.

عانت قِطتي، وأطعمتها، ثم بعد حمام دافئ جلستُ في فراشي بعينين لا تريان شيئًا، كعادتي عند محاولة الاسترخاء. سرعان ما غُصت في النوم، وعندما استيقظت على صوت رسالة من هاتفي، شعرتُ بأنني لم أنم إلا ثواني، نظرتُ إلى الساعة المعلقة على الحائط المقابل، فوجدتها السادسة مساءً. شعرتُ بالاستياء. أكرهُ أن يباغتني النوم عصرًا، فأستيقظ لأجد الظلام قد حلَّ. اعتدلتُ وأمسكتُ هاتفي. وجدتُ الرسالة من هشام يخبرني بأنه مهوور بالتصميمات الموضوعة على الصفحة الخاصة بأعمالي، وأنه يرغب أن أكون مُصممةً غلاف كتابه الجديد. ابتسمتُ لطريقته الذكية في التقرب إليّ، وكان ردِّي بالموافقة مقتضبًا حتى أهرعَ إلى المطبخ وأعدَّ فنجانًا من القهوة.

أخذتُ قهوتي، وذهبتُ إلى الشرفة مع الهاتف. وجدتُ رسالة جديدة كما توقعت، يطلب مني فيها تحديد موعد للقاء عمل رسمي، فأرسلتُ إليه رسالة بالموافقة، وأعطيته موعدًا في بداية الأسبوع المقبل، بعد جلسة العلاج الجماعي، ودلفتُ إلى غرفتي لأكمل عملي. مرَّ الأسبوع سريعًا؛ إذ كنتُ أعمل على عدَّة مشاريع في نفس الوقت، فانهمكتُ بشدة، حتى حلَّ صباح يوم اللقاء، فاستيقظتُ في حالة من الحماس، وأنهيت طقوس الصباح، ثم ارتديتُ فستانًا بلون قهوتي المفضَّلة (اللاتيه)، ورفعتُ شعري برابطة رأس بيضاء، وارتديتُ حذاءً ذا رقبة طويلة لونه أبيض أيضًا، وهُرعتُ إلى السيارة، وانطلقتُ إلى الجلسة الجماعية.

كانوا في بداية الحديث عندما وصلت. جلستُ بجوار الباب كعادتي في أي تجمُّع بشري. تريحني فكرة أنني أستطيع الهروب إذا ساء الأمر. ولا أفكر بهذه الطريقة إلا في التجمُّعات البشرية فقط؛ فأنا شخص انطوائي للغاية، أستطيع الخوض في الأحاديث بطلاقة متى أردت، لدرجة أن أبدو بشوشةً وودودة، لكن الحقيقة أنني أكون داخليًا في أسوأ حال، وأتمنى الاختفاء بأي شكل، وأن أترك وشأني. ولمعرفة الدكتوراة جيهان بذلك، فهي تترك لي الكرسي الأقرب إلى الباب، كما أخبرتني، لكي تُطمئنني عند شروعي في حضور تلك الجلسات؛ وأشعر بالامتنان لها لذلك كثيرًا.

ثم بدأت الجلسة.

كانت البداية مع (أمنية)، وهي متزوجة من شخص نرجسي منذ ستة أعوام، واستطاعت الطلاق بمعجزة. اندمجت معها تمامًا وأنا لا أفهم كيف يتطابق النرجسيون بهذه الصورة! تكرر بشع، أيًا كان الشخص، زوجًا أو أبًا أو أمًا. كلها نماذج متطابقة إلى حدٍ مرعب. وبعدها انطلق كلُّ بدوره حتى وصلوا إلى دوري -وكنت الأخيرة- فبدأت أسرد الآتي:

- لا أمتلك قدرة على السرد بالتفصيل عمومًا، لكن موضوع أمي أو (زهرة) -لأن كلمة (أمي) أصبحت مؤذية لي- هو الموضوع الوحيد تقريبًا الذي أستطيع الاسترسال فيه. ما معنى كلمة أم؟! لا أعلم معنى الكلمة إلا ككلام مُرسل يقوله الناس، لم أفهم ما هي الأمومة أبدًا، هل هي حلوة أو سيئة مثلما رأيتها؟ لم أفهم معنى أن يخشى شخص وفاة أمه كي لا تتوقف حياته! ما معنى الإحساس بالأمان؟! لم أشعر به يومًا. دائمًا خائفة وغير مطمئنة، قلقة. هل كان سيختلف الأمر لو أحببني أمي؟ هل كنت سأصبح شخصًا مختلفًا؟! حينما كان أحد من أصدقائي يقول: إن والدته تنتظره كي يشاهد التليفزيون معًا كنت أندesh! أو حين يقول أحد: لا أرتاح إلا في حضن أمي! هل حضن الأم مريح فعلاً؟ وهل المفترض أن تحتضن الأم أطفالها؟ أمي كانت تُعاقب فقط، تنتقد، تُقلل من قيمتي، تتحدث عني بشكل سلبي أمام الناس، وأسمعها صُدفة أو متعمدة تسمّعي كم أمثل بالنسبة لها من عبء وهَمّ.

كنت أنظف الشقة لأمي من سن المراهقة، رغم وجود خادمة تأتي لمساعدتها، وإذا لم أقم بالتنظيف يوميًا وإعداد طعام خفيف قبل رجوعها من العمل، كانت تقول عني كلامًا سيئًا لأهلها وأصدقائها. أتذكر خوفي منها وأنا نائمة كل ليلة، لدرجة أنني حلمت في مرة أنها أتت بسكين من المطبخ لتقتلني في أثناء نومي. كانت تضربني، ليس كثيرًا، لكنها كانت تفعل ذلك في مواضع إهانة كأن تضربني أمام الناس. ضربتني مرة أمام المدرسة على وجهي؛ لأنني كنت أراجع الامتحان داخل المدرسة مع زملائي بعيدًا بمسافة خمسة أمتار عن المكان الذي يفترض أن أنتظرها به، كنتُ وقتها بالمرحلة الإعدادية! شعر زملائي بالكرهية تجاهها، وباتوا يخافون منها، وقالولي: كيف لوالدتك أن تفعل ذلك؟ ضربتني مرة أخرى

على وجهي أيضًا في أثناء رحلة مع أصدقائها؛ لأنني كنتُ أتحدث مع ابنة إحدى صديقاتها، وتسببت في تأخيرهم عشر دقائق. أتذكر دموعي وأنا أسير خلفها وأحتاج إلى أن أمسح أنفي ولا أستطيع أن أقول لها: أريد منديلاً! أنذكر صوتها ونظرتها في أثناء قيامها بنشر الغسيل في البلكونة، دخلت لأعتذر إليها من شيء ضايقها، لكنها صرخت في: ابتعدي، أنا أكرهك أكثر من كرهني لأي شيء في الدنيا، اذهبي.

الطفلة التي بداخلي ما زالت تحلم بها ليلاً وهي تُهدّد وتصرخ وتؤذي.

صمتُ لثوانٍ، ونظرت إلى الدكتورة جيهان التي قالت:

- إن كنتِ تشعرين بالإرهاق يمكننا أن نكمل الجلسة المقبلة.

هززت رأسي وهمهمت:

- نعم.

فالتفتت هي إلى الجميع وقالت بعض الكلام الداعم التشجيعي، وأعلنت موعد الجلسة المقبلة. تناولت شنطتي وأنا أُلقي التحية، وخرجتُ مُسرعةً إلى السيارة.

٣

نظرت في مرآة السيارة، وعدلت من مظهر شعري، وارتديتُ نظارة الشمس، وانطلقت إلى مواعي مع هشام.

وصلتُ في الموعد تقريبًا. وللغرابة وجدتُ مكانًا يصلح لركن السيارة أمام المقهى. نزلت، فوجدته يجلس ويتحدّث في الهاتف. ابتسم ابتساماً عريضةً عند رؤيتي، فبادلته الابتسام، وجلست، فقال:

- ملتزمة في مواعيدك... ممتاز.

- نعم، وأنت أيضًا ملتزم.

- لا، أنا عكس الالتزام. أتأخر على أصدقائي ساعتين على الأقل، مواعيدي سيئة دائمًا.

- وطبعًا ستقول لي لم أستطع أن أتأخر عليك.

- صحيح، وأحببت أن أصل قبلك، وسعيد أن نلتقي نهارًا والشمس ساطعة.

- لا تحب الشتاء إذن؟

- لا أحب إلا الشتاء، وأتمنى أن يمتد طوال العام.

- نفس كلامي عن الشتاء.

- تشربي إيه؟

- لاتييه.

أخبر (هشام) النادل بطلباتنا، ثم غير من وضع جلسته وقال:

- نتحدث عن العمل أولاً كي لا تظني أنني أكذب عليك. كتابي اسمه: (نيتشه على كوكب

المريخ) و...

قاطعته بابتسامة قبل أن يكمل جملته:

- (فريدريش نيتشه) الفيلسوف، أم أنه تشابه أسماء؟

- لا، هو، لا تندهشي، أنا مهتم جدًا بالفلسفة، وأتجه لدراستها، والكتاب مختلف عن أي كتاب

قرأت في الفلسفة إن كنت تحبينها.

- أحبها ومهتمة بقراءة الكتاب من الآن.

- المصممة لها أول نسخة طبعًا... معروفة.

فقلت بابتسامة:

- لن أمانع أن يمنحني عملي امتيازات.

- ممتاز.. حسناً، إذا وافقت على تصميم الكتاب ستنالين امتيازاتك كلها، أول نسخة، توقيع

قبل حفلة التوقيع، إهداء أيضًا إذا قبلت، ما رأيك، هل توافقين على تنفيذ الكتاب؟

- موافقة طبعًا. العنوان في حد ذاته مُثير للخيال، بجانب أنني أحب الفلسفة. أعتقد أن

تصميمي للغلاف سيكون مختلفًا عن أي عمل قمت بتنفيذه.

- جميل جدًّا، أنا واثق في ذلك. تصميماتك مميزة، لا أجملك في هذا الأمر، إلا لم أكن

لأطلب منك تصميم غلاف كتابي الذي أعتز به جدًّا.

شردتُ عندما تحدّثت عن ثقته فيّ. كيف لغريب أن يثق في قدراتي بينما عشت مع (زهرة)

أربعين عامًا بلا ذرة ثقة في كفاءتي في المطلق؟! لماذا يحظى شخص مجتهد بأُمَّ تشكك

كل لحظة في قدراته وكأنها تراه حشرة؟! حتى الحشرات لا تُشكك في قدرات أبنائها.

قال هشام بابتسامة باهتة:

- فيمَ تفكرين؟!

- آسفة، أنت تعرف أن الانطوائيين لا يركزون معظم الوقت؟

- أعرف؛ لأنني انطوائي.

- لا أشعر أنك انطوائي.

- لأنني لن أترك فرصة معرفتي بك تضيع بسبب الانطوائية.

- أعلم أنني لم أعطك انطباعًا جيدًا عن معرفتي بك، لكن الحقيقة أنني أمر بمرحلة حرجة، ولست في أفضل حالاتي، ولكنني أحاول الخروج منها. ربما لا يكون هذا أنسب شيء لك في التعامل، فتستطيع بمنتهى الأريحية أن تجعل تعاملنا في حدود العمل ودون حساسية كي لا تشعر بالضيق حين نتكلم.

- لماذا افترضت أنني أشعر بضيق؟! بالعكس، أنا مستمتع بصحبتك، وأشعر أن لديك أشياء جميلة كثيرة، ستظهر حين تشعرين بالاطمئنان.

- ممتنة لتقديرك.

قال بابتسامة عريضة:

- وأنا ممتن لمعرفتك. هذا الملف يضم كل ما يساعدك على تنفيذ التصميم، ويتضمن شرحًا لكل شيء باختصار كي تبديني في أقرب وقت.

قلت بابتسامة مماثلة:

- هايل! سأقرؤه وأتابع معك. أظن أننا اتفقنا اليوم، هيا بنا لأن أمامي عملاً كثيرًا.

قال وهو يرتشف من فنجانة رشفةً أخيرةً ويتركه:

- هيا.

في أثناء زهابنا إلى السيارة، كان صامتًا كالمرءة السابقة. وعندما دلفت إلى السيارة وهممت بإغلاق الباب، أمسك به برفق وقال:

- إن أردت أن نتحدث وتحكي لي سأكون سعيدًا باستقبال تليفونك أو مقابلتك.

ابتسمت شاعرةً بالإحراج وقلتُ:

- شكرًا لسعة صدرك. أكيد لن أتردد، أنت إنسان جميل.

- أراك على خير... سلام.

٤

كعادتي، استلقيت على فراشي عندما دلفت إلى المنزل. فكرتُ كثيرًا في كلمات هشام عَنِّي، ثم بدأت أرتدي ملابس المنزل، ودللتُ قطتي قليلاً، ثم أعددتُ وجبةً خفيفةً وأنا مستمرة في التفكير. لطالما شعرت أن هناك شيئًا خاطئًا بي، وكأنني زرقاء اللون في عالمٍ أخضر البشرية! لماذا لا أستطيع التأقلم مع البشر؟ ربما لأنني كنت أعتقد سابقًا أنني لست جيِّدةً بشكلٍ كافٍ لأي شيء. فدائمًا مهما بذلت من جهودٍ للقيام بأي شيء وإن كان صنع قدح من القهوة، كنت أشعر بأنني لم أفعله كما يجب. هل سيتركني طيف (زهرة) يومًا ما؟!

منذ وفاة والدي وعودتي للسكن في منزل العائلة معها، لم تتوانَ عن إهانة مشاعري وحرق أعصابي في كلِّ لحظةٍ أتيح لها فيها ذلك. لا تتركني حتى للنوم؛ فدائمًا ما تجد حُججًا لإيقاظي، أو تفتعل أصواتًا مزعجةً كي أنتفض ولا أشعر بالسلام. أما آن الأوان للصغيرة التي تعيش بداخلي أن تشعر بالطمأنينة والسلام، وأن تتوقف تلك الأصوات عن إزعاجها؟! أستمع إلى صوتها بداخلي عند بكائي وانكماشني في فراشي يقول: «غبيّة.. غبيّة». أشعر بركلاتها المعنوية تضرب أعماقي عندما أكون في حالة ضعف أو إنهاك. تستغل كل ثغرة للنفاذ إلى عقلي، وإشعاري بأنني على وشك الجنون. أصرخ أحيانًا في المنزل وحدي وأسألها: ماذا تريدين؟ لقد فزتِ منذ الأزل، ولا يوجد مكان هاهنا لم يوصمَ بجروحك؛ فأنا ممتلئة بالندوب.

رغم أنني حضرتُ مشهدَ دفنها بنفسي، إلا أنني أنتفض أحيانًا في الليل خشيةً عودتها ووقوفها أمام فراشي في الظلام تتأملني كقاتل مُتسلسل بل أسوأ. هذه المرأة التي دمّرت لي طفولتي ومراهقتي وبداية شبابي، نرجسية قاسية لا تعرف شيئًا عن الأمومة أو عن المشاعر بشكل عام. كم ذهبت إليها راغبةً في حبها عازمةً على إرضائها بكل السبل حتى المستحيل منها، وفي كلِّ مرةٍ كانت تقابل ذلك بنفور يثير الغثيان، كأنها ترى حشرة تتسلَّق بنطالها!

كنت ألوم أبي بداخلي ألف مرة في اليوم على الزواج منها وإنجابي، فلماذا وُلدتُ لأم عجزت عن حبي؟! أسئلة لم أجد لها تفسيرًا، ولم أقف أمامها كثيرًا.

عند ذلك الحد، توقفتُ عن التفكير، وقررتُ أن أتحدّث تليفونيًّا إلى هشام؛ أشعر تجاهه براحةٍ لم أشعر بها تجاه أحد بهذه السرعة من قبل. أخرجت اسمه من قائمة أرقامتي واتصلت. وما إن أتاني صوته الهادئ حتى قلت:

- كيف أحوالك؟ هل الوقت مناسب للاتصال؟

- جدًّا. وأي وقت تتصلين هو مناسب.

ضحكت وقلتُ:

- لا، لا أحب المجاملات والمراوغة، ما يريحني أن تتصرف في حدود وقتك معي.

- وما هي حدود وقتي؟

- لا أعلم، أنت أدري بها.

- إذن اقبلي كلامي يبقى بما أني الوحيد الذي يعرف حدود وقتي ورغباتي.

- حسنًا، معك حق، لن أجادلك.

- جادلي كما تريدين إذا كان ذلك سيجعلك على طبيعتك معي.
- لماذا؟ أتظن أنني لستُ على طبيعتي معك؟
- خلف تحفظك المبالغ يوجد دفء أشعر به.
- سأتركك تعرفني مع الوقت.
- لماذا توجد لديك الكثير من الحواجز؟
- أيُّ حواجز تقصد؟
- أنتِ تضعين الكثير من الحواجز وتُكلمين الناس من خلف حصون.
- لا أنكر ذلك. حصوني ودروعي حممتني طوال عمري، ولها الفضل في أنني أحيأ حتى الآن.
- لكن الحياة الحقيقية لا تعني أن تكوني فقط على قيد الحياة.
- صعب أن أحيأ حياة حقيقية. طوال الوقت أشعر ألا مكان لي على ظهر الكوكب بأكمله.
- مُتخيّل ذلك، أخشى أن أقول إنني أشعر بكِ كي لا تقولي لي كيف عرفت؟ وتظنين أنني أراوغ كما تظنين.
- لا، لن أقول، لكن أستغرب أنك تفهم مشاعري، كيف تفعل ذلك؟
- كنتِ مثلكِ وخُضتِ رحلة علاج طويلة حتى تجاوزتِ هذه النقطة.
- كنتِ تشارك في جلسات مع متخصصّ؟
- نعم، سبع سنوات. وحقيقي قبلهم لم أكن أشعر بالحياة.

- كلام جميل! أنا أيضًا أتابع رحلة علاج منذ سنين، وقطعتُ بها شوطًا جيدًا، وأتمنى ألا تطول الرحلة أكثر من ذلك. أصابني الملل.

- اصمدي. هل تعرفين ما الاستثمار الحقيقي؟

- لا.

- في نفسك؛ استثمري فيها، مهما كلفك ذلك من وقت وأموال وطاقة، لكن في النهاية أن تكوني إنسانًا طبيعيًا بيستمع، فهذا استثمار لا يخسر أبدًا. بالعكس، يحولك لوديعة غالية تؤمن لك مستقبلك مدى الحياة.

- كلامك جميل، أفكر أن أجعلك Life coach لي بعيدًا عن جلساتي مع الدكتورة.

- يسعدني ذلك، موافق.

- احذر أن تكون من هواة إنقاذ البشر.

- كنت كذلك، لكن تعلمت أنه ليس كل البشر يمكننا إنقاذهم.

- إذا قلت لك إنني مثلك في هذا الأمر، هل سأكون مبتذلة؟

- أنت أبعد ما يكون عن الابتذال، وأنا أفهمك منذ رأيتك وكأنني أعرفك منذ زمن.

- هل أنت انطوائي فعلاً؟

- جدًّا، وأعلم أنك تظنين أنني شخص غريب، لكن انطوائيتي منحنتني ميزة تأمل الناس وقرأة أفكارهم؛ لذلك حدسي قوي نوعًا ما؛ لذا أحسست بك منذ رأيتك وسرتُ خلف حدسي تجاهك.

- سوف أقلق منك هكذا، أريد معرفة قصتك، فربما أتشجع وأحكي لك قصتي.

- سأستغل الفرصة وأقول لك: إنني موافق. نلتقي غدًا، وأحكي لك مباشرةً وجهًا لوجه، لا أظن أن التليفون مناسب لقصتي أو قصتك.

- اتفقنا سنلتقي، رغم أنني لا أصادق عملاء العمل.

- أنا بدأت معك طامعًا في صداقتك، العمل جاء لاحقًا؛ أي أنني صديق استعان بصديقه للقيام ببعض الأعمال، وهذا أمر شائع في كل مكان.

قلت ضاحكةً:

- أقنعتنني. وأنا أتحجج كي أقتنع صراحة.

قال بصوت مرح:

- عظيم. التاسعة صباح غدٍ نشرب القهوة ونفطر معًا في الزمالك، في نفس المكان الذي تقابلنا فيه أول مرة. يكون هادئًا في الصباح وإفطاره لذيذ.

- موافقة، أنا أحب إفطاره بالتحديد فعلاً.

- إلى اللقاء.

- سلام.

أغلقْتُ الهاتف وأنا مبتسمة ابتسامة عريضة بلهاء، وشعرت بالراحة لمجرد فكرة لقائه غدًا. ولا أعرف ما الذي دهاني، فأنا ثابتة الجنان دائمًا، ولا ألتفت لعلاقةٍ عابرةٍ بشخص رأيتَه مصادفةً. لكنني قررتُ خوض التجربة والإنصات إلى حدسي مع هشام.

شرعتُ في إنهاء عملي على تصميم غلاف روايته، كنتُ أعمل بحماس، فأنهيتهُ الكثير في فترة قليلة. وبعدها أنهيتُ بعض الأعمال المنزلية، ووضعت العشاء لقطتي، وتفاجأت أن

موعد النوم قد حلّ، فقررت أن أقرأ كتابي المفضل (مرتفعات وذرينج)؛ الذي ألجأ إليه عندما أريد إخمادَ عقلي.. ثم غلبني النوم.

استيقظت صباحًا شاعرةً بالحماسة، وقررتُ أن أمرّ اليوم على (إنجي)، بعد لقائي الصباحي بهشام؛ وكنت طوال الشهر الماضي في وضع انعزالي، جعل الرد على الهاتف والزيارات عبئًا روحيًا ثقيلاً. كنت في حاجةٍ إلى شحذ طاقتي حتى أحرز تقدّمًا في عملي. لكن (إنجي) و(ليلى) تحترمان مساحتي الشخصية، وأني شخص انطوائي، وأحيانًا أمرُّ بنوبةٍ من الرغبة الشديدة في العزلة، فلا تحكمان عليّ أو تغضبان منّي، جعل هذا حبال صداقتنا قوية ومتينة، لا تعصف بها رغباتي المفاجئة في الاختفاء. ولذا مكانهم في قلبي بمنأى عن كراهيتي للاقتراب من البشر بوجه عام. لربما أضع (هشام) في نفس المنزلة، إذا قدّر الانطوائيّة التي تُسيطر عليّ أحيانًا كثيرة.

لماذا أفكر في (هشام) بكثرة وأرغب في وضعه بمكان آمن في قلبي؟! لا أعلم. شيءٌ بداخلي يدفعني دفعًا إلى الاقتراب منه، ولا أبالي بتفسير هذا الوضع حالياً.

ارتديتُ فستانًا أسود، ووضعت عليه شالًا من الصوف ثقيلًا أزرق هادئًا كلون السماء في ليلةٍ صافية، وأرسلتُ شعري، مُجَعِّدَةً خصلاته على شكل دوائر ضيقة أنيقة، ونزلت للقاء (هشام).

عندما وصلتُ كان في انتظاري. بعد إلقاء السلام، جلسنا يُحدِّق بعضنا في بعض، صامتَيْن صمّتًا يشوبه الابتسام.

- هل نفطر أولاً ثم نحكي؟ أم العكس رغم أن هذا ضد التقاليد.

قلتُ ضاحكة:

- لا تقلق. لا علاقة لي بمسألة الإتيكيت والتقاليد، أفعل ما يريحني فقط.

ضحك وقال:

- فهمتك على فكرة من أول لقاء.

- كيف؟

- النساء غالبًا حينما يجلسن مع رجل للمرة الأولى، يقُومن بتصرفات معينة ليصبح شكلهنَّ لطيفًا، أنتِ كنتِ طبيعية كأنكِ تجلسين مع صديقة قديمة.

- لا أحب الافتعال، الوضوح والبساطة يريحونني حتى لو سأخسر الناس بسببهما.

- لا، في حالتي لن يكون هناك خسارة، سأبقى بجانبك دائمًا.

قلت مقطبةً:

- دائمًا؟!

- لا لا، كنت أمزح، لا تفزعني. ما أقصده أنني مثلك لا أحب الشكليات وأحب الوضوح والبساطة.

- رائع! ستكون أول رجل ألتقيه يحب الوضوح والبساطة. الرجال يدعون حبهم للوضوح، رغم أنهم في أعماقهم يحبون المرأة الغامضة، إرضاءً لغريزة الصياد داخلهم. الكتاب المفتوح مزعج وصادم لهم مهما ادَّعوا العكس.

- حسنًا، لن أقول لك إنني مختلف، سأقول لك جريبي. التجربة هي السبيل الوحيد للمعرفة.

- موافقة. إذا قلت إنك ستحكي أولاً.

- الفضول.

- لستُ فضولية إطلاقًا، ولا أهتم بما لا يخصني، لكني أريد أن أسمعك فاغتنم الفرصة.

- سأحكي لك. لماذا أقول أشعر بأنني أعرفك؟ بغض النظر عن انجذابي الشديد لروحك منذ شاهدتُك من بلقونة المنزل، والذي دفعني للنزول سريعًا لأكلمك، رأيت فيك من لمحات بسيطة شخصًا انطوائيًا مخلصًا وذكيًا، وحياته لم تكن سهلة. وفي نفس الوقت امرأة قوية وممتلئة بالعطاء.

قلتُ مقاطعةً:

- هذا وصف طبيب معالج يا بني... تمهل!

فضحك وقال:

- نعم، لديّ خبرة سنوات من العلاج. بغض النظر عن الوصف دقيق أو لا، هذا ما لمستته فيك سريعًا. وكما قلت لك، أنا قارئ جيد للناس. أنت تشبهيني إلى حد كبير، وغالبًا مررت بتجربة صعبة مع أحد المقرّبين أو صلك لأن تصبّحي كذلك، لا أحد يُولد راغبًا في العزلة عن الآخرين.

- معك حق، الإنسان كائن اجتماعي بالفطرة.

- بالضبط، بالنسبة لي، مررت بتجربة فريدة مع أبي. أبي -رحمه الله- كان نرجسيًا ساديًا. نموذج يستحق التدريس في الكتب، وكان أمامي حل من اثنين؛ إما أن أصبح مثله، أو أكون إنسانًا وأتعالج. بصراحة، الموضوع -من وجهة نظري- لم يكن اختياريًا أساسًا. شخصيتي التي وُلدت بها أجبرتني أكون مختلفًا عنه، يجوز أن حضن أمي وحبها لي أنقذوني، عكس أخي (مروان) الذي لم يفرق معه حب أمي أو غيره، فبات نسخة نرجسية خفية من أبي، مع اضطراب شخصية حدّية.

- هذا شيء وقعته شديد.

- نعم، لكن أنا وأمي لم نتركه، حاولنا معه، وبدأ العلاج لكنه لم ينتظم. عمومًا، لا أستطيع أن أحدّد سبب أنني لست مثل أبي أو مروان، لكن ما أعرفه جيدًا أنني حين وصلت لسن العشرين، اتخذت قرار العلاج النفسي للتخلص من آثار الحياة الصعبة التي عشتها مع أبي.

- قرار رائع.

- قرار غير كل حياتي، لن أقول إنه كان يضربني مثلًا، على العكس، هو لم يضرب أحدًا منا أبدًا، لكنه كان يعذبني نفسيًا بطرق مبتكرة. الإنكار في البداية كان عائقًا بيني وبين العلاج، لكن حينما اعترفتُ لنفسي بحقيقة الوضع ارتحت. استغرقت وقتًا في القبول وتعبتُ، لكن في الآخر المسألة كانت تستحق. تحررتُ وأصبحت في مكان لم أكن لأصل إليه إلا بإصراري على العلاج.

بدت على ملامحي الدهشة وأنا أقول:

- لا تتخيل ما أشعر به بعد أن سمعتك، تجربتك وكأنها أتت لي في وقتها تمامًا، كنت أحتاج إلى سماع شخص مرّ بمثل هذه التجربة لأعرف كيف ستكون النهاية.

قال مقطّبًا:

- إذن، إحساسي بك صحيح أيضًا، أنتِ تقاومين وتحاولين الخروج من أزمة كبيرة.

- بالفعل، تجربتي شبيهة بتجربتك، الفارق أن أمي هي سبب الأزمة وليس الأب.

قال بحزن:

- لا بدّ أنك مررتِ بمشاعر صعبة، الأم في أي مجتمع لها قدسية تجعل من تجربتك أسوأ، حين يكون الأب قاسيًا فالناس قد لا يستغربون ذلك، ومن السهل أن يصدقوا شكواك؛ لأن طبيعة الرجال عنيفة ومتحكّمة، خاصةً في المجتمعات الشرقية، لكن الأم، المجتمع يدافع عنها دفاعًا مستميتًا، وكأنها إله مُحال أن يخطئ.

- رغم أن نفس هذا المجتمع يشاهد أمهات ترمي الكثير من الرُّضَع في (القمامة) ولا تقتلهم حتى! المرأة سواء كانت أمًّا أو غير ذلك تكره وتكذب وتؤذي مثل الرجل؛ لأن هذه طبيعة البشر. والأمومة شيء جميل، ولكن لأي قاعدة شوان، وبصراحة حينما احتككت بالمجموعات العلاجية، وجدت أنها ليست شوان، اقتربت من تصديق أن المجتمع بأكمله نرجسيون.

- إذا نحننا المصطلحات، ستجدين أن بداخل كل شخص جانبًا مشرقًا وجانبًا مظلمًا. بعض النماذج يسيطر الجانب المظلم على تصرفاتهم، لكن لا أحد شرير بنسبة مئة في المئة.
- معك حق.

- أبي مثلًا، رغم كل ما عانيته معه، إلا أنه كان يحب الطبيعة جدًّا، وعلمني أتأمل فيها وفي الموجودات عمومًا، وهو كان سبب حبي للفلسفة، ممارساته التأملية كانت تشدني جدًّا.

- أنا أيضًا أُمِّي كانت تحب مساعدة المحتاجين، وعلمتني أنفق مما معي حتى لو كنت مأزومة ماليًا.

قال مبتسمًا:

- أنت جميلة. رغم ألمك وضيقك مما فعلته معك والدتك، لم تفكري في نفي بعض الصفات الحلوة بها.

شعرت بالخجل وقلتُ له بابتسامة:

- متشكرة. أنت من لفت انتباهي لهذه النقطة. ممتنة لكلامنا، ويبدو أنه سيغير بي بعض الأشياء.

- حسنًا، احكِ لي، أنا أسمعك.

حكيتُ قصتي مع (زهرة) باختصار، حتى وصلت إلى ما بعد وفاتها. طوال عشر دقائق، لم أتوقف عن السرد. لم تفارق عينا هشام عينيّ، وظهر على خلجاته التأثر، وامتلأت عيناه بالدموع مع سردي للحظات ألمي. وعندما انتهيتُ، شرع هو في الحديث.

- مؤلم جدًا أن يكون الحزن الذي يفترض أن نستمد منه الأمان هو مصدر الأذى الرئيسي والحرمان. أنت بطلة ولا أحتاج أن أقول لك ذلك؛ لأنك بالتأكيد سمعت ذلك في أثناء رحلة علاجك، أريد أن أقول: إنني أشعر بالملك وأصدق وأقدر كل تفصيلاً جرحتك. أعجبتني في سردك للحكاية أنك لم تصورها على هيئة شيطان، بالعكس، لمست منك تعاطفًا تجاهها.

- لا بد أنها هي أيضًا تعرضت لأذى كي تصل لهذه المرحلة، عرفت ذلك من طبيبي، كنت أحبها، لكن منعني نفسي أن أجعل هذه المشاعر تؤذيني، موتها أراح لديّ الجزء الذي عاشت تؤذي فيه حتى النهاية، لا أنكر أنني كنت أتمنى أن تبادلني الحب ولو ساعة، وأني كنت أشفق عليها أحيانًا من كونها غير قادرة على الاستمتاع بمشاعر جميلة مثل الأمومة.

- أفهم مشاعرك.

- متخيلة، ولذلك أتحدث معك بارتياح، ليس للجميع القدرة على استيعاب ذلك المزيج الغريب من المشاعر... احك لي عن حياتك بشكل عام.

- أنا يا مها شخص هادئ. حياتي بسيطة قليلة التفاصيل، أمي وإخوتي مروان وسارة، عدد محدود من الأصدقاء والأصدقاء، وعملي الذي يستغرق معظم وقتي، لا أستطيع أن أكون موجودًا بين الناس معظم الوقت رغم أن طبيعة عملي تفرض عليّ خلق فرص للتعرف على الكثير من الأشخاص من الوسطين الثقافي والفني، لكني لا أجد نفسي وسط الناس بسهولة، أحتاج إلى بذل مجهود لمعرفة أشخاص جدد، أقرب أصدقائي اسمه أحمد، وهو انطوائي أيضًا لكن ليس بنفس درجتي من الانطوائية.

- بالنسبة لي هذه حياة مثالية. الزحمة تخنقني.

قال ضاحكًا:

- طبعًا إذا الزحمة لم تخنقك أنتِ، ستخفق من؟

ضحكت وقلت:

- أكيد أنك لا تسخر مني!

- كيف أسخر وأنا مثلك؟!

- الغريب يا هشام إن المتشابهين صعب ينجذبوا لمعرفة بعض.

- حقيقي، لكنني تعلمت، ودفعتُ ثمنًا غاليًا، أكثر الناس المتعبين في التعامل هم المختلفون عني، يحدث انجذاب لهم في البداية، مع قليل من العشرة تنفجر كل الاختلافات وتفسد العلاقة.

- أنا تعلمت أن العلاقات مع البشر عمومًا تكلفتها عالية، وتنفجر في النهاية.

- هل كان لديك علاقات مع أشخاص يشبهونك؟ أصدقاء، أحباب، أو غير ذلك؟

قال كلمته الأخيرة وهو يبتسم. فأجبتُه بحزن حاولت مداراته:

- صداقة لأ صراحةً، لكن أحببت شخصًا بقوة وانتهى به المطاف ميثًا أمام عيني.

اتسعت عيناه وظهر عليه التأثر الشديد!

- آسف لذلك، لم أقصد إيلاكم.

- أعلم ذلك بالطبع، لقد مر خمس سنوات على ذلك لكن أشعر بغصّة كلما تذكرته.

- بالطبع ففقدان حبيب أمام أعيننا شيء يبقى أثره في النفس إلى الأبد.

- نعم.

قلت مُغيرة للموضوع:

- هل تشعر أن كونك شخصًا انطوائيًا عائق أمامك في العلاقات العاطفية؟

- أدرك رغبتني في تغيير الحديث واستجاب بسرعة واحترام: هذه ميزة وعيب في الوقت ذاته.

- كيف؟

- يمنعك من الانغماس والاندماج.

- آه، معك حق. لكن ثمن الاندماج والانصهار غالٍ جدًا إذا حصل فراق.

- بغض النظر عن أن كل شيء له ثمن، من الجيد أنك تعلمين مدى قوة تحملك، لكن السؤال: تتجنبين المخاطر والمحصلة تكون صفر أفضل، أم المخاطرة مع احتمالات نجاح خمسين بالمئة؟

- لو سألتني هذا السؤال منذ زمن كنتُ سأقول لك: إن الصفر أفضل، لكن في المرحلة الحالية من حياتي أشعر بقول لكل شيء، قدرة على المخاطرة وقبول الخسارة، لم أكن سابقًا أفهم أن الخسارة جزء من الحياة.

- هذا تطور عظيم، أتوقع أنه استغرق منك وقتًا للوصول إليه.

- بصراحة، بعد أن استمعتُ إلى حكايتك، ورأيت كيف تعافيت، أنت تستحق وسامًا وأحاول الاستفادة منك قدر الإمكان، (لايف كوتش) مثلما اتفقنا.

قال مبتسمًا:

- أنا مستعد. تحت أمرك.

- اتفقنا. بالمناسبة، هل لاحظت أننا نتكلم منذ ثلاث ساعات؟

أجاب متعجبًا:

- لم ألحظ مطلقًا. الوقت مرَّ بسرعة، لكنني غير مندهش، الكلام معك ممتع بوجه عام، وتوقعت ألا أشعر بالوقت، لكنني لم أتوقع ألا تشعرني به أيضًا.

قلْتُ مبتسمة:

- أخيرًا شيء لم تتوقعه عني!

ضحك وقال:

- ماشي... عمومًا أنا لستُ عرَّافًا. مؤكد أن بعض الأمور لن أتوقعها.

- على فكرة، لقد بدأت في التصميم.

- ممتاز، وأتوقع أن تنفذي شيئًا مميّزًا.

- إن شاء الله، لديّ عدة أفكار أتمنى أن تعجبك.

- أثق بك يا فنانة.

- هيا بنا الآن، لديّ عمل متراكم وموعد.

- كما تريد، هيا بنا.

خرجنا معًا في اتجاه سيارتي. أغلق لي باب السيارة، ولوّح لي مُودِّعًا، ثم انطلقت في طريقي إلى منزل (إنجي).

الفصل السابع

«نحن نسعى لأن نجد الألم أكثر من سعينا لأن نجد السعادة».

سيجموند فرويد.

١

في منزل (إنجي)، كان لقائي بها بعد شهرٍ متواصلٍ من انقطاع اللقاءات. كانت مُرَحَّبَةً دافئةً كعادتها، وسألني عن أخباري كلها بلهفتها المعتادة للاطمئنان عليّ، فكنت أضحك من قلبي وأنا أجيبها عن أسئلةٍ مختلطةٍ تداخلت -من لهفتها في إلقاءها- وكأننا في سباق. وبعد أن تبادلنا الأدوار، وسألتها عن أخبارها، بدأ بعض الوجوم يتسلل إلى ملامحها، فشرعت في معرفة ماذا حلَّ بها في الأيام التي لم نتحدَّث بها.

- ماذا بك يا (إنجي)؟ تبدين حزينة.

- أشعر وكأن أحدهم ضربني على رأسي.

- لماذا؟ ما الذي يحدث لك؟

- الصراحة أنني تعبت ولم أعد قادرة على تحمل أفكارٍ تجاه عبد الله. ذهبت إلى طبيبتك التي قلت لي أن أستشيرها، وفوجئت بأن شكوكي الحالية تجاه زوجي الذي عشْتُ معه سبعة عشر عامًا حقيقية.

- قالت لك إن لديه سمات نرجسية مثلما خمنًا؟!!

- نرجسية خفية، أي أنه ليس مجرد نرجسي واضح، وقضى كل هذه السنوات يتلاعب بعقلي كي أرى نفسي مجنونة. أنا مجنونة! أصبحت متأكدة أنني مجنونة؛ لأنه خدعني كل هذه السنوات.

- هوني من الأمر، لو كنت مجنونة كان المحيطون بك سيشعرون بذلك، هو فقط من كان يسعى أن تشعري بالجنون، وكلنا قلنا لك إنك امرأة عاقلة وذكية، وهو لا يستطيع التعامل مع هذا الأمر، ويحاول أن يهز ثقتك كي يتقبل نفسه.

- لم أعد قادرة على النظر في وجهه، أصبحت الأمور واضحة بالنسبة لي، ولولا أن (سيرين) تدرس الثانوية العامة هذا العام لاتخذت خطوة الانفصال.

- وُضع طبيعي أن تقلقي. ممكن أن تتحملي هذا العام من أجل ابنتك، وبعد ذلك نرى طريقة هادئة للانفصال دون مشكلات.

- أكثر ما يُثير جنوني أنني كنت مثل العمياء طوال هذه السنوات، فقط منذ ثلاث سنوات بدأت أنتبه، هل من المعقول أن أكون بمثل هذا الغباء؟

- لستُ بغيبية عزيزتي، أي شخص قد يقع في شرك شخص نرجسي خفي؛ لأن سماته سهل أن يندع فيها الناس، لكن ذكاءك ساعدك أن تلاحظي سماته.

- سأحكي لك يا مها ماذا قالت لي الدكتورة جيهان، قبل أي شيء أكدت أن تشخيص الحالة يحتاج إلى طبيب متخصص، فلا يجوز أن يكون تشخيص ذلك من قبل شخص غير متخصص. لكنها أوضحت السمات حتى أستطيع التمييز، فقط للحدّ وأخذ الحيطة. أن النرجسية أنواع، وهذا ما يجعلنا نُصاب بالالتباس، منها: النرجسية السرية Covert Narcissism، وتُسمّى أيضًا النرجسية الضعيفة Vulnerable Narcissism.

- نعم، يا عزيزتي، ولها علامات أقل من النرجسية الظاهرة مثل الخجل، التواضع، الحساسية تجاه ما يعتقده الآخرون عنهم.

- وهذا دفعني لسؤالها: هل يعني ذلك أن أي شخص يمتلك تلك الصفات يصبح نرجسيًا خفيًا؟ فأجابت:

- بالطبع لا، فهناك صفات أخرى الأطباء يشخصون على أساسها.

- نعم، شرحت لي ذلك أيضًا، ووجدت ذلك ينطبق على عبد الله، مثل الحساسية العالية للنقد، العدوان السلبي، الحاجة للشعور بالإعجاب، طبيعتهم خجولة أو منعزلة، الشعور بالقلق والاكتئاب والفراغ.

- وأكثر شيء أميزهم به يا عزيزتي الميل إلى حمل الضغائن، قلوبهم سوداء.

ضحكنا معًا عند ذكر ذلك، وأكملت:

- الشعور بالنقص يا مها أيضًا، دائمًا يشعر بالنقص مهما امتلك ومهما حقق، والأغرب عندما ذكرت لي التعاطف مع الآخرين لخدمة الذات، فإنه يظهر ذلك بكل الطرق حتى يتلقى المديح والاستحسان.

شردت مع كلماتها، فكنت أعلم جيدًا ما تخبرني به (إنجي)، فلقد أخبرني الدكتور وائل -رحمه الله- كل ذلك، لكن التأثير الذي بدا على ملامحها أثار شجوني بذلك، أكملت (إنجي):

- أي شخص لا يعرفه يراه لطيفًا ورقيقًا وسهل المعشر، متعاونًا، متفاهمًا، ذكيًا، دقيقًا، وزوجًا محبًا وأبًا حنونًا، لدرجة أن الجميع يحسب أنني أحيا في الجنة حرفيًا، وتتهافت الصديقات على زوج مثله، لكن الحقيقة المؤسفة أنه يتعمد إيذائي ويُسككني في نفسي طيلة الوقت، ويسيطر على حياتي سيطرة تامة، ويُخضعها بكل الوسائل، ولا يتوانى عن إتيان أي شيء لتحقيق أهدافه، ويكُنُّ الضغائن لكل المحيطين به، ويرفض الذهاب للحصول على المساعدة الطبية بكل الطرق. لقد سعيت بكل قوتي أن أقنعه أن يذهب لأي طبيب يختاره، وسأرضى بجلسات إصلاح زوجي عند المختصين. فقط يوافق في البداية،

ثم يرفض بعد ذلك بكل الطرق الممكنة وغير الممكنة. في النهاية توجَّهت أنا نحو العلاج حتى لا أصل إلى مرحلة الجنون التي يهدف هو إليها من البداية.

- أعلم يا حبيبتي مدى إحساسك بالألم خصوصًا بعد عودة ليلي إلى إنجلترا وأنها كانت بجوارك دائمًا تشد أزرك.

- أتعلمين؟ الله أرسلك لي اليوم، كنت أحتاج إلى الكلام معك والتعبير عما بداخلي.

- حبيبتي يا (إنجي). أنا آسفة أنني غبت عنك، لكن صدقيني أنا نفسي في دوامة أحاول الخروج منها.

- أثق في ذلك وأتفهم ظروفك، أنا سعيدة لأنك تبدين سعيدة اليوم، وهذا دليل أن هناك تحسنًا وتقدمًا.

- نعم، هناك تقدم وشيء آخر، التقيت شخصًا بات وجوده مؤثرًا في حياتي.

قالت (إنجي) بشغف:

- أريد التفاصيل كاملة.

بدأت في سرد كيفية لقائي مع هشام، حتى وصلت إلى لقاء اليوم، دون أن أغفل أي تفاصيل. وتعجبت من تذكُّري التفاصيل البسيطة بدقة لم أعهد لها في ذاكرتي!

- جريء جدًا هشام. مندهشة أنك تقولين عنه انطوائي، كما أنك غير بارعة في التعامل مع الشخصيات الغربية، هذا تطور حقيقي أن تقبلي على التقارب مع رجل بعد أن توقفت عن ذلك منذ سنوات.

- أنا سعيدة، جزء مني متخوِّف، وجزء مُقدم ولديه استعداد للاقتراب. أنا في حيرة.

- وما رأي الدكتورة جيهان؟

- كالعادة لا يوجد رأي، تريدني أن أفكر فيما أرتاح إليه وأنفذه، خصوصًا أنه حتى الآن لا يوجد ضرر أو تأثير سلبي للعلاقة على علاجي.

- ما رأيك أن نكلم (ليلي) مكالمة فيديو ونحكي لها. اليوم الأحد وهي إجازة.

- كنت سأقترح عليك ذلك، هيّا نكلمها.

شرعنا في محادثة (ليلي)، وكانت مكالمة حافلة بالمشاعر كالعادة؛ فمنذ سافرت، ونحن نفتقد جلساتنا الثلاثية، ومبيتنا معًا، وحكايات لا تنتهي، وتناول الطعام غير الصحي وأطباق الحلويات، وخوض مغامرات متكررة. وسردت قصة (هشام) منذ البداية إلى آخر لقاء مرة أخرى بلا ملل، على غير عادتي! فقالت (ليلي) بعد أن انتهيت:

- انطباعي من كلامك أنه شخص ناضج، ويعرف ما يريد، أتمنى أن يكون كذلك فعلاً.

فقلت لها:

- طبعًا، أنا مثلك، ولديّ مخاوف أن يكون نرجسيًا خفيًا أو متلاعبًا، أنا جذابة لهؤلاء.

قالت إنجي:

- لا داعي أن نستبق الأحداث، الأيام كفيلة بأن تكشف كل شيء حلوه أو مُرّه، وأنت يا مها ناضجة بما يكفي ويصعب خداعك، وخبرتك بالحياة أصبحت كبيرة.

قالت ليلي:

- معك حق، لكن مخاوفنا مشروعة من المرضى الذين يؤذون الآخرين بشكل تلقائي.

قلت:

- أريد أن أختبئ.

فقلت (إنجي) بغيظ:

- هل رأيت يا (ليلي)! لقد خافت، صار لنا وقت نعالج الخوف الذي بداخلها وأنت أخفتها.

قالت (ليلي) بنبرة معتذرة:

- لا تخافي يا مها، تعرفين وسواسي، وهذا ليس له علاقة بثقتي في حكمك على الناس، نحن نقف بجوارك دائماً.

فقلت:

- حسنًا لا تقلقوا، أحتاج إلى الخروج من العزلة بأي شكل. مللت من خوفي وقلقي من الناس طوال الوقت والذي يجعلني أشعر بأنني مريضة، وأنا اكتفيت من المرض. مستعدة أن أنفتح وأخسر مثل باقي البشر. أحتاج إلى تقبل أن الحياة لها ضرباتها، وأن خوفي يمنعني من الحياة حرفيًا.

قالت إنجي:

- أنتِ تستحقين الخير كله يا حبيبتي، الأمور ستصير على ما يُرام، وأنت يا ليلي لا تُعْطلي نفسك أكثر من ذلك؛ لأن لديك عملاً غدًا. أنا ومها سنجلس قليلاً دونك، تشجعي قليلاً وتعالِي في إجازة طويلة.

فقلت ليلي:

- سأتي في إجازة الأعياد شهرًا ونصف شهر بأكملهما، استعدوا. كنت أريد أن أفاجئكم لكني غير قادرة على الكتمان، أسبوعين أو ثلاثة وستجدونني أمامكم.

شرعنا في الصراخ والضحك احتفالاً بالخبر السعيد، وأمضيتُ بعض الوقت مع (إنجي)، ثم تأخّر الوقت، فلملمتُ أشياءي المتناثرة، وشرعتُ في الذهاب إلى المنزل.

شعرتُ بالانتعاش وأنا أحتضن قطتي، وأسترجع أحداث يومي. كان يوماً لطيفاً للغاية، ولقائي بالأصدقاء ترك في نفسي شعوراً افتقدته كثيراً في فترة عزلتي السابقة، وسألت نفسي عن سبب استمرارتي في العزلة إلى الآن؟!

لماذا يا مها تطولُ فترات غيابك وانقطاعك عن البشر مهما كانت غلاوتهم في قلبك؟!

- شحن الطاقة!

- شحن طاقتك يستغرق من بضع ساعات إلى أيام أحياناً، لكن لا يصل إلى شهور! ألا تزالين تخشين القرب المتّصل من البشر وأن تعتادي وجودهم؟

- أعرف أن منبع خوفي الأساسي من البشر هو فقدان الثقة في أمي منذ طفولتي، وهذا تسبب مع الوقت في انطوائي وعزوفي عن الاختلاط خشيةً أن أتعرّض للأذى من أي شخص. فأني شخص مهما كنت أشعر بالتعلُّق به يستطيع أن يخذلني كما خذلتني أمي.

لكن ما الداعي الآن، بعد سنوات من العلاج، لأن أقف دون حراك في نقطة تسببت هي في أن تسجنني فيها؟ وقوفي في هذه النقطة كان مسئوليتها، لكن استمرارتي فيها هو مسئوليتي أنا. كيف لي أن أرضى بالخوف أسلوب حياة؟! إذا كان يُطلَق على أسلوب حياتي حياة من الأساس!

أعتقد أنه آن أوان محاولتي للتعافي من الخوف وصنع الحصون التي طالما برعت في وضعها. شماعة خوفي من (زهرة) جعلتني كسولة في كسر خوفي بحجة أن الجميع يستطيع أن يفعل كما فعلت (زهرة)، لكن الحقيقة هي أنني شعرت بالراحة بداخل قوقعتي، وخلقتها كمنطقة راحة Comfort zone، ولم أعبأ بالخروج منها وسط رحلة علاجي. الآن أنا أقوى وأشجع في مواجهة نفسي. أخوض حرباً مع نفسي ضد أمراضها منذ فترة؛ لذا لن

أغفل عن أي جزء يحتاج إلى التداوي، حتى ولو تطلّب هذا أن أتألّم من مشاعر جديدة. لا شفاء دون مجازفة.. سأجازف.

قلت الكلمة الأخيرة لنفسي، وتنفّست الصُّعداء. هذا قيدٌ جديدٌ أريد أن أفكّ حبّالَه وأنطلق، متشوقّةً لرؤية نفسي في نهاية الرحلة. هل سأصبح مثل (هشام) يوماً؟ منطلقة وواثقة ومتسامحة مع كل أخطاء الماضي، والأهم من ذلك متصالحة مع نفسي؟! الوقت يمتلك جميع الإجابات.

٢

مضى أسبوع على آخر مرة رأيت فيها (هشام)، لكن لم تنقطع محادثتنا عبر الهاتف، أو على وسائل التواصل الاجتماعي. كنت أكثر مرحًا وإقبالًا على التعامل معه. جزءٌ مِنِّي كان لا يزال يرفض الانفتاح معه، لكن كنتُ أسجّل باستمرار أسباب خوفي من إزالة الحواجز، حتى حان موعد جلستي مع الدكتور جيهان.

دلفت إلى غرفة الكشف مُبتسمةً، وبادلتني هي الابتسام، ثم جلستُ ممسكةً بكوب قهوتي.

قالت وهي لا تزال مبتسمة:

- ابتسامة حقيقية ولامعة، ليست مفتعلة مثل ابتسامات الفترة السابقة.

قلت بضحكة جَدِلة:

- آه، تشعّرين وكأنني -اللهم اجعله خير- مُقبلة على الحياة.

فقالت بابتسامة ماكرة:

- إقبال على الحياة مرة واحدة! وأين اختفت العدميّة؟!

- موجودة، لا تقلقي، هي رفيقة درب، لكن هذا لا يمنع أن أستمتع.

- أعلم أنك تعرفين الاستمتاع، لكنك تخشين الاستمتاع للنهاية، وهذا يُعزّقل مشاعرك.

- نعم، هي نفس المشكلة قائمة، التقيت (هشام)، وتواصل بشكل يومي، لن أنكر أنه مؤثر في حياتي وأشعر بتشابه غريب بيننا أحياناً، أنا نسخة (هشام) في الماضي، وعندني أمل يكون هو نسختي المستقبلية.

- هل ترين أن (هشام) في نقطة تتمنى الوصول لها مستقبلاً؟

- آه... الحقيقة، رحلة تعافيه تُعجبني، لديه توازن وتسامح وقادر أن يعيش الحاضر بعدما عالج شوائب الماضي. أيضاً له تجربة مع أبٍ نرجسيّ، واستطاع أن يتعافى منها، وهذا مسّني بقوة. وبخلاف ذلك تلامسه مع مشاعره، وأنه يعرف متى ولمن يضع حواجزه أو ينزعها، على الرغم من كونه انطوائياً فإنه جريء في نظري، مش لدرجة الإبهار، وهذا أفضل؛ لأنّ المبهرين مرعبون بالنسبة لي. هو عموماً شخص طبيعي، لديه ذكاء عاطفي بجانب ذكائه العقلي، وهذا نادراً ما أصادفه في الناس، وغالباً أصادفه في النساء وليس الرجال. أشعر بأن وجوده في هذا التوقيت ليس صدفة، ترتيب كوني وضعه في طريقي.

- هو من الواضح طبعاً أنه مؤثر، بدليل أن شخصاً متحفظاً مثلك وفي فترة قريبة استطاع أن يكوّن معه صداقة، وأن يجعلك تتكلمين عنه.

- نعم، ولكن هذا لا يمنع أنني قلقة بقدر ما، تجاربي مع النرجسية الخفية تجعلني مرعوبة من سوء حكمي على الناس، تجربتي مع (ماري) مثلاً في اكتشافني مع الوقت أنها رغم كل هذا اللطف إلا أنها كانت نرجسية خفية أثرت في كثيرًا لدرجة أنني لم أتجرأ على إخبار أحد سواك باكتشافني.

- هذا أمر طبيعي، وعندما تلقيت تعزيتها لك في والدتك بصيغة أنها تأمل ألا تندمي الآن على ظلمك لوالدتك كان قاسياً للغاية.

- قايِس لدرجة أنني دفنته بقلبي ولم أخبر به أحدًا!

- أنتفهم ذلك يا مها، المهم ألا يكون الخوف عائقًا للتعامل مع الناس واكتشافهم.

- وهذا هو ما أحتاج إلى أن أتكلم معك عنه اليوم، كوني شخصًا يتجنب الألم، يجعلني أميل لترك الأمور كلها خوفًا من التعرُّض لإساءة. وفي الوقت ذاته لأن التلاعب بات جزءًا من حياة الناس، فأرى أنه يجب أن أحتفظ بدرجة من الحرص. كيف أمحو الجزء الخائف دون أن أتعرض لأذى.

- كي نكون متفقيين، لا يوجد شيء اسمه دون أن أتعرض لأذى؛ الأذى جزء من كونك حيَّة، ومهما بدا مخيفًا لكنه مهم وإلا تحولنا لروبوتات. قبورك لأنك قد تتعرضي لأذى في الرحلة جزء من نُضجك، ولا يوجد تطور دون تقبُّل المخاطرة. إذا كنتِ تريدين البقاء في المنطقة الآمنة؛ فهذا حقُّك، لكن المنطقة الآمنة لا تخلُق تطورًا؛ لأنك لن تتحركي منها. أنا أرى بالفعل أنك تركت أجزاء من الخوف، ومنذ فترة بالمناسبة، حتى لو كنتِ لا تترين ذلك، لم نتحدث عن هذا الأمر الفترة الماضية، لكن لا ينبغي أنه حدث. الجزء الباقي الذي يسبب لك إزعاجًا، يعتمد على مدى تقبُّلك لأن تفارقي المنطقة الآمنة، وتخوضي في الحياة متقبِّلة كل جوانبها. رحلة التعافي ليست بلا مقابل، لكنها تستحق. لقد أثبتتِ لنفسك أنك قادرة. إصرارك على العلاج لسنوات، وعزيمتك على مداواة الطفلة المجروحة التي بداخلك، أو سلوكك إلى هذه النقطة اليوم. مها، لقد قطعتِ مسافة كبيرة، حين تعلمتِ أن تردي على صوت أمك داخلك فهذا إنجاز، أنا مُدركة أن هناك أوقاتًا يكون هذا الأمر صعبًا، لكن مع الوقت والمواظبة سنحل الصعوبات كافة، والخوف الشديد لن يكون له مكان بداخلك. ستخافين مثل أي إنسان طبيعي، لكن الخوف لن يسكن قلبك، سيصبح شعورًا مثل أي شعور يأتي ويذهب. لقد تعلمتِ مع طبيبك السابق أن تُقدري قيمة نفسك، وثُسكتي صوتها الذي يقول إنك لا تستحقين. ومع الوقت سيتراجع بداخلك أي شعور بعدم الاستحقاق. الجروح سيبقى مكانها ندبات، لكنها ستكون جروحًا نظيفة مقفولة، قد تؤلم أحيانًا إذا داسها أحد، لكن ستظل مُلتئمة ما دُمنّا طهرناها بشكل صحيح. وأنتِ يا مها ستستطيعين برؤية الفنان

الذي بداخلك أن ترسمي عليها أيضًا وتُبدعي. ستحولين الندبة إلى عمل فني كعادتك. أنا واثقة في قدراتك.

- ممتنة لهذه الثقة. أفهم كلامك وأعرفه، أشعر بأنني أستحق أن أعيش بشكل جيد وأنال حقي من الحياة، أنا مُصرّة أن أكمل وأتعافى، أنا أستحق.

- سعيدة أن أسمعها منك، (أنا أستحق)، تستحقين فعلاً، أتعلمين، رغم الألم النابع من كون الأم نرجسية، إلا أنه دائماً الطفل المنبوز منها يصبح مثل اللآلئ. شخصيته تكون فريدة ومميزة، ولديه ذكاء عاطفي، ومهاراته الحياتية قوية. ذكي ومتفهم ولديه إحساس أكثر من غيره بالآخرين كونه يتدرّب من صغره على رعاية نفسه والشعور باحتياجاتها وتلبيته لذلك قبل أن يُطلب منه؛ ولكونه يحاول أن يثبت نفسه طول الوقت ويدرب نفسه على أمور صعبة دون مساعدة أو توجيه منها في سن صغيرة، يستمع إلى لوم أو نقد أو إساءة، ورغم ذلك يثابر ويعاقر ليكسب ودّها ويحقق لها ما يبدو أنها بحاجة إليه. كل هذه الأمور ينتج عنه خليط رائع مثل شخصيتك يا مها، سأنتظرك في المجموعة العلاجية. في نفس المعاد والمكان؛ لأن للأسف وقتنا انتهى. أنتظر أن أسمع منك أخبارك في الجلسة المقبلة وأنا واثقة في قدراتك على التعامل مع خوفك.

قلت لها في أثناء نهوضي مبتسمة:

- حاضر، سأشرفك.

فقلت ضاحكة:

- والله واثقة من ذلك.

ألقيت عليها التحية، وخرجت سريعاً من العيادة، ثم مشيتُ حتى سيارتي متأملاًً واجهات المحلات، رغم أنني عادةً أسير في طريقي بلا التفات للمحلات إلا عندما أريد شراء شيء ما. قررتُ أن أشتري حذاءً جديداً.. وقد كان.

عدتُ إلى السيارة فَرِحَةً بالحذاء، وألقيت بشنطتي في المقعد الأمامي. وما إن أدرتُ
السيارة حتى رنَّ هاتفي. كان المتصل (هشام).

- هل عطَّلتِك؟

- أبدأ، للتو انتهت جلستي، واشتريت بعض الأشياء وسأعود للمنزل.

- حسناً، ركّزي في طريقك ولنتحدث حين تصلين للمنزل.

- سأضع السماعة. احكِ لي، هل أنهيت مشاويرك التي كانت تزعجك؟

- أنجزتها الحمد لله. حتى البنك لم يستغرق وقتاً. حطّي حلو، والفرع لم يكن مزدحمًا.

- جميل جدًّا. الآن أصبحت متفرغًا لإكمال سيناريو المسلسل.

- نعم، كانت رأسي مشغولة طوال الأسبوع. أكره المشاوير التي سأعاني فيها الطوابير
والزحمة، لكن الأمور مرّت بسلام.

- أنا أيضًا أفرغتُ ما بداخلي من كلمات في الجلسة، وبات مزاجي معتدلاً لإكمال العمل.

- شعور ما بعد الجلسات هذا أعرفه، حطّي جيد أن مزاجك رائق، أحياناً تكون الجلسة
ثقيلة، تخرج منها تواصل التفكير.

- آه فعلاً. بعض الأوقات كنت أشعر بثقل بعد الجلسة، لكنني منذ فترة أشعر براحة بعد
الجلسات.

- كلما تقدمت في العلاج ستشعرين بخفة وراحة، المراحل الأولى هي أصعب مراحل. فتح
الجرح من أجل تنظيفه يستغرق وقتاً. بعد التطهير، كل شيء يصبح أسهل.

- هذا صحيح. لم أكن أتخيّل وأنا في البداية أنني سأتحسن مثلما أنا عليه اليوم، أصبحت شخصاً آخر حرفياً.

- حسناً. هل وقتك يسمح أن نفطر معاً هذا الأسبوع؟ سأترك لك تحديد اليوم المناسب بنفسك.

- موافقة، الثلاثاء مناسب. وسأرتّب أموري، وأحاول أن أنهى عملي كله أولاً بأول.

- اتفقنا. ولا تنسي أن تضعي اللمسات الأخيرة التي قلتِ عليها على الغلاف. نريد أن نطبع الكتاب يا فنانة.

- حاضر، سأعمل عليه وأسلمه لك قبل الثلاثاء.

- اتفقنا. سأتركك الآن وأنزل لتناول العشاء مع أمي.

- بالهناء، إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

الفصل الثامن

«الشخص السوي يعاني العزلة في المجتمع غير السوي، وقد يؤدي عجزه عن التواصل إلى إمرضه نفسيًا؛ فالمجتمع المريض لا يتسامح مع الأصحاء».

إيريك فروم.

١

صباح الإثنين، استيقظت مُبكرًا شاعرةً بالحماس. نمثُ لأول مرة منذ وقت طويل دون أن تأتيني أحلام مزعجة. حُوصرت كثيرًا بكوابيس الماضي، حتى كنتُ أستيقظ عاجزةً لوهلةٍ عن التفرقة بينها وبين الوقت الحالي.

انتهيتُ من طقوس الصباح، وأخذتُ قهوتي إلى الشرفة. استمتعت برائحة القهوة قبل أن أتذوّقها كعادتي، وشعرت بالانتعاش. وضعت السماعات في أذني، وقمت بتشغيل بعض المقطوعات الكلاسيكية، وبدأت أفكر.

ما الذي يستحق في هذه الحياة القصيرة أن نشعر بالنعاسة لأجله؟!

نعم، من الطبيعي أن نُولدَ لأمهاتٍ يُشعرننا بالحب والثقة والأمان، لكن ماذا إن لم نجد منهنّ ذلك؟ هل نتعطل بقيّة العمر ونعجز عن المُضيّ قدمًا، أم نكافح ونكون أمهات لأنفسنا، ونربت على أرواحنا التي طال تألمها حتى تشعر بالسكينة والاطمئنان؟

أعلم جيدًا أن ترددي على العلاج النفسي -طوال عمري تقريبًا- كان لرغبتني الشديدة في التعافي والنجاة. لكن أما أنّ الأوان لأن أحول بين الماضي والحاضر حتى أحياء؟! ما الذي يؤخّرني كلّ هذا الوقت؟!

تردد صوت (هشام) في أذني وهو يتحدث عن التسامح؛ إذ قال لي في مكالمة سابقة إنه حين سامح والده منذ عهد بعيد، استطاع أن يزيح من على قلبه عبئًا كبيرًا، وأسهم ذلك في تعافيه. وهذا هو الشيء الوحيد الذي لم أجربه من قبل في رحلة علاجي من أذى (زهرة)، ليس لغلظة قلبي أو لعدم رغبتي في المسامحة، ولكن لأنه أمر في غاية الصعوبة؛ أن تسامح شخصًا عاش لآخر عمره يمارس الأذى بحقك دون مراجعة نفسه، أو حتى الاعتذار. أخبرني دكتور وائل -رحمه الله- في بداية جلساتنا أن السر الشافي للتعافي هو القدرة على العفو والتجاوز. وقتها أفزعني الفكرة. كيف لي أن أسامح من لم تتوان عن تمزيقي وأنا طفلة عاجزة عن الإدراك، وأكبر رغباتي هي أن تضمّني وتخبرني أنني أستحق الحب؟! حاليًا، لم تبد لي الفكرة سيئة أو مخيفة. بالعكس، شعرت بالراحة بمجرد أن فكرت في ذلك. أريد أن أتحرر مما يثقل قلبي. رؤيتي لما أصبح عليه (هشام) بعد تحريره لقلبه ومسامحته لوالده جعلتني مطمئنة لتلك الفكرة. تصالحه مع نفسه يظهر على وجهه وكلامه وأفكاره وسرده لتفاصيل ذلك، وكيف تدرج به على مدار مكالماتنا أو لقاءاتنا. لقد ترك في نفسي أثرًا كبيرًا.

الآن على التركيز على مواجهة ذكرياتي المؤلمة التي تباغتني دون سابق إنذار أحيانًا حتى أصبحت جزءًا من تكويني. أريد أن أتسلح لها وأستعد. المسامحة قرار كالسعادة. لكن حتى أصل إلى أرضي الصلبة -فيما يخص تلك المشاعر- أريد أن أحارب جميع أصواتي الداخلية التي تذكّرني بالألم. أريد أن أطمئن الطفلة التي تقبع بداخلي وتشعر باليئس. أريد أن أكون أمًا حقيقية لها، وأن أشعرها بالثقة والأمان؛ فهي تستحق. أنا أصدق أنها تستحق، وأؤمن بها. سأحبها وأدعمها حتى تتعلم أن تتجاوز الألم وتتسامح وتشعر بما تستحقه أخيرًا.

عند هذا الحد ابتسمت ونهضت لإحضار أشياءي، وشرعت في العمل سعيدة بما وصلت إليه.

صباح الثلاثاء، توقفت بسيارتي أمام مكان لقائي مع (هشام). وصلت في مواعيدي، ولمحته جالسًا من وراء الزجاج، يقوم بالتدوين في مجموعة من الأوراق.

ابتسم عندما شعر باقترابي من كرسيه، وقال:

- يعجبني فيك احترام المواعيد.

فسألته وأنا أجلس:

- ماذا تكتب؟

أجابني وهو يعتدل في جلسته:

- مجموعة أفكار كي لا أنساها. أحب أن أسجل سريعًا أيَّ فكرة تطرأ على ذهني قد تصلح للكتابة.

- مننَّظم؟

- لا، لست مُنظَّمًا، لكنني غير مُهمل. شخص عادي، لا أبالغ في النظام ولست مُهملاً.

- جميل.. أفضل من هوس النظام الذي أعانيه.

- من الممكن أن تستغليه لصالحك إذا كان يسبب لك إزعاجًا. يمكنك أن تعرضي خدماتك لتنظيم أوراق الناس ومكاتبهم مثلاً، والهوس يتحوّل لعمل مُربح.

- فكرة جميلة جدًّا، ولكن هل تظن أن هذه الأفكار تنجح في مجتمعنا؟! أفكار غريبة شوية وتنجح معهم هناك. هنا يكون الموضوع غريبًا.

- المفترض أن شخصية مثلك لن يهتما نظرة المجتمع لعمله، ولديك مقومات إنجاح أي عمل.

شردت مع كلمات (هشام). رغم قصر المدة التي قضيناها معًا، إلا أنه بات يعرف الكثير عني، ويثق في قدراتي ويدعمني.

قاطع شرودي صوته الهادئ وهو يقول:

- سرحت مع أفكارك، وكنت قد توقفت عن هذا الأمر في أثناء حديثنا، ممكن أن تشاركيني ما تفكرين به إذا أردت أو تخبريني إن كان هناك شيء أزعجك.

- لا أبداً، لا شيء يزعجني، كنت أفكر بكلامك الممتلئ بالثقة عني.

قال بجدية شديدة:

- أنت إنسانة واضحة ومباشرة. أقول لك ذلك من واقع خبرتي وتجاربي. إنسانة مؤثرة ومجتهدة، ولديك مقومات نجاح هائلة، وأنا سعيد بإتاحة الفرصة لي لمعرفةك. أعتبر صدفة لقائي بك، ترتيباً قَدَرِيًّا وليس مجرد صدفة. كنت أحتاج إلى التأكد أن امرأة مثلك لها وجود. مثقفة، حديثك ممتع ولا أمل منه. مها، امنحيني فرصة أن أكون في حياتك بشكل أكبر. أخشى أن أقول لك إنني أريد أن أخطبك فتتركيني وتمضي! أنا لمست خوفك من الناس، وخوفك من القرب، ولكن سأقول لك: خذي وقتك في معرفتي، وحين تشعرين بالاطمئنان لي ولمشاعرك تجاهي سأكون سعيداً. مشاعري قوية تجاهك، ولن أتحدث عنها كي لا تخافي، ما أتمناه أن تصدقيني وتثقي بي مع الوقت، خُذي وقتك في التفكير. لسْتُ مهتماً أن أسمع الرد حالاً قدر ما يهمني أن تطمئني لي.

ساد الصمت لدقيقة تقريباً، مرّت كالدهر. كان رأسي يعمل بشكلٍ سريعٍ متتالٍ. مزيج من الارتياح والسعادة والخوف والقلق والدهشة. مشاعر مختلطة تدور برأسي، وقلبي يدق سريعاً، وفي أثناء ذلك لم تبرح عيناه عيني، بمزيجٍ من الأمل المحفوف بالقلق من رد فعلي.

أضاف (هشام) بنبرة صوته المطمئنة، رغم القلق البادي في عينيه:

- هل تريدان أن تنصرفي؟ لن أغضب.

قلت بنبرة هادئة:

- موافقة.

فقال متعجبًا:

- موافقة أن تمنحيني الفرصة؟!

ابتسمت وقلت:

- آه موافقة. أنا فعلاً أشعر بارتياح معك، وهذا لم يحدث لي من قبل في وقت سريع هكذا. لن أقول لك: إنني لستُ خائفة، أنا في مرحلة من حياتي أحتاج فيها إلى أن أحارب خوفاً. أنا مُرتاحة معك ولا أخاف منك، كونك جيداً أو سيئاً فهذا أمر ستكشفه الأيام، ولن أعرف إلا بالتجربة، أنا أميلُ إليك صراحةً وأرتاح لك، لا خطوبة الآن، نأخذ الوقت والفرصة لنعرف بعضنا أكثر فأكثر، ولكن لي طلب واحد أتمنى أن تقبله.

قال بجديّة:

- أوْمري.

- لديّ عُقدة من الكذب، وأحب الصراحة حتى ولو كان ثمنها أغلى ما عندي. أرجوك كن صريحاً وواضحاً معي، ووقتها سأظل أحترمك وأُكِنُّ لك كل خير حتى لو لم نتفق بعد ذلك.

قال مبتسماً:

- هذا حقُّك بالطبع، وستشاهدين بنفسك طبعي الصريح والمباشر، مها، أنا ممن يعتبرون الوضوح أسهل وأصعب شيء في نفس الوقت. الناس تخاف منه؛ لأنه يجعل الشخص عارياً، لكن أنا لا أخشى عيوبِي. أنا إنسان، وبي مساوي أو نواقص لن أحاول أن أداريها، ما أستطيع فعله ألا يصدر مني أي سلوك يضايقك، سأحاول مُعالجة عيوبِي كي لا تزعجك. وأنتِ شخص واضح ومتفهم، ولديك من النضج النفسي ما يجعلك تتفهمين أنني لست

ملاگًا، سأتعاون معك لنصل لنقطة تفاهم تجعلنا نستمر لأن رغبتني حقيقة في الاستمرار معك.

- كل ما قلته مناسب. أول مرة تقريبًا أسمع من رجل! لكن هذا ليس غريبًا عليك يا (هشام)، توَسَّمت فيك النضج والوضوح، وأتمنى أن تسيّر الأمور بهذا الأسلوب فعلاً، لكن استعد، فربما رأيت في جوانب جديدة تجعلك تُغيّر رأيك.

- وأنا واثق في أن لديك أجزاء كثيرة لم أرها بعد، وأنت أيضًا لم تشاهدي كل جوانب شخصيتي. هي مُغامرة النسبة فيها خمسون إلى خمسين. أنا أعلم أن أي شيء جميل محفوف بالمخاطر غالبًا. وأكد أنك تعلمين ذلك. أكثر الأشياء وضوحًا بالنسبة لي الآن أنك لا تبحثين عن مُنقذ؛ لأنني منقذ قديم وأفهم جيدًا هذه المشاعر.

- ما تقوله بالنسبة لي شيء عظيم. أنا لم أكن أدخل علاقة للانسجام والاستجمام. لأ، أنا كنت أدخل لأحمل الناس على كتفي وألف بهم وأجري. ومع المثابرة والعلاج، توقفت عن الإنقاذ الحمد لله، أصبحت أفهم احتياجي إلى علاقة أطرافها متزنة، وكل طرف يحمل نفسه لا يبحث عن من يحمله. نسند بعضًا في أوقات الشدة، لكن لم أعد أمًا لأحد، ورأيت فيك مثل ما رأيتته في.

- كنتِ تلعبين مع الناس الدور الذي كنتِ تتمنين أن تجدينه منهم، مضبوط؟ أنا كنت أفعل ذلك، كنتُ أبا للكوكب تقريبًا!

- آه، غالبًا. ونسيْتُ نفسي فترة كبيرة، وهي كانت أولى بالإنقاذ من أي أحد. ومنذ فترة انتهيتُ من هذا الأمر وأركّز على أمور أخرى، مثل الخوف والانغلاق؛ الخوف الذي تملّكني فترة كبيرة من عمري، أحتاج إلى أن أُغيّر الأجزاء غير الصحية فيه. أحتاج إلى أن أعيش فعلاً وأقبل المخاطر، أتخلص من الأسوار والدروع التي تُحيط بي، قلعة محصنة أجلس فيها بمفردي، صحيح أنها حمتني كثيرًا، ولكنني دفعت ثمن ذلك. مثلما قلت أنت سابقًا،

الاستثمار الحقيقي هو استثمار الإنسان في نفسه. سأكمل العلاج لأنني أستحق حياةً جيدةً.

قال مبتسمًا بحنان:

- نعم، تستحقين حياة جيدة وكل الخير.

قلتُ شاعرةً بالخجل:

- شكرًا.

فقال ضاحكًا:

- طيب كي لا تخجلي وتتوتري سأحكي لك عن أمور لا تعرفينها عن شخصيتي.

قلتُ شاعرةً بالفضول:

- قُل.

- أنا أحب المغامرات، من الممكن أن أستيقظ من النوم مثلًا وأقول: اليوم سأتعلم الغوص، وأسافر إلى شرم الشيخ وأبدأ في ممارسته، من الممكن أيضًا أن أحب القيام بمعسكر في الصحراء، وأبحث عن وسيلة سفر للواحات، وأتمتع بالسماء والنجوم والهدوء. ممكن حاليًا أن أقول لك: هيّا نساfer لأي مكان نتناول طعامًا مختلفًا.

قال عبارته الأخيرة مبتسمًا. فقلت له:

- واضح من تصرفاتك أنك تحب الحياة، فلا أستبعد أنك مغامر.

قال مقطبًا:

- معنى كلامك أنك لم تشعرني بالمفاجأة؟

قَطَبْتُ مُدَاعِبَةً مثله وقلت:

- نعم، ولكنني سعيدة بهذا الجانب من شخصيتك.

انفرجت أساريره وقال:

- رائع. توقّعي مغامرة في أي وقت. كوني مستعدة.

ابتسمت وقلت:

- اتفقنا، أهم شيء ألا تغفل وسط مفاجآتك أن لدينا عملاً.

- لا تقلقي. أنا مُغامر ولستُ مستهتراً.

- العفو يا (هشام) باشا، أنت أبعد ما يكون عن الاستهتار.

- هل عندك مانع تتعرّفين بأمي (وزّة) حين تشعرين بأنك مستعدة؟ أُمي ودودة، وتسعد بالناس، وتحب أصدقائي وتهوى عمل عزومات لهم وتحترف معهم بأي مناسبة. ويشرفني أن تصبحي وسطنا. نحن نقيم حفلة سنوية في رأس السنة وفي كل المناسبات كي تشعر (وزّة) بالانبساط والجو الدافئ الحميمي؛ لذلك لا تترك أي عيد حتى ولو كان عيد تحرير سيناء إلا وتقوم بتحضيرات واحتفالات، سأكون سعيداً لو حضرتِ حفل رأس السنة معنا وأمي أيضاً ستسعد.

قلتُ بعد تفكير:

- عرض كريم جداً يا هشام، وممتنة له.

- خُذي وقتك في التفكير، أريدك أن تفعلي دوماً فيما يريحك.

- لا، أنا موافقة؛ دعوتك أتت في وقتها، أنا قررت أخرج من دائرة راحتني.

- أنا سعيد جدًا. اتفقنا، يوم الأربعاء المقبل سننتظرك. والبيت هو نفس العمارة المواجهة للمشتل، الدور الأول. موعد الغداء في حدود الساعة السادسة، و(وزة) ستكون سعيدة بك جدًا. ستحبك، أنا واثق. طبعًا ستجدين مروان وسارة وعدداً بسيطاً من المقربين من الأهل والأصدقاء، أقل من خمسة عشر شخصاً، صحبة دافئة، وشجرة كريسماس وزينة. ها، اتفقنا؟

- اتفقنا، لا تقلق. لكن سأتفق معك من البداية أن تسمح لي بالانصراف حين أرغب في ذلك في أي وقت.

- بالطبع. لك مطلق الحرية، وثقي في تقديري ونظرتي الموضوعية للأمور، وأنني أبداً لن أتحكم بك.

تنقّست الصُعداء وقلت:

- كلام رائع ومريح، وأنت أيضاً يا (هشام)، سأكون سعيدة وأنا أراك تتصرف على راحتك، كلما تصرفنا على سجيّتنا سيساعدنا ذلك أن نتعرف إلى بعضنا بشكل أفضل.

- بالضبط، ولا نحتاج لأكثر من ذلك، أيّاً كان ما سيحدث.

- ما رأيك أن نذهب إلى المشتل ونجلس بجوار النيل قليلاً؟

قال متحمّساً:

- اقتراح رائع، هيّا.

جلسنا على نفس السور القديم الذي جلسْتُ عليه أول مرة، وسرحنا لبرهةٍ في مياه النيل الهادئة مع رائحة الزهور المنعشة التي تسلّت إلى أنوفنا مُشيعَةً جوّاً من البهجة والسكون.

كان الجو باردًا، فضممت معطفي، ولم أشأ أن أغلقه حتى أتمتَّع ببعض من لسعات البرد. نظر إليَّ (هشام) بعينيه ذوات النظرات المُطمئنة التي طالما شعرتُ بأنها تربت عليَّ، فشعرت بالسكينة الممزوجة بالخجل، وأكملت النظر إلى المياه مفكرة في أن ذهني رائق، ولم أنشغل بأي أفكار منهمرة كعادتي كلما تأملت. وشعرت بأنها إشارة جيدة لكوني مطمئنًا بحق. وقاطع شرودي صوت (هشام) متسائلًا:

- منذ الطفولة كنت أحب الجلوس في المشتل، وأثير المشكلات مع أسرتي ليتركوني أنزل للجلوس به؛ لأنني كنت أطلب النزول كثيرًا، لدرجة أنني كنت أقول لهم إنني سأنزل أذاكر به من كثرة ارتباطي بالنيل والزرع والسماء.

- كنت طفلًا حاليًا وما زلت. لو كنت مكانك لفعلت مثلك. صحيح أنه كان لديَّ عُقدة من النيل بسبب حلم غبي لازماني أربع سنوات دون سبب مفهوم، لكنني تغلبت على هذه العُقدة بشكل كبير، وأصبحت أستمتع بالجلوس بجوار النيل.

قال مقطَّبًا:

- أي حلم؟ يمكنك أن تحكي إن أردتِ.

- كنتُ أحلم بأنني أغرق ليلاً في النيل مع أناس لا أعرفهم، وأحاول الاستغاثة لكن الطمي والأعشاب حشروا بطني.

- مزعج ومؤلم أن يكون هذا واقع نومك خلال أربع سنين! وهل فعلاً لم يجد الأطباء طريقة تساعدك؟!

- الطبيب حاول بكل جهده، لكن كأنَّ الحلم كان أقوى من الجلسات والأدوية، وفي النهاية توقف ببساطة مثلما أتى ببساطة، ولا أعلم بماذا اقترن توقفه. وكان طبيبي قد تُوفي، وذهبت لـ(جيهان)، ولم أفكر في تحليل الموضوع معها؛ لأنه توقَّف.

- لا أعلم، لكنني سعيد بأنك انتهيت من هذا الحلم، ومتألم إنك مررت به. أظن أنك حاليًا لست نفس الشخص الكتوم الذي كنته، وربما يساعدك ذلك في الجزء المتعلق بالأحلام؛ لأنك ستنتفضين أولاً بأول، فلن يكون هناك تراكمات كبيرة تخلق لك حالة مزعجة مثل هذا الحلم.

- نعم، هذا اعتقادي أيضًا. وصحيح أنني غير مُستاءة من فترات عُزلتي التي أوصلتني لهذا الکتمان؛ لأنني مؤمنة أن هذا مهم لِمُحَي ونفسيّتي. وكما قال سعود السنعوسي في (ساق البامبو): «العزلة زاوية صغيرة يقف فيها المرء أمام عقله، حيث لا مفرّ من المواجهة، وعقلي كاد يضر مثل عضلة مُهمّلة، لولا إفراطي في استخدامه في أثناء عزلتي».

قال مبتسمًا:

- (ساق البامبو) من رواياتي المفضلة، وهذا الاقتباس محبّب لقلبي ونفسي، ومقتنع بصحته.

قلت بخجل:

- التشابه بيننا بيعجبني!

- ويعجبني أيضًا.. مها، أنا أحب عقلك كثيرًا. أنتِ مختلفة ومميزة وقريبة وسهلة وصعبة في نفس الوقت. عقلك يعمل، وروحك ذكية وبسيطة وقوية. روح حرّة (Free spirit) مثلما يقولون. لديك شَعْف وطموح وشفافية وإنسانة حقيقية، لستِ مزيفة ولا متكلفة.

- أنتِ تخجلني!

ابتسم وأكمل:

- متواضعة، وفي نفس الوقت مرتفعة كأنك نجمة في السماء. ومن يقترب منك يغمره نورك النابع من عقل مضيء وقلب متوهج بطاقة عطاء ودفء وحميمية. ربما لم أعرفك

منذ وقت طويل، ولكنني ألمس هذه الأمور وليست تخمينات. حين قررتُ التعرف إليك كنت أشعر بأنك مميزة، لكنني لم أتوقع أن أجد بك كل هذه السمات.

- هل كنت تشعر باليأس؟

- لا، لكن كنت وصلت لحالة مع العلاج أنني لا أريد أن أكون مع أي امرأة أو فتاة، و فقط لمجرد الاحتياج العاطفي، تعلمتُ أن الجائع يأكل أي شيء ولو من القمامة، آسف. لكن حينما تعلمت أن أعرف أين احتياجاتي وأشبع نفسي بشكل حقيقي بنفسي، أصبحت قادرًا على تمييز الحقيقي من المزيف، والحقيقي موجود بالفعل أمامي الآن وهو أنت.

- هل وضعت توقعات في البداية؟

- لم أضع توقعات، وحينما اقتربت منك ووجدت بك كل هذه المميزات، فرحت جدًا أن فترات علاجي كانت مثمرة؛ لأنني منذ فترة أختبر قدرتي على التمييز، لكن ما صادفته كان مزيّفًا وليس حقيقيًا. لم يكن ذلك يزعجني، بالعكس، كنت سعيدًا أن قدرتي على التمييز تعمل بشكل صحيح، لكن هذه المرة حينما وجدتك، سعادتني كانت أكبر؛ فأخيرًا وجدت شخصًا ذا قيمة. سعيد بك وببي وبالصدفة التي جمعتنا.

لم تفارق الابتسامة وجهي في أثناء حديث (هشام). كنت كالمخدّرة من السعادة والراحة.

- يا هشام، فكرة أنّ شخصًا ما يحبُّ عقلي ويراه قبل أن يرى أي شيء آخر فيّ، كان شيئًا أجمل من كل توقعاتي في الحياة. أن يكون عقلي مرئيًا قبل جسدي، وقعه رائع على روعي وقلبي وعقلي. وعقلك أيضًا من اجتذبتني كالمغناطيس؛ فأنت لا تحاول إبھاري كعادة الرجال، ولا تستعرض قدراتك وأموالك أو نفوذك أو أي شيء مثلما يفعل الرجال عادةً لجذب السيدات. بسيط وواضح وصريح وذكي ومتّقد ودافئ.

- كلامك يجعلني أشعر بفخر، والابتسامة على وجهك تجعلني سعيدًا منتشيًا.

- وكلامك أثر في أيضًا، بالطبع أنت كاتب وجزفتك الكلام، لكنه مسّ قلبي؛ لأنه من قلبك، أنت يا (هشام) على الرغم من بساطتك ووضوحك فإن عقلك المستنير مع قلبك الدافئ، صنعوا تكويئًا مختلفًا، أنا أيضًا لم ألتق شخصًا مثلك، ومن يدعون أمورًا ليست فيهم كنت قادرة على كشفهم؛ لأن هناك علامات دائمًا مهما أتقن الشخص التمثيل. وأنا ماهرة في كشف العلامات ولو كانت لو نقطة في بحر، أنا أيضًا سعيدة بك وبي.

- الله على...

بتر هشام جملته عندما قاطعنا صوت (عم إبراهيم) قائلاً:

- كيف أحوالك يا أستاذ هشام؟

قال مستديرًا:

- عم إبراهيم، كيف أحوالك؟ طرقت الباب عليك صباحًا ولم تفتح، توقعت أنك ذهبت لإحضار إفطار.

قال عم إبراهيم:

- كنت أصلي الضحى، وحينما فرغت لم أجده على الباب.

- تقبل الله منك. أريد أن أعرفك بـ(مها) يا عم إبراهيم، وأي وقت تريد أن ترى فيه المشتل، بعد إذنك طبعًا، اسمح لها بالدخول.

قال عبارته الأخيرة، وهو يربت على كتف عم إبراهيم، فشعرت بمدى قرب هشام منه، وحبّه له. وقال عم إبراهيم مرحبًا:

- اطمئن تمامًا، أتذكرها طبعًا. وجّهها مثل البدر لا ينسى.

فقال (هشام) ضاحكًا:

- يا عم إبراهيم! ستغازلها أيضًا؟

فقال مستنكرًا:

- إنها مثل ابنتي، ربنا الشاهد.

- يا عم إبراهيم، أمازحك فقط، ألم تفهم أنه مزاح رغم أنك تجلس معي أكثر مما كنت
أجلس مع أبي؟!

فقال عم إبراهيم مطرفًا:

- الله يرحمه يا بني.

- الله يرحمه يا عم إبراهيم. خلاص لا داعي لهذه السيرة، أعلم أنك كنت تحبه. المهم،
سأذهب الآن وأتركك تجلس مع نبتة الياسمين، تحدث معها كما تريد.

فقال عم إبراهيم موجَّهًا كلامه إليّ:

- تذكرني بزوجتي رحمها الله؛ كانت تحب الياسمين وتغني له. رائحة الياسمين لا تفارق
أنفي، وصوت زوجتي لا يفارق أذني.

فقلت له:

- الله يرحمها ويحسن إليها. أنا أيضًا أحب الياسمين، وأحب من يحبه يا عم إبراهيم.

- ربنا يجبر بخاطرِك.

قال هشام:

- إذن أصبحتوا أصدقاء، جميل جدًا. سأصرف الآن يا عم إبراهيم، إذا أردت شيئًا اتصل بي وسأحضر لك فورًا.

- حسنًا يا بني، الله معك.

خرجنا من المشتل، وسيرنا بمحاذاة الكورنيش هادئين حتى وصلنا إلى سيارتي، فالتفت إليّ هشام وقال:

- سأقول لك للمرة المليون إنني سعيد اليوم.

- وأنا أيضًا سعيدة، نقولها مليون مرة. الفرح حلو، والتعبير عنه حلو! أنا زهقت صراحة من التعبير عن الأسي، وأنّ الأوان أن أُغَيَّر.

قلت عبارتي الأخيرة ضاحكة، فقال هشام:

- وأنا أيضًا. بالمناسبة، كتاباتي كئيبة، وكتابي المقبل سيتضمن أحداثًا سعيدة بمناسبة سعادتني في هذه الفترة.

- أنتظره بفارغ الصبر. أنتظر أولاً قراءة الكتاب الذي سيطلع قريبًا، ثم أبدأ في التالي.

- إنه في المطبعة، وتصميمك أضاف له الكثير، أول نسخة ستكون لك، ويهمني رأيك جدًا.

- سوف أقول لك رأيي بصراحة. مؤكد أنك عرفت أنني صريحة إلى حد الغباء.

- صراحتك من مميزاتك بالمناسبة.

- جميل أنك تراها ميزة.

- آه طبعًا بالنسبة لي ميزة. الوضوح والكلام دون تورية مناسب لي جدًا.

- اتفقنا. سأذهب إلى المنزل، وعلى موعدنا يوم الأربعاء.

- حسنًا. وتمهلي في القيادة، كنت أسير خلفك منبهراً ومرعوباً في نفس الوقت من السرعة والحركات المفاجئة!

- من هواياتي القيادة بسرعة؛ أشعر كأنني أفرد جناحتي وأطير، أعلم أن ذلك شيء خطر، لكن بداخلي جزء يدمن الأدرينالين، أحاول السيطرة عليه في بعض الأوقات، وأستمتع به في بعض الأوقات. أذهب إلى الملاهي كل فترة، أعب ألعاب السرعة كي أشبع هذا الجزء وأهدأ، ولكن بلا فائدة.

- طالما في حدود المعقول فلا توجد مشكلة، لكن طبعاً لو شعرت بأنك تفعلين ذلك بدرجة تُعرض حياتك للخطر فلا بد من استشارة طبيب؛ لأنه وقتها يكون علامة وجود خلل يحتاج إلى العلاج. الأدرينالين معروف أنه هرمون القتال أو الهروب، ويفرز عادةً عند التعرض لموقف خطير أو تهديد، يزيد من ضربات القلب وسرعة وصول الدم للمخ والعضلات، ويُقلل القدرة على الشعور بالألم لمدة ساعة تقريباً من تعرضك للموقف الذي أثار الأدرينالين داخلك.

قلت مندهشة:

- أول مرة أسمع هذا الكلام، سأستشير الدكتورة جيهان. لم أكن أتخيل أن الموضوع له جذر عميق، وبكلامك بدأت أشعر بأنه مثل المخدرات. ربما أكون مستمتعةً بحالة جسمي بعد فترة وليس مجرد شعور وقتي مثلما كنت أعتقد، وربما له علاقة بمشكلاتي الأصلية.

قال بابتسامة ماكرة:

- جيد أنك شعرت بالقلق. على الأقل أضمن أنك ستقودين السيارة ببطء هذه الفترة.

قلت ضاحكةً:

- خبيث أنت! حسناً، سأقود بهدوء حتى أفهم أصل الموضوع وكيفية معالجته إذا كان مبالغاً فيه. اذهب إلى منزلك وأنا سأدخل السيارة، أشعر بالبرد.

قال وهو يفتح لي باب السيارة:

- تفضلي.

دلفت إلى السيارة، وخلعت معطفي، ووضعت شنطتي، واستعددت. أغلق لي الباب وهو يقول:

- أراك قريباً، إلى اللقاء.

لَوَحْتُ له بيدي وقلت:

- إلى اللقاء.

٢

مرَّ الأسبوع ببطء، رغم امتلائه بالعديد من المهام فإنَّ ترقُّبي للأحداث الجديدة في حياتي جعل الانتظار بطيئاً. لم يمرَّ يوم دون التحدُّث مع (هشام). كنا نتحدَّث مطولاً بعد الانتهاء من أعمالنا، ونتعرف كل شيء يخص تفاصيل حياتنا، بدايةً من الأكلات المفضلة، حتى سرد الذكريات السابقة، وكل ما يُباغت رأسنا للكلام عنه، إلى أن حلَّ يومُ الحفلة.

استيقظت صباحاً شاعرةً بالحماس، وقررتُ أن أنجز كلَّ ما أستطيع إنجازه حتى يتسنى لي إكمال اليوم دون محادثات مع العملاء، كما أريد أن أحظى بنهاية أسبوع هادئة دون عمل. لربما أسافر إلى الإسكندرية أنا و(إنجي) و(ليلى) التي سوف تكون في القاهرة غداً صباحاً أخيراً، كي نُمضي بداية العام الجديد هناك.

أشعر بأنني أستحق مكافأة على إنجاز هذا العام.

أنهكت في عملي كثيرًا، وحققت الكثير، وأشعر بالرضا، وشيء رائع أن أخذ راحة لعقلي وجسدي. ما أجمل المكافآت! لم أكن أحصل عليها تقريبًا طوال حياتي، فلم لا أبدأ أنا بمكافأة نفسي بين كل حين وآخر؟!

مرّ الوقت سريعًا، وأنجزت كلّ ما أردته تقريبًا، فوقفت أمام دولابي أنتقي ملابس تلائم المناسبة. أخرجت فستانًا زيتي اللون مطرّزًا من الأطراف بوردات صغيرة من الكروشيه بألوان هادئة، واخترت معطفًا بلون القهوة بالحليب، وحذاء ذا رقبة طويلة، وشنطة بنفس لون المعطف، وبدأت في هندمة خصلات شعري الثائرة، وقرّرت أن أتركه ينثال على كتفي ووجهي.

انتهيت من ارتداء ملابسني، وتحدّثت إلى (هشام) لأخبره بأنني سأكون في طريقي إليهم في خلال دقائق.

رَننْتُ الجرس، ووقفت بعيدة في انتظار أن يفتح هشام الباب. فتحت لي سيّدة في العقد السابع من العمر، وجهها صَبوح، عاقدة شعرها بطريقة بسيطة، مبتسمة ابتسامة مُطمئنة كابتسامة (هشام)، فعرفت من أين وِرت تلك الابتسامة الرائعة. وكان يقف بجوارها (هشام) يبتسم بجَدَلٍ طفوليٍّ محبّبٍ إلى النفس.

- مساء الخير. كيف حال حضرتك؟

قالت (وَرّة) بنفس الابتسامة:

- أهلاً يا مها، مساء النور، تفضّلي.

وقال هشام بنفس الجَدَل:

- تفضلي يا مها نورتي الدنيا.

دلفت إلى الشقة بمزيج من الخجل والتوجُّس، واتبعت إشارتهما إلى غرفة الجلوس. وجدت سيدةً يحمل وجهها الكثير من الشبه بـ (وزة). بادرتُ بالابتسام والترحيب. كانت مستغرقةً في النظر إلى هاتفها عندما دخلنا، ثم تركته واعتدلت مرحبةً بي بحفاوة. جلسنا جميعًا، وعمت هممة الترحيب المغموسة بابتساماتٍ ودودةٍ من الجميع.

قالت (وزة):

- هذه مروة أختي الصغيرة يا مها.

غمغمتُ بردٌ قصيرٍ مُبهمٍ؛ إذ كنتُ لا أزال في مرحلة الخجل والارتباك. لاحظوا جميعًا خجلي، فأشاحوا بوجههم إلى جهاتٍ مختلفة، وبدءوا في تبادل الحديث عن الطعام والأصدقاء الذين سيأتون، بينما عدلتُ أنا موضع قدمي للمرة الخامسة في دقيقتين!

قالت (وزة):

- شرفتنا بزيارتك يا مها، سمعتُ عنك، وتمنيثُ أن أراك، مثلما وصفك (هشام) بالضبط، وصف روحك وإطالاتك وشكلك بالتمام.

- تسلمي، البيت منور ببيكم و...

بترتُ كلامي عندما أطلتُ شابٌ برأسه من باب الغرفة وهو يصيح ضاحكًا:

- إيبيبيبيه، تناولتم الطعام؟

- اهدأ يا مروان، مها أتت، ولا نريد أن نفزعها من أول مرة. امنحها فرصة اكتشاف أنك مجنون.

فقال مروان:

- أهلاً يا مها، كيف أحوالك؟ أتمنى أن تكوني بخير. أنا شقيقه للأسف، وكما ترين يحترمني جداً!

قلت مبتسمة:

- أهلاً يا مروان، تشرفت بك. واضح أنكم تحبون مشاكسة بعضكم البعض.

فقلت (وَزَّة) ضاحكةً:

- هيا يا مروان، اتصل بدينا ومحسن؛ لأن موعد الأكل اقترب، وأنت يا هشام اتصل بسارة وزوجها لأنهم تأخروا، اتصلي يا مروة من فضلك بشادية وزينب وقولي لهما إنهما خذلاني؛ لأنني كنت أنتظر أن يساعداني في إعداد الحلوى؛ فقد كنتُ أظنهما صديقتي العمر!

- ولماذا لم تطلي مني أن أتصل بأحمد وزوجته؟

أجابته (وَزَّة) في أثناء وقوفها فاردةً ذراعيها:

- لأن نيللي كلمتني صباحًا وقالت إنهم سيحضرون في تمام السادسة.

- يستحيل أن تُخطئي أبدًا.

- اسأل مها ماذا تحب أن تشرب، وسأذهب للإشراف على الطعام في المطبخ، بعد إذنك يا مها، أرجو منك أن تتصرفي وكأنك في بيتك، سيسعدني ذلك، وأتمنى أن تسعدي معنا.

- شكرًا لك، دعيني أعتاد المكان مع الوقت، إذا احتجت مني مساعدة في شيء أبلغيني.

- سأبلغك طبعًا إذا احتجت مساعدتك، ولكن على هشام ومروان أن يكملوا المهام المطلوبة منهما، في منزلنا الرجال يساعدون أيضًا في الأعمال المنزلية، لا مكان للدع أو الراحة، كل شخص له دور ومسئولية، لسنا في فندق.

ابتسمت وأنا أقول لها:

- الله! نفتقد مثل هذه الأمور في مجتمعنا، أنا سعيدة بأسرتكم الرائعة.

- وأنا سعيدة بك جدًا جدًا، اسمحي لي أن أذهب.

- اتفضلي.

ثم شرع كل منهم في القيام بمحادثة رفاقه وأقاربه، وجلس هشام في مواجهتي صامتًا مبتسمًا.

- ألن تذهب للاتصال بسارة؟

- سأتصل بها.

أمسك هاتفه. وما إن رفعه إلى أذنه، حتى رن جرس الباب، فاستأذني للقيام، وسمعت صوت الترحيب الآتي من على باب المنزل. صوت أطفال يركضون، وما لبثوا أن وصلوا إلى الغرفة التي كنت أجلس فيها، فتوقفوا عندما وجدوني جالسة، فجاء هشام من ورائهم وفي ظهره سارة وزوجها.

- يا مها، هذه سارة، أطيّب أخت في الكوكب، وزوجها آدم صديقي العزيز.

قالت سارة وهي تمد يدها لمصافحتي:

- أهلاً يا مها، كيف أحوالك، سعداء بوجودك.

صافح بعضنا بعضًا، وبعد كلمات الترحيب، عرّفتني بطفليها يوسف وهنا. طفلان في السادسة من العمر، توءم كما علّمت من هشام سابقًا. وجلسنا جميعًا، لكن سارة استأذنت في الذهاب لإلقاء السلام على باقي أفراد الأسرة.

في غضون نصف ساعة، حضر باقي الأصدقاء، أحمد وزوجته نيللي وطفلتها (لي لي) ذات العامين والنصف، وشادية وزينب أصدقاء العمر ل(وزة)، ومروة، وحضر أصدقاء مروان، دينا ومحسن، وتعرّفت بهم جميعًا، وأسعدني كونهم متقاربين، ويتميزون بدمائة الخلق والذوق في التعامل، مما أشعرتني بالراحة في أثناء تبادل الأحاديث القصيرة معهم. وسرعان ما أعدنا جميعًا المائدة، وجلسنا لتناول الغداء وسط جو دافئ يملؤه المرح، خصوصًا أن الأطفال كانوا يتصرّفون بتلقائية، ودون أن يتلقوا تعنيفًا، أو يشعر أحد بالضيّق منهم. كم تمنيتُ أن أحظى بوجبةٍ في صغري دون تعقيدات مثلما يحدث الآن، فزاد هذا من استمتاعي، وأكلتُ حتى شبعت، ولم يضايقني أحدٌ بتعليقات أنني لم أكل جيدًا أو كل ما يتلونه في أثناء الضيافة كالمعتاد، إذ كانوا جميعًا يتركون لبعضهم حرية القيام والعودة إلى المائدة، أو حتى الانتهاء سريعًا دون لوم. (وزة) كانت مهتمّة بإطعام الأطفال كلهم، وشعرت بالإعجاب تجاهها. هي تعلم أن الصغير فقط من يحتاج إلى رعاية حتى يأكل طعامه، ولا تنهك نفسها في كلام لا طائل منه تجاهي أو تجاه أولادها والأصدقاء. تحترم كون أن الجالسين جميعًا ينتمون إلى عالم الكبار، ولا يحتاجون إلى أي وصاية حتى ينتهوا من طعامهم. وكانت تحتوي الأطفال وتلاعبهم حتى يأكلوا وجبتهم، وتتمتع أمهاتهم بوجبة هائلة، بحريّة، مطمئناتٍ إلى أن (وزة) ترعى أطفالهم وتطعمهم بحبٍّ وتفانٍ.. جو لم أر مثله من قبل؛ فالحقيقة أن معظم البيوت يكون جوهاً خانقًا وكئيبيًا لكن (وزة) امرأة مميزة للغاية، وبدأت أفهم سرّ ما وصل إليه (هشام) من ذكاء ونُضج.

انتهينا جميعًا من الطعام، وكلُّ فرد تكفّل بحمل ما يخصّه من الأطباق وغسلها. كان هذا نظام (وزة) الذي جعلني أزداد إعجابًا بها؛ فهي ترى أن تقسيم العمل العادل هو ما يجعل الجميع يتمتّعون بأمسية لطيفة. وفعلاً، لم يستغرق أحدٌ وقتًا في إنهاء مهمته، وقرر (هشام) التكفل بعمل أكواب من الشاي (كي نهضم)، على حد قوله. وتبادلنا جميعًا مزحاتٍ بسيطةً، واجتمع الأطفال حول شجرة الكريسماس؛ فقد تركت لهم (وزة) مهمة إكمال التزيين، ووضعت لهم بعض الهدايا تحتها أيضًا لكي يفتحوها بعد أن ينتهوا من أكل الحلوى.

شعرت ببعض الحرية، فخرجتُ إلى الشرفة أتأمل النيل والشارع والمشتل في الظلام،
وشردتُ لثوانٍ، ثم قاطع شرودي صوت (ورّة).

- هل تسمح لي أن أقف بجانبك قليلاً؟

- بالطبع، تفضلي.

- سعيدة بك يا مها، روحك حلوة ونبهة ولسانك عذب، وتبدو عليك الثقافة، أنا مبهورة بكِ
صراحةً، وأتمنى أن تكوني قد أحببتنا مثلما أحببناكِ كي أراك مجددًا، صحبتك حلوة وأشعر
بأنني أعرفك منذ زمن.

- شكرًا لكِ. أنا أيضًا مُعجبة بكِ؛ أنت رقيقة القلب ومثقفة وذكية، لم أشعر بأنني غريبة
بينكم.

- الحمد لله. كنتُ أخشى ألا تنسجمي معنا أو تُسبّب لكِ إزعاجًا، علمت من هشام أنكِ
منطوية مثله ولا تحبين التجمعات، وكنت أمل أن شعري بالراحة في تجمعنا، علمتُ من
هشام أن شخصياتكم متقاربة وهو يحب مجالسة الضيوف الموجودين اليوم.

- فعلاً نظرتكِ في محلّها، كل الموجودين ودودون، وهذا نادرًا ما يحدث في التجمّعات.

- إذن سنزوريني مجددًا، اتفقنا؟

- طبعًا، جلستك ممتعة جدًا.

- حبيبتي. ألم أقل لكِ إن لسانك عذب؟! سأتركك الآن على راحتك وأذهب للعب الكوتشينة
مع زينب وأفوز عليها وأستفزها.

قالت جملتها الأخيرة ضاحكةً، فبادلتها الضحك، واستدارت وعادت أدراجها، وعدتُ أتطلّع
إلى النيل والمشتل، وتأمّلت كلماتها. كانت (ورّة) نموذجًا للأم الحنون الدافئة. نموذجٌ

أفقدته كثيرًا، وأثر ذلك فيّ. تذكّرت (زهرة)، وغيرتها مِنِّي في التجمُّعات والمناسبات، ونظراتها الغاضبة المنتقِدة دائماً التي لم أفهم لها سببًا. لم تكن تنظر إليّ بعين الأم كما فعلت (وِزّة)، بل كانت تنظر إليّ بعين ضرة تغار من ضرّتها! لم أكن أحظى بنظرات اهتمام أو تقدير من أعينها طوال حياتها.

أخذتُ نَفْسًا عميقًا، وتوقفت عن المقارنة، ثم بدأت في محاولة تذكير نفسي بما أنا عليه في اللحظات الحالية. (مها) هنا والآن شخص آخر تمامًا. لم أعد أُحَدِّر مشاعري كي لا أشعر بشيء. بالعكس، في رحلة علاجي تعلمتُ أن أترك نفسي دون مُسكّنات، وأن أقبَل مشاعر الألم والمرارة التي سيطرت عليّ فترة طويلة من عمري. الآن أنا أستطيع تقديم الدعم إلى مها الصغيرة، خصوصًا بعد قرار مسامحة (زهرة)، وقبَل الماضي بكل ما فيه، وأيضًا تقبَل ألا يوجد حلٌّ سحريٌّ لشفاء ندوب الماضي. فقط تقبُّلي لتلك الندوب هو سبيل استقرارٍ وراحتي النفسية. وبدأت في استرجاع إحدى جلساتي مع د. جيهان، التي طلبت مني أن أتذكّر تلك الكلمات كلما شعرت بالاضطراب:

«والدتي كانت نرجسية وأنا تعرّضت للأذى منها بشدة. نعم، حقي أن أشعر بالحزن جرّاء ذلك، وإذا أردتُ البكاء فسأبكي وأترك لعواطفِي العنان. وبعد أن أنتهي من البكاء، سأربت على كتفِي مها الصغيرة، وأطمئنّها أنني موجودة لرعايتها، وأني كبيرة وداعمة مستقرّة، وأستطيع العناية بها.»

أنا أقبل الماضي بكل ما فيه من جروح وندوب. بل سأصنع حول تلك الندوب فراشاتٍ ملوّنة؛ لأنني نظّفت جروحي بعمق، وطهّرتها. لن تزول حقًا، لكني سأستغل وجودها في صنع أشياء جميلة؛ فهذه فائدة المصائب والألم؛ أنها تُخرج أجمل ما فينا، أو أقبح ما فينا.

خطوات التعافي بداخلي ومعِي:

أولًا: أنا أعلم المشكلة.

ثانيًا: أنا أتعامل مع مشاعري، وأعترف بها، وخضتُ في مستنقع الصدمة دون إنكار، وخُضتُ أيضًا مشاعر الغضب، وتقبَّلتُ فكرة أنني لن أحصل على اعتذار.

ثالثًا: أنا أنظر بالفعل إلى ما حدث بشكل مختلف، وأتخذ قراراتي بعيدًا عن أنني كنت ضحيةً لها، وتواصلت مع حقيقتي ومشاعري، وتقبَّلت نفسي.

صوت د. جيهان يرن في أذني الآن وهي تخبرني أن (زهرة) أعطت ما تملك أن تعطيه؛ فهي كانت تملك مشاعرَ محدودةً، ولا تملك القدرة على تغييرها. وإن انفصالي النفسي عنها ساعدني في طرد الرسائل السلبية التي تلقَّيتها منها طوال حياتي، كما أنني خضتُ رحلة العلاج لأسباب متعلقة بي أيضًا، أولها: ألا أرث منها الإرث النرجسي المعروف، متمنِّلاً في سماتٍ اكتسبتها منها دون إرادتي في أثناء معاشرتي لها؛ وخضتُ رحلة العلاج أيضًا لكي أشعر بذاتي الحقيقية، التي لم أكن لأشعر بها قط لو كنت ظللت تحت سيطرة (زهرة).

في أثناء الجلسات العلاجية الأولى، لم تكن (زهرة) قد تُوفيت؛ ولذا كان عليّ بذل مجهود إضافي في العلاج؛ فهناك حيلٌ وألعاب تمارسها الأم النرجسية، أو حتى الأم التي تتسم بسمات نرجسية، ألا وهي محاولات الاسترداد، عندما تشعر بأن الابنة كبش الفداء تهرب من برائتها ومن قبضتها النفسية، سواء أكان ابتعاد الفتاة نفسيًا، وهي معها في نفس المنزل، أم جسديًا وانتقلت إلى بيت آخر بالفعل.

لذا كان الأمر أكثر صعوبة، فكان من أصعب الأعيبها عليّ، محاولة استرجاعي عاطفيًا. كانت تفرد ذراعيها على مصراعيهما، فأعتقد أنها نادمة وسوف تضمُّني، ثم ما تلبث أن تطبقهما على عنقي راغبةً في خنقي! تعشمني أنها سوف تكون لطيفة وتُشعرني بأمومة حقيقية، فأقترب، فتقوم بسكب دلوٍ من (مياه النار) على مشاعري بأي وسيلة كانت مُتاحة أمامها. لم يكن هيئًا وقتها أن أسيطر على مشاعري، وأن أظل أمامها دون أن ألبي نداء الاقتراب الحارق.

عندما توقفت عن التعلُّق بالأمل الخادع، أنها سوف تتغيَّر أو تحرَّرني بحبها، بدأت في التعافي الفعلي. لن تتغيَّر أُمِّي، وهذا شيءٌ خارج عن إرادتي. وقبولي أن علاجي إنما هو لنفسي ولن يؤثر فيها قيد أنملة، كان فارقًا معي إلى أبعد حدٍّ؛ فقد علَّمني أن أفهم احتياجاتي العاطفية تجاه الرجال أيضًا. تعلَّمت أن جزءًا من فشلي في كلِّ علاقاتي السابقة كان بسبب أنني كنت أنتظر أن يُلبِّي رجلٌ ما احتياجات مها الطفلة! وهذا شيءٌ غير صحي إطلاقًا. وهذا دفعني إلى الخوض في اختيارات خاطئة، والانغماس في علاقات غير صحية، زادت حالتني سوءًا؛ فلا أحد يستطيع تلبية احتياجات الطفولة. أنا الآن أعتد على نفسي لتلبية معظم احتياجاتي. ومتى قررت الارتباط، فسيكون ذلك لأجل علاقة صحية سليمة بعيدة عن احتياجاتي السابقة تمامًا. وسأقبل مسؤولية نفسي ومشاعري، ولن أطلب أحدًا بأن يسد فاتورتي الخاصة. لا مزيد من الشعور بعدم الاستحقاق تجاه شخص أراد أن يرتبط بي وليس بطفلي التي حرمت من أشياء لا ذنبَ له فيها.

وهذا لا ينفي أن في مرحلة الطفولة كانت كل تلك المشاعر مقبولة؛ فهي كانت وسيلتي للبقاء على قيد الحياة في ظل الحرمان من الحب، الذي كان أصعب شيء يمرُّ به طفل. لا نموُّ دون حب؛ فالمتوقَّع من طفل الأم النرجسية أن يشعر بإنكار أنها لا تحبه، وأن يستخدم كل الحيل والوسائل والمساومة أحيانًا لكسب حبها وتعاطفها، وأن يغضب عندما لا تُلبِّي له هذه الاحتياجات.

ومن أهم ما تعلَّمت في رحلة العلاج، أن الأصدقاء والأقارب الذين لا يفهمون أبعاد المشكلة، يزيدون الأمر سوءًا؛ فمن لم يُولد لأم نرجسية سيكون لديه مفهوم مُقدَّس عن الأمومة غالبًا؛ فهذه ماما التي تحبك أكثر من نفسها حتى، كيف لا تدرك حبها؟! كيف تجرؤ على قول أن ماما لا تحبك؟! لن تدرك قيمة أمك إلا عندما تموت؛ وقتها ستشعر بقيمة ما فقدت!

عند تلك الخاطرة ابتسمت. هيَّا، فلتأتوا لشنقي جميعًا، لقد ماتت، ولم يتغير شيء!

لم يفعل ذلك أحدٌ متعمدًا، والحقُّ يقال. كل تلك النصائح التي نَعَّصت حياتي كانت بحسن نية، ومحاولة للمساعدة، لكن رغم ذلك تمنيت ألا يفتح أحدٌ فاه في شيء لا يعلمه، وأن

نصح باللجوء لمتخصص إذا لم يكن لدينا خلفية عمًا يمر به أحدهم. فقط نقدّم الدعم ونصمت. لا بأس بذلك.

انتفضتُ عندما شعرتُ بيد هشام تربت على يدي بخفّة، فالتفتُ إليه مذعورة؛ فلقد انغمست في أفكارٍ حتى لم أعد أميّز أين أنا، وماذا أفعل. حتى الرؤية كنت أنظر حولي ولا أرى شيئًا!

قال (هشام) قَلْبًا:

- آسف إن كنت أخفتك، أقف بجانبك منذ فترة من الوقت ولم تشعرني بي، ناديت عليك ولم تسمعي، هل أنت على ما يرام؟

أجبتُه في أثناء استردادي لأنفاسي:

- لا بأس، أنا شردتُ بشكل مبالغ فيه ولم أشعر بما حولي، أنا في أحسن حال والموجودون هنا لطاف جدًّا، أنا التي شردتُ بشكل زائد

قال بنفس القلق البادي على وجهه:

- هل يمكنك أن تحكي لي ما شردت فيه؟ ولك مُطلق الحرية طبعًا في ألا تحكي.

- لا، بالطبع أريد أن أشاركك ما أفكّر به، معاملة والدتك الرائعة ذكرتني بأمي للأسف، وما كانت تفعله معي وما سببته لي، هذا طبيعي في حالتي، أنا سعيدة بوالدتك، لكن رأسي استدعت -بشكل تلقائي- معاملة (زهرة) معي ونبذها لي. ذكرت نفسي بكل ما مررتُ به في رحلة العلاج؛ ولذلك شردت بقوة كي أستدعي الصوت الذي يحبني ويقبلني، وكي أستمتع بالمشاعر الجميلة التي تتعامل بها والدتك.

- هذا طبيعي يا مها، ويحدث لي أحيانًا، أستدعي كل الأصوات التي اكتسبتها من العلاج لأذكّر نفسي بنفس الكلام. أنا مُدرك ووقع هذا الأمر عليك ده. أتعرفين، حين كنت وأنا صغير

أنزل للجلوس مع عم إبراهيم أو حتى وأنا كبير، كنت أتألم من كونه يعاملني معاملة أب حقيقي لابنه، في الوقت الذي يعاملني فيه أبي أسوأ معاملة، أنا متفهم مشاعرك، ومنبهر بقدرتك على ضبط مشاعرك لتستمتعي بالمشاعر الجميلة وتستقبليها، ما تفعلينه يحتاج إلى جهد وعلاج طويل، وأعلم أنك فعلت ذلك وتستفيدين منه، وهذا يزيد من إعجابي بك.

- أنت ملهم لي، لا تنس ذلك، منذ عرفتك اتخذت خطوة كانت الأخيرة تقريبًا في مشوار علاجي، التصالح مع أمي وأن أسامحها؛ كل هذا تحقق بفضلك.

- وحتى لو لم تتخذي هذه الخطوة، صدقيني ليس سهلًا أن يتسامح أحد مع هذا النوع من الأذى، ولم يكن سهلًا عليّ أيضًا.

- ليس سهلًا بالطبع؛ ولذلك لم أتعجل، ولم أضغط على نفسي كي لا أزيد الضغوط عليها، أصل أو لا أصل ليس مهمًا، المهم أنني أسير في الطريق، وفي النهاية وجدت نفسي قادرة على فعل ذلك ولم أجده صعبًا مثل كثير من الأمور التي كان من الصعب التخلص منها.

- مثل ماذا؟

- الشعور بالذنب كان من أصعب المشاعر التي استغرقت وقتًا كي أتخلص منها، مجرد أنني نشأت في مجتمع يُقدّس الأم، ولا يضع أي احتمالية لكونها بشرًا، ويمكن أن تكون مُسيئة مثل أي شخص آخر، كان يجعل كل من حولي يجلدونني إذا قلت إنها لا تحبني! لدرجة أنني حين بدأت العلاج، كنت أشعر بالذنب لأنني أقول هذا الكلام عنها.

- كنت تخشين التحدث عن ذلك عمومًا؟

- نعم، لدرجة أنني كنت أخشى أن يكرهني المعالجون! مجرد تفكيري في نفسي وحقوقتي كان يُشعرنني بالذنب. وأني لا بد أن أعيش في نُكران دائم للذات، أنا موجودة كي أرضيها وأرضي البيت كله وأصدقائي والجيران والعائلة والكوكب. لا أستحق أن أفكر في نفسي أو في أي شيء له علاقة بمصلحتي، حتى لو كان شيئًا بسيطًا كأن أتناول طعامًا يعجبني.

كانت أعاني حرفياً. ولكي أشق طريقي وأصبح كما أنا عليه، استثمرت وقتًا ومجهودًا ونقودًا، ولكن كما تقول أنت، استثمار الإنسان في نفسه لا يضاھيه شيء.

- متفهم ما تقولينه، وأعلم كم يكون الأمر صعبًا حين يحدث من الأم، لكنك اليوم أصبحت بهذا الجمال بسبب كل ما مررت به. أصبحت شخصًا متزنًا نفسيًا، تطورين نفسك باستمرار، تفكيرك مختلف ومنفرد، رؤيتك للعالم أوسع وأشمل. ربما لو لم تكن هذه أمك ولم يحدث لك كل ذلك لم تكوني لتطوري نفسك بهذه الدرجة، أنت حولت المحنة إلى منحة، وهذا لا يُقدَّر بثمن.

ناولني كوب الشاي الذي برد وهو يعرض عليّ أن يقوم بتسخينه. رفضت، وأخبرته بأنني أحب المشروبات دافئة لا ساخنة، وشكرته.

- سعيدة أنني أتحدث معك على راحتي دون أن أفكر كثيرًا. منذ فترة أحيط نفسي فقط بأناس أكون على راحتي معهم وعفوية وتلقائية، وحتى لو جلست مع غيرهم، لا أكون إلا ما أنا عليه، لأنني تعلمت أن أعتز بها وألا أغيرها من أجل أي شخص، لكن جيد أيضًا أن أشاهد بعين مثل عينك، عين متفهمة ولا تصدر أحكامًا.

قال مبتسمًا:

- أنتِ تؤكدين على حقوقك معي بهذا الكلام، ولن أعتبر معنى كلامك أنك ما زلت قلقة مني، سأعتبر أنك تطمئنين نفسك بصوت عالٍ.

- نعم، بالفعل أكلّم نفسي بصوت عالٍ، وممتنة أنني أستطيع فعل هذا أمامك.

- على راحتك تمامًا.

سمعنا بعض الأصوات تناديننا من الداخل، فدخلنا. وجدنا أن (وزة) قد جلبت كمية من الحلويات مَهولة تكفي لإصابتنا بداء السكري في ليلتها! وشرعنا نتخذ مكانين متجاورين

على الأرض بجوار المائدة. ربّعت قدمي، وكذلك فعل (هشام)، وبدأ (مروان) في مداعبتنا
بأننا نبدو كالمتسوّلين بجلستنا هذه. فقال له هشام:

- وما عيب المتسولين؟! أليسوا خلقًا؟! لا داعي للتعالي!

فقال مروان:

- أنا عُنصري، وهذا شأني وليس شأنك. كُل من حلوى (وَزّة) دون أن تزعجنا، دَع مها ترى
كيف تحب الحلويات ولا تخجل.

فقلت له سريعًا:

- لن تتغير نظرتي له يا مروان؛ لأنني أنا أيضًا مهووسة بالحلوى.

وضحكت عندما أنهيت جملتي بطفوليّة، فشرع الجميع بالضحك.

قالت (وَزّة):

- بالسعادة والهناء على قلوبكم، أما أنت يا مروان فمحروم من كعكة الشوكولاتة.

فصاح منزعجًا:

- لا، أرجوك، إلا هذه، منذ شهرين أطلب منك أن تصنعها، حسنًا، سوف أصمت تمامًا.

فقالت (وَزّة):

- هذا أفضل، فلترحمنا قليلًا، لا تترك أحدًا إلا وتشاكسه.

قالت مروة:

- يا مروان يا حبيبي، سأصمت فقط كي لا تعرف (مها) كوارثك.

فقلت شادية ضاحكة:

- لكنني لن أصمت، هل تتذكري مروان حين مات الكتكوت الذي تربيته وأنت صغير وحنطته ووضعتَه فوق دولاب والدك؟ ووالدك يدخل الغرفة يوميًا يجد رائحتها بشعة ومهما نظفها تظل الرائحة موجودة، حتى قرر ذات يوم أن يبحث عن مصدر الرائحة فوق الدولاب واكتشف الكتكوت وعاقبك لمدة أسبوع؟!

تصاعدت صيحات الجميع والضحك. ضحكت من قلبي معهم، وجلسنا نتبادل النكات والمزاح؛ كلُّ بدوره يحكي حكايات من الطفولة عن مصائب مروان، لدرجة أنه تبرَّع بحكي مصائب لم يعرفها أحد منهم من قبل.

أصبحت الساعة الثانية عشرة وثُلثًا بعد منتصف الليل، دون أن أشعر بالوقت، فقامت وتحضَّرت للنزول، واستأذنت منهم جميعًا. ودَّعوني بحب صادق، وأنا كذلك، وقامت معي (وزَّة) إلى الباب، وذهب هشام لإحضار معطفه حتى يرافقني إلى السيارة. وقالت (وزَّة):

- نريدك أن تكرري الزيارة يا مها، سأنتظرك، رقم هاتفي معك، سأرسل لك يوميًا: صباح الخير، أنا رومانسية وأرسل لأولادي صباحًا صور الورود والأزهار، أنا أحببتك وأصبح لك مكان دائم بيننا.

أنهت جملتها، واحتضنتني بحنان وقبَّلتني، فخفق قلبي من السعادة، وبادلتها الضمَّة والقُبلة. وجاء هشام مهرولًا، وبدأنا في نزول درجات السلم، وقال لي:

- أتمنى أن تكوني قضيتِ وقتًا لطيفًا معنا، وألا يكونوا أزعجوك بصوتهم العالي.

- بالعكس، أول مرة أحب الصوت العالي كده.

- فعلاً، أسعدتني جدًّا والله إذا كنت تقولين هذا الكلام من قلبك

أنهى جملته مبتسمًا بمكر طفولي محبَّب إلى النفس. فقلت ضاحكة:

- لا داعي للتذكري، أنا أعني ما أقوله، لا أحب الصوت العالي عادةً، لكنه حين يكون مصحوبًا بدفء ومحبة وفرحة يكون مبهجًا لي ومن أحب الأمور لقلبي.

وصلنا إلى سيارتي، وفتح لي الباب وهو ينظر بحنان قائلاً:

- سأقبلهم فردًا فردًا؛ لأنهم تركوا بداخلك هذه المشاعر الجميلة.

فقلت معتدلةً في جلستي:

- يستحقون ذلك، سأنضم إليكم في كل حفلاتكم وسهراتكم، احجزوا لي مكانًا في احتفالية عيد الربيع.

فقال (هشام) بأسطًا يديه بعد أن أغلق باب السيارة:

- أُمي ستختلق ألف مناسبة قبل الربيع.

- حبيبتي (وِزّة). متّعها الله بالصحة والعافية، اذهب أنت الآن وأنا سأنطلق إلى منزلي.

- قُودي السيارة بتمهل لا داعي للاستعجال، إلى اللقاء.

- سلام.

٣

كانت جلستي مع د. جيهان بعد الحفلة بيوم؛ الخميس ظهرًا. وكنت في حالة من التشوّق لسرد تلك الأحداث لها. مشاعر الفخر كانت تسيطر عليّ؛ لنجاحي في الخروج -بشكل نسبي- من قوقعتي. وتوجهت إلى العيادة في الموعد بالضبط كعادتي، وطرقْتُ الباب، ودخلتُ بعد أن أذنت لي.

قالت مُبتسمة:

- أهلاً يا مها، كيف أحوالك، ما هذه الابتسامة الرائعة؟

- ابتسامة تلميذ مجتهد أدّى واجبه.

اعتدلت في جلستها وقالت:

- احكي لي كيف كان أسبوعك؟

- العمل على ما يُرام، لا جديد فيه، التواصل الاجتماعي مع الأصدقاء والعيلة كان جيداً أيضاً، كنت أحدثهم كل يوم تقريباً بعد فترة العزلة الماضية.

- جميل، وهشام؟

- هشام قال لي صراحة إنه يريد أن يطور العلاقة لخطوبة، لكنه سيمنحني بعض الوقت؛ لأنه متفهم تخوفاتي وكي نعرف بعضنا بشكل أكبر.

- هل أزعجك ذلك؟

- لا بالعكس، أشعر تجاهه بمشاعر جميلة. عزمي على حفلة الكريسماس في بيت أهله، وكانوا في غاية اللطف، ولأول مرة منذ فترة أشعر بالدفء في اجتماع عائلي. والدته أم حقيقية، وهذا جعلني أتذكر أُمي، وكدتُ أن أصبح في مزاج سيئ لكنني استرجعت كل الخطوات مثل ما اتفقنا.

- استرجاعك للخطوات مهم ويوقف الأصوات المزعجة بداخلك.

- بالفعل هذا ما حَدَثَ، وكانت النتيجة جيدة، واستمتعت بالمشاعر. تركت نفسي على سجيتها وهذا كان إيجابياً.

- هل تشعرين بأن الخوف هداً تجاه هشام؟

- نعم، ولحديثنا اليومي أثر ساحر في نفسي، نناقش في كل شيء، مثقف وأجد في كلامه صدقاً لكلامي واهتماماتي. أشعر بأنني مستعدة لأن أكون في علاقة ولست مرعوبة من ذلك مثل المرات السابقة؛ لأنه شخص آمن كما يبدو حتى الآن، كما أنه يعاملني كإنسان، فمعاملته ليست معاملة رجل لسيدة؛ وهذا يجعلني أرى تفكيره مختلفاً ومتطوراً عن تفكير المجتمع.

- جيد. أريد أن نتكلم في موضوع والدة هشام بالتفصيل قليلاً، هل انزعجت من أنها أم جيدة؟ هل خفت من أنها نموذج غير الذي اعتدت عليه؟ هل أصابك القلق أن ذلك قد يجعل (هشام) لا يستوعب ما عانيته رغم ما يظهره من تفهم؟ أم أنه ضغط على إحساسك بالحرمان؟

- لا أظن أنني أصابني القلق من أن يفهم هشام مشاعري، انزعاجي حَدَثَ لأنني قارنتُ بين بينها وبين (زهرة)، جزء من القلق هو خشيتي ألا أتمكن من التعامل معها؛ لأنها جيدة بالفعل، وأنا اعتدتُ على نموذج معين، ولكن مع استرجاع الخطوات، وثقتُ في قدرتي على التعامل لأنني أيضاً شخصية جيدة وأستحق أن أعامل بشكل جيد.

- د. جيمس ماسترسون يقول: كيف تتأكد أنك انفصلت عاطفياً عن أمك؟ وكيف نجحت أن تقفي على قدمك وتتعافي منها؟ سأقول لك لتعرفي أين تقفين الآن؛ أن تكوني مؤمنة بنفسك وواثقة من أنك تستحقين الأحسن، وتُقدرين روحك، وممتنة لنفسك، وتنسبين لها الفضل حين تقومين بأداء جيد، ولديك قدرة للثقة في أنك قادرة على تحقيق أحلامك وطموحاتك، وتستطيعين تهدئة مشاعرك المؤلمة، وترجيحي نفسك بدلاً من الانغماس في الألم، وتستطيعين خلق حلول، وتجديد الالتزام وأخذ القرارات الصحيحة، وتتغلبين على الأصوات المسيئة الداخلية التي زُرِعَتْ بداخلك، وتتغلبين على النقد الدائم لنفسك، وواسعة الحيلة وإيجابية، وتُعبّرين عن نفسك بصدق دون خوف وتكونين نفسك، وتستطيعين دخول علاقة دون خوف أن يبتلعك الطرف الآخر أو يهجرك، وتجديد

الاستمتاع بعلاقتك بنفسك وتكونين بمفردك دون احتياج مُلِح لصحبة أحد. ها يا مها، أين تجدين نفسك وسط ما قلته؟

- أنا أجد نفسي وسط كل ما قلته.

- وأنا أيضًا أرى ذلك. آخر خطوة المتعلقة التسامح، مثلما أطلقتِ عليها المرة السابقة، انضبطت معك، بالمناسبة، أنت كنت مستعدة لها من قبل أن تلتقي بهشام حتى، لكنك لم تكوني مهتمة بها، ما فعله وجود هشام أنه شجعك، لكنك تحت أي ظرف كنتِ على الطريق الصحيح ومستعدة، والأمور الجيدة تحدث لنا حين نكون مستعدين، هشام ظهر لأنك مستعدة وليس العكس مثلما يعتقد البعض.

- اقتنعت بذلك فعلاً. تعرفين، أنا مُتَشَوِّقة هذه المرة أن أحكي في الجلسة الجماعية.

- رائع! وسردك للخطوات الأخيرة سيساعد الناس على رؤية النور في آخر الطريق. مساعدتك لنفسك ستساعدهم، وهذا من أجمل مزايا جلسات العلاج الجماعية.

- سأعتذر عن عدم حضور الجلسة الجماعية السبت المقبل، وسأشارك في التي تليها؛ لأنني سأسافر مع ليلي وإنجي للإسكندرية لاحتفل بالعام الجديد غدًا، ولا أعلم هل سنعود السبت أم الأحد؟

- استمتعي، وسأنتظرك حين تعودين.

- اتفقنا.

٤

صباح يوم الجمعة، انطلقت مع (ليلي) و(إنجي) بسيارتي إلى الإسكندرية. كنا نتبادل الحديث طوال الطريق، فلم نشعر بمرور الوقت، حتى وصلنا إلى فندقنا الصغير الذي نحب

الإقامة فيه كلما ذهبنا إلى هناك. وضعنا حقائبنا، وذهبنا لتناول الإفطار في (ديليس) كالعادة. كم أحب هذا المكان! أشعر بأنني انفصلت عن الواقع عندما أجلس به، لدرجة أنهما تنتزعانني من مقعدي حتى نغادر، فأظل أماطل كالأطفال، فتضطربان إلى القيام وإخبار بعض المنتظرين بأن المكان أصبح فارغًا، فأقوم على مَضَض، وأنا ألعنهم! جلسنا وأخبرنا النادلة بطلبنا، ثم رنَّ هاتفي، فتوقَّعت أنه هشام، ووجدت ما توقَّعت.

- هل وصلتكم؟

أجبتُه بجَدَل:

- منذ فترة، وضعنا وبتناول الإفطار في (ديليس).

- أحبه جدًّا، أزوره دائمًا حين أذهب للإسكندرية، أين تقيمون؟

- لو متروبول. فندق جميل وإطلالته رائعة.

- غريب جدًّا، نفس الفندق الذي أحبه وكانك تقرئين أفكارِي، يتبقى أن تقولي إنكم ستسهرتون في (سان جيوفاني).

فقلتُ بضحكة عالية:

- لا، بهذه الطريقة أنت الذي تقرأ أفكارِي، أنا أسهر به في كل زيارة للإسكندرية، مكان رائع، وأشعر فيه وكأنني في فيلم أجنبي من الستينيات.

- إذن، حين نتزوج سنقضي الشتاء بأكمله هناك.

...

عندما لاحظ صَمْتِي، قال بنبرة قلقة:

- آسف لو أفزعثك! كلام سابق لأوانه، أنا فقط تحمّستُ وأحب السفر و...

قاطعته بغتةً:

- هيّا.

تساءل بدهشة:

- هيّا ماذا؟!

- نتزوج.

- لا تخافي، لم أشعر بالحرّج، أنا عارف أنك متأنّية في قراراتك، ومعك الوقت مثلما.....

قاطعته مرة أخرى:

- هشام، أنا لم أقل ذلك كي أتفادى إحراجك، أنا موافقة فعلاً.

قال بنبرةٍ مبتهجة:

- أكاد أطيّر من السعادة! فور عودتك تُرتّب كل شيء، وسأطلب من (وزّة) أن تستعد، كل طلباتك مُجابهة قبل أن تفكّري.

فقلت ضاحكة:

- اتفقنا. حين أعود نتفاهم براحتنا، سأتركك الآن لتناول الإفطار، سأكلمك حين أعود إلى الفندق.

- بالهناء والشفاء. سأنتظرك، سلام.

- سلام.

أغلقت الهاتف وسط نظرات (ليلي) و(إنجي) المندهشة. وقالت (ليلي):

- هل هذا حقيقي؟

- نعم.

فسألتنني (إنجي):

- أنتِ وافقتِ فعلاً على الزواج منه؟

أجبتها وأنا أمضغ الطعام:

- نعم، وتناولوا طعامكم قبل أن يبرد.

تبادلنا نظراتٍ ذات معنى، ثم شَرَعْنَا في تناول الطعام، وأكملنا الحديث.

سألتنني (إنجي):

- هل تشعرين بأنكما تعرفتما جيداً؟

وسألتنني (ليلي):

- وهل تشعرين بأن خوفك منه قد انتهى؟

قلت لهما بهدوء:

- الموضوع بسيط بالنسبة إليّ. الزواج ليس نهاية المطاف، لديّ عقلية مختلفة، وأنتم تعلمون، أن أتزوج شخصاً ثم يتضح لي أنه سيئ أو شرير فأتركه هذه ليست كارثة، الكارثة تحدث لمن يتعاملون مع الزواج باعتباره تجربة لا بد أن تستمر حتى ولو دمرتهم. أنا أرى أن الحياة بها كل الخيارات؛ مثلاً أنا لا أفكر في الإنجاب قبل عام أو عامين بعد الزواج

وربما أكثر. هناك جزء من العلاقات لن يظهر إلا في خلال هذه الفترة. أعتقد أنكم رأيتم الكثير في حياتكم وحياة من حولكم؛ إننا من الممكن أن نعرف شخصًا قبل الزواج بسنوات، وحين نعيش معه نكتشف جوانب كثيرة كانت خفية.

قالت (ليلي):

- أنا عرفت أحمد لسبع سنين قبل الزواج، وفي أول عام من الزواج، اكتشفت به أمورًا أذهلتني، لا أستطيع أن أجادل في هذه النقطة.

وقالت (إنجي):

- منطقتك سليم. ومن الغريب فعلاً أن الناس هنا تعامل الزواج كنوع من الأبدية، كأنه حكم سجن لا بد أن يُنفذ! وأُعيد في فكرة تأجيل الإنجاب قليلاً لحين أن تمر أول فترات الزواج بسلام وتفاهم.

فقلت:

- ودعمكم سيُشجعني، تعلمون مكانتكم عندي، أنا أشعر براحة كبيرة بقربي من (هشام)، ومشاعري تجاهه تزداد يوميًا. لقد أحببته، لكنني لم أصرح له بذلك، وأمامنا عدة أشهر خطوبة وتجهيزات، القصد أننا لن نتزوج غدًا.

قالت (إنجي):

- ومتى تنوين أن تصارحيه بمشاعرك، أم تنتظرين أن تنجبي منه أول طفل ثم تصارحيه بها؟

قلت مقطبةً وأنا أكور في فمي شرائح الطماطم:

- هاهاها، سخيفة! لأ، طبعًا، سأقول له. ولكن حين أراه ونتحدث.

قالت (ليلي):

- انتظري أن يُصاركِ هو أولاً.

- لا أعلم، أكره هذه القواعد، سأفكّر.

قالت (إنجي):

- افعلي ما تشعرين به، لسئم صغارًا، هو يحبك وأنتِ تعلمين ذلك.

- هذه حقيقة، أنا فعلاً مطمئنة لحبّه، ألا ترين كيف آكل بشراهة وسعادة؟

فقالت (إنجي) مازحةً:

- نعم وكأنك ستأكلينا! هذا يحدث لكِ دائماً حين نزور الإسكندرية.

فقالت (ليلي) بسرعة:

- آه، هذا بخلاف أننا سنذهب أيضاً إلى مطعم (بلبع)، ستأكلين ما هو متاح ثم تصرخين طوال الليل من ألم معدتك.

فقلت مخرجة لساني بسخافة في أثناء مضغي:

- موتوا بغيظكم.

فقالت (ليلي):

- أغلقي فمك وأدخلي لسانك، نريد أن نُنهي الإفطار.

نظرت إليهم بلا مُبالاة، وأكملت طعامي باستمتاع. ما إن انتهينا حتى توجّهنا إلى الكورنيش لنتمشّي.

نظرتُ إلى البحر مُطَوِّلاً. لطالما أسرتني أمواجه الشتوية الهادرة، وهذا موعد النوة السنوية؛ نوة رأس السنة التي تستمر أربعة أيام تقريباً، وتصاحبها غالباً أمطار غزيرة. اللعنة! أين ذهبت الأمطار؟! سأعوّضها بالنظر إلى الأمواج المرتفعة التي تنثر المياه على ثيابنا بلا توقّف.

قالت (إنجي) صارخة:

- لقد ابتللتُ، هيا بنا نذهب.

فقلت لـ(ليلي):

- اذهبي بها يا ليلي إلى الفندق، سأسير قليلاً ثم ألحق بكم.

أعطيتها مفتاح السيارة، وذهبتا، وبقيت متسمرةً أمام البحر، بينما كان الجميع يهربون نزولاً من على الرصيف الملاصق له. وقفت أنظر إلى جمال البحر ومهابته. أحلم كلّ فترة بأني في منزل على البحر، يكون منزلي الخاص؛ منزل بنوافذ زجاجية كبيرة مفتوحة وكثيرة. تتلاطم الأمواج، وتعبر النوافذ المفتوحة. دائماً أهرولُ كي أغلقها في أثناء عبور الماء إلى المنزل. يكون معي دائماً أشخاص أحبهم وأخشى عليهم كثيراً؛ فهرولتي تكون لأجل حمايتهم من دخول المياه ووصول الأمواج إليهم. ينتهي الحلم في أثناء سعيي لإغلاق جميع النوافذ. نهاية مفتوحة دائماً، لكنني أحب هذا الحلم، رغم انزعاجي في أثناء مروري به، لا أخاف من البحر ولا من السباحة. بالعكس، أنا أحبهما كثيراً، ورغم ذلك أكون مرتعبة في أثناء الحلم، وكأنني سأفقد كل شيء إذا غمّرت المياه المنزل. توقفت عن تذكّر الحلم عند هذا الحد، وابتسمت للبحر وأمواجه.

الفصل التاسع

«أنت تعيس لأنك تشعر بالوحدة، أنت في حاجة إلى وجود شخص بجوارك لتحبه، شخص يفهمك جيدًا».

أنطون تشيخوف.

١

جلسنا ليلاً في (سان جيوفاني) بسعادة وسلام. تبادلنا الحكايات والمزاح كعادتنا. جلسنا إلى طاولة بمحاذاة البحر. ميزة (سان جيوفاني) أنه بداخل مُربّع أشبه بخليج صغير من البحر، وكوبري ستانلي ملاصق له، فكأنه مصدّة للأمواج؛ مما جعل الجلسة هناك محتملة، ولن تنتهي بالبلل.

كنا ننظر عبر النوافذ الزجاجية إلى البار الصغير الداخلي، والطاولات التي ملأها أشخاص يبدو عليهم كِبَر السن، ولكنهم يتمتعون بالحيوية، جذورهم أجنبية، مما يبدو من ملامحهم وملابسهم، يتسامرون ووجوههم بشوشة لطيفة، مما ملأ المكان بالدفء. قاطعت تأملي (ليلي) وهي تقول:

- نساfer صباحًا، أم نمد الرحلة ليومين آخرين؟

قالت (إنجي):

- أنا أفضل أن نساfer صباحًا، ونكمل صحبتنا عندي في المنزل، ما رأيكما؟

قلت:

- أتفق مع هذا الرأي، خاصةً أن أولادكم ربما يحتاجونكم.

قالت (إنجي) بمكر:

- و(هشام) الذي ينتظر أن تجلسي معه!

فقلت بمكر مُشابه:

- هشام مَنْ؟!

فقالت (ليلى) ضاحكة:

- لا تحاولي الإنكار أو ادّعاء أن صحبتنا أنستك (هشام).

ضحكنا جميعًا، وتبادلنا الحكايات عن ذكرياتنا السابقة في الحب والسفر، ثم انتصف الليل، فقررنا الذهاب إلى الفندق كي ننام ونرحل في الصباح الباكر.

وفي الطريق إلى القاهرة، كنا جالساتٍ في السيارة بأنصاف أعين وأكواب ممتلئة بالقهوة. كنت أقودُ بسرعة معقولة كي لا أخيفهما، رغم إغراء الطريق السريع وحُلُوّه من المسافرين تقريبًا.

وصَلْنَا إلى القاهرة قبل الظهر بساعة، كنت قد عزمْتُ على الذهاب إلى المنزل لكي أطمئن على قطتي. فتركناي أذهب على مضض، على أمل العودة إليهما مساء.

استقبلتني قطتي بشوق شديد، وكنت أشتاق إليها أيضًا. تركت حقيبتني على باب الشقة، وافترشْتُ الأرض لقطتي التي أخذت تعلق وجهي ويدي وهي تموء كأنها تسألني: أين كنتِ؟

أتعجب ممّن يصفون القطط بالعدّ ولا يحبون وجودهن بالقرب. القطة حيوانٌ وفيّ للغاية، عكس ما يُشاع عنه. هي فقط كائنٌ مستقل. ليست متملّقة كالكلاب مثلاً. فرغم حبي الشديد للكلاب، إلا أنني أشعر بأنه حيوان غير مطمئن دائماً، يحتاج كل ثانية إلى إثبات من صاحبه أنه يحبه. لا يطمئن للحب، يريد الالتصاق الدائم والصحة المستمرة حتى يشعر بالطمأنينة. وكم يكون هذا مرهقاً خاصة إذا كان صاحبه شخصاً مثلي، ينزعج من الإلحاح. القطة بالعكس تماماً، تحب صاحبها بطمأنينة، ومستقلة للغاية. تريد أوقاتاً خاصّةً بها، كي تعتنى بنفسها بعيداً عن الصحبة، تحب بشدة وتعرف أهمية الاستقلال. تستطيع فعل أبسط الأشياء وأصعبها لنفسها، حبا مطمئن واثق. ما يعيق البعض عن حب القطط هو شعورها باستحقاق السيادة؛ فكيف لكائنٍ أطعمه في منزلي أن يكون بهذه الاستقلالية؟! يشعرون باضطراب أنها كائنات تُشبه البشّر، لا تستطيع شراء ولاءها بوجبةٍ كالكلب. الحب والمثابرة على المعاملة الحسنة هما اللذان يأسران هذا الكائن الخلاب. وبطبيعة الحال، من لا يعي الاستقلال، فلن يعي ميكانيزم القطط النفسي. أنا أعني وأقدّر استقلالها وأحبه، وأحترم القطط كثيراً. أرى أنني (Cat person)، مثلما يصف المجتمع الغربي محبي القطط، وسعيدة بذلك.

رئ هاتفي. كانت (شيرى) تتصل في موعدها اليومي الصباحي للاطمئنان عليّ.

- عدتِ يا قطتي؟

- نعم يا حبيبتي، عدت منذ قليل، واستلقيت على السرير؛ كي أرتاح قليلاً.

- كيف كانت الرحلة؟ هل استمتعت بها؟

- نعم استمتعت جداً، كيف أحوالك؟

- أنا بخير، جووو بيسلم عليكِ وتقول إنك أوحشتها كثيراً، وكوكي يقول لك: إنه يريدك أن تعلميه لعب الطاولة في الإجازة المقبلة، ولا أعلم لماذا يريد تعلم الطاولة تحديداً ويهتم بها

هذه الأيام وهو في الرابعة من العمر!

- قبلي (جوجو) وقولي لها إنها أوحشتني أكثر وأنتظرها بفارغ الصبر. وسأعلم (كوكي) الطاولة باحتراف. (شيري)، هناك موضوع أريد أن أتحدث معك فيه.

- تفضلي يا حبيبتي.

- هل تتذكرين (هشام) الذي حكيت لكِ عنه؟ يريد أن يتزوجني، وأنا موافقة.

تعالث صيحات (شيري) مهللة؛ فهي ترى أن الزواج خطوة مهمة في حياة أي امرأة، وتكون ناقصة دونها. فكان ردُّ فعلها هستيريًا، وصاحت مُعلنَةً أنها ستنزل مصر على وجه الخصوص كي تستعد لمراسم لم أخبرها بتفاصيلها بعد!

تقبّلت ردَّ فعلها؛ فلقد فقدت الأمل في تغيير آرائها في الحياة بشكلٍ عام منذ وقت طويل، وأخبرتها بأنني عندما أعرف التفاصيل كافةً فسأخبرها. فقط عليها أن تنتظر حتى أعرف!

أنهينا المكالمة، ثم قررتُ أن أقرأ قليلاً. مددتُ يدي إلى بعض الكتب الموضوعة بجواري على فراشي؛ فأنا من هؤلاء الأشخاص المهووسين، الذين يحبون احتضان كتبهم في أثناء النوم.

قاطع قراءتي رنين هاتفي. كان المتصل (هشام).

- ماذا تفعلين؟

- أقرأ قليلاً.

- مجهدة من السفر؟

- لا، استرحت وأشعر بأنني في حالة جيدة.

- لا أريد أن أكون لزجًا أو سخيًا وأقول إنك أوحشتني وأريد رؤيتك، لكنني غير قادر على مقاومة أن أقولها.

- لست لزجًا ولا سخيًا، أنت أيضًا أوحشتني.

- هل أستطيع أن أمر عليك بعد قليل لنذهب إلى أي مكان نتناول الغداء ونتحدث؟

- اتفقنا، سأنتظرك، اتصل بي قبل أن تتحرك كي أستعد، غالبًا سأنزل بملابس البيت.

- أي ملابس ترتديها ستكون جميلة عليك.

- أتظن أنني أبالغ! سأنزل لك فعلاً بملابس رياضية، وتحدث عن الأناقة براحتك.

- حسنًا، وأنا سأفعل مثلك؟

- جميل جدًا، اتفقنا، سأنتظرك.

بعد ساعة ونصف من مكالمتنا، كان (هشام) في انتظاري تحت المنزل في سيارته. نزلت بملابسي الرياضية، وعليها سترة ثقيلة منفوخة كالبالون، وعقدت شعري على شكل كعكة، ودلفت إلى السيارة. وجدته يرتدي ملابس رياضية أيضًا كما أخبرني. فشعرت بسعادة كبيرة تملأ قلبي.

- أعلم أنهما يومان فقط لم أرك خلالهما، لكنك أوحشتني جدًا.

- نفس مشاعري، وسعيدة أنك أتيت.

- أين نذهب لتناول الغداء؟

- أي مكان. أترك لك الاختيار.

- حسنًا سأذهب بك إلى مكان، وإن لم يعجبك فلنغيره. اتفقنا؟

- اتفقنا.

انطلق هشام في طريقه إلى المطعم، وشرع يسألني عن أحوال الإسكندرية وجوّها، وحكيت له تفاصيل الأجواء والأماكن لأنني شعرت بشوقه إلى السفر، حتى وصلنا إلى وجهتنا. كانت مطعمًا طرازه أوروبي أنيق يقع في الطابق الأخير لأحد الفنادق في حي المعادي.

- سندخل لتشاهديه أولاً، وإن لم يعجبك نتركه ونمضي، اتفقنا؟

- اتفقنا.

دخلنا، وشعرتُ بأن المكانَ دافئٌ وهادئٌ كما أُحب، فرحبتُ بالجلوس فيه.

- منذ قلت لي إنك موافقة على الزواج مني وأنا أفكر بكل التفاصيل بفرحة مثل الأطفال.

- أنا أيضًا سعيدة. سأوضح لك بضع نقاط كي لا تشغل بالك بالتفاصيل، كل ما تحتاج إلى فعله هو مقابلة عمي، هو الشقيق الوحيد لأبي، أما عمتي فهي تعيش في دبي وسأكلمها لمعرفة إمكانية وجودها في المقابلة أو الخطوبة، وأختي ستأتي من الكويت في الخطوبة، أنا لا أحب الأجواء الساخنة، نضع الخواتم في أصابعنا ونخرج للاحتفال في مكان لطيف فقط.

فقال بجدية:

- قولي لي ما طلباتك؟ هل تريدان أن أقول لعمك شيئًا معينًا؟ أنا عمومًا مستعد لأي شيء يطلبه. حالتي المادية جيدة، وورثتُ من أبي أموالًا تكفينا حتى الممات، وعملي يسير بشكل جيد ودخلي منه معقول، وإن أردتِ يمكنني أن أشتري مسكنًا آخر غير شقتي التي في العمارة مع (وزة).

- هشام، الأمور المادية لا تعنيني كثيرًا، ولست ملزمًا بالبحث عن شقة أخرى، لن أتضايق من وجودي في العمارة مع (وزة)، وأعلم أنها عمارتكم، وأن مروان أيضًا سيتزوج بها إن أراد، وعمي يهّمه اني أكون مرتاحة، فلا يوجد شيء تحتاج إلى ترتيبه قبل أن تقابله، أنا سوف أكلمه، وسأرسل لك رقمه لتتفقا على الموعد المناسب لكما، لكن هناك أمور نحتاج إلى أن نتكلم فيها بعيدًا عن هذه الترتيبات.

قال بنفس الجدية:

- قولي ما تريدين.

- لديّ مشكلة، أنا أخشى إنجاب أطفال، عشتُ طوال حياتي خائفة أن أكون مثل أمي، ويصيبني الرعب من تصور أنني قد أنجب طفلًا وأفعل فيه مثل ما فعلت بي أمي ولو دون قصد، أو أكون غير جديرة بحبه، ألا أشبعه وأحرمه؛ لأنني لم أتعلم أن أكون أمًا.

- أتفهم ذلك.

- لم يكن أمامي نموذج للأمومة أطلع عليه، أقول لك كل ذلك لأعطيك حق الاختيار؛ لأنه يجوز جدًا أن أطلب تأجيل الإنجاب لحين أن أشعر بأنني مستعدة، وهذا ليس ذنبك، ولا مطلوب منك أن تتقبله لمجرد أنك تحبني، أنا في طريقي للتعافي من الإساءات التي عانيتُها.

- ستتعافين يا مها.

- أتمنى، لكن ربما لا أتعافى من خوفي من الإنجاب، أو ممكن أكون نموذجًا مختلفًا للأم، وكل هذه أفكار مرعبة وليست سهلة، لقد سبق لي مناقشة هذا الموضوع مع معالجين سابقين في أثناء فترات خطوبتي، وردهم كان إن رحلة التعافي تكون على مراحل، وأن من هي مثلي غالبًا ما تصبح أمًا جيدة وكافية ومُشبعة لأنني عالجتُ أي سمات نرجسية اكتسبتها

من تعاملتي مع أمي، لكن الخوف كان يظل بداخلي، سأتناقش مع دكتورة جيهان وأقول لك ما سنتوصل إليه.

- خوفك طبيعي نتاج ماتعرّضتِ له؛ نموذج الأمومة المشوّه الذي شاهدتيه. دعيني أكلمك بموضوعية، عمري حاليًا ثمانية وثلاثون سنة. هل تظنين أن من يتزوج في سني ولديه نفس تفكيري يريد الزواج من أجل الإنجاب؟

- ربما نعم، وربما لا.

- لا يا مها، أنا لا أفكر بهذه الطريقة، أنا أتزوج الفتاة التي أحببتها وأريد إكمال حياتي معها، نجب أو لا نجب، هذا ليس هدفي، ولا يهمني، أنا أختارك أنتِ، وسأكمل معك أنتِ، مها، لقد كنت لفترة من حياتي (لا إنجابي)، ووصلت لمراحل بشعة من العدمية.

- هل ما زلت كذلك؟

- حاليًا تفكيري اختلف، لكن يظل الإنجاب شيئًا لا علاقة له بما بيني وبينك، أليس من الوارد أن أكون غير قادر على الإنجاب أصلًا أو أن يحدث أي شيء يعوق الإنجاب؟ لا أحد يعلم الغيب، ما أعلمه أنني أريد إكمال حياتي معك، وحين تكونين مستعدة للإنجاب نفعل ذلك، وإذا لم تريدي الإنجاب ليست مشكلة، وبعيد تمامًا عن الإنجاب من عدمه، أنا واثق في أنك ستكونين أمًّا رائعة، وإياك أن تظني أن الأبوة شيء سهل بالنسبة لي، أنا أيضًا لديّ مخاوفي، لكن فعلت كل ما أستطيع فعله كي أكون إنسانًا صالحًا، وسأفعل ما بوسعي لأكون أبًا جيدًا إذا أنجبنا. اطمئني أنا بجوارك وأحبك في كل الأحوال.

كنتُ أشعر برغبة شديدة في البكاء طوال سرد (هشام) لوجهة نظره. كم كان رائعًا أن أشعر بالقبول والحب! لم أكن لأحكم عليه إذا لم يتفهّم ما أشعر به، لكنّ تفهّمه جعلني أشعر بسعادة تغمرني، لا تكفي الكلمات لوصفها؛ لذا تركت العنان لدموعي للسقوط، فقال لي بحنان:

- أنا أعرف أن هذه دموع فرحٍ من ابتسامتك، وحتى لو كانت دموع حزن، فأنا أقبلها،
ومُرْحَبٌ بكل مشاعرك يا حبيبتي.

- أعلم ذلك ومطمئنة له، ودموعي كانت لهذا السبب، أنا ممتنة لوجودك ولحبك.

قال بسعادة:

- أنا أيضًا ممتن لوجودك، وحبك، وقبولك، ونضجك، وكل شيء.

فقلت له في أثناء تجفيف دموعي:

- أُحِبُّكَ.

فقال بابتسامته الخلابة:

- أُحِبُّكَ يا مها. ورغم أنني بارع في الكلام مثلما تقولين، إلا أنني لا أستطيع التعبير عما
بداخلي.

ساد الصمتُ بيننا لدقائق، فقط نتبادل الابتسام بين نظراتنا المُحَبَّة الهانئة. كنت أشعر
براحة غريبة؛ راحة لم يسبق لي أن شعرتُ بها من قبل، محاطة بالدفء وأمانة، وكأنني كنت
أسبح وسط دوامات، وأجاهد للبقاء حيَّة، ثم وصلت إلى الشاطئ، فوجدتُ الدفء والأمان
أخيرًا. لقد وجدتُ السعادة عندما أيقنتُ أنني أستحقها.

مضى الوقت سريعًا. وفي أثناء وجودنا في المطعم، تحدثَ (هشام) إلى عمي. لم ينتظر
حتى أن أحادثه، وحدد معه موعدًا لمقابلته خلال هذا الأسبوع.

مضى الأسبوع سريعًا، بين العمل ومقابلة (هشام) يوميًا لتناول وجبات سريعة في وسط اليوم. كنت أشعر بسعادةٍ لا يشوبها خوف. قرّرت أخيرًا أن أتمسك بلحظات الأمان.

وفي اليوم المحدّد، ذهب (هشام) مع والدته لمقابلة عمي، وكان اللقاء شديد الألفة. أما (ورّة) فكانت لطيفة حانية، تعاملني وكأنها والدتي أنا وليست والدة (هشام)، وكم أثر ذلك فيّ. وترك لنا عمي تحديد موعد الخطبة، فقرّرنا أن تكون في بداية الأسبوع الذي يليه؛ فنحن لا نهتم بالتجهيزات المُبالغ فيها، ولا ننوي إقامة حفل، و(شيرى) قد حجزت تذاكر سريعة لها وللأطفال منذ يومين بالفعل عندما علمت بنيتنا السريعة في الخطبة، وحتى تكون موجودةً قبل الموعد بيومين.

وغالبًا لن نحتاج إلى أي تحضيرات مُسبقة، فقط سنرتدي خواتمنا ثم نمضي إلى سهرة لطيفة وسط المقربين من العائلة والأصدقاء، وتولى (مروان) حجز مكان لطيف يناسب ذوقنا الهادئ.

وعندما حلّ يوم الخطبة، ارتديتُ فستانًا هادئًا، لا يختلف كثيرًا عمّا ارتديه في الأيام العادية إلا في نوع قماشه. وأسدلّت شعري بتجعيدات على كتفي، ولم أضع مساحيق تجميل كالعادة. وقفت أنظر إلى المرأة مبتسمة، شاعرة بالرضا عن مظهرى، وفي خارج الغرفة كان الجميع ينتظر حتى نرتدي خواتمنا قبل التوجّه إلى السهرة. خرجت إليهم، فغمرتني نظرات السعادة في أعينهم، وصيحات التهليل والفرح.

لكن لن أنسى ما حَيّيت نظراتِ (هشام) لي في ذلك اليوم. كانت كحُضن دافئٍ وسط يوم تنهمر فيه الثلوج. مدّ يديه إليّ، واصطحبني للجلوس وسط زغاريد الأحبة. دمعت عيناى. كنت أفتقد والدى كثيرًا، وجوده كان سيعني لي الكثير، لكن لم أدع ذلك يفسد بهجتى. فقط تمنّيت لو كان يشعر بفرحتى الآن.

بعد أن انتهينا من ارتداء خواتمنا، انهالت علينا الأحضان والقبلات من الجميع، وانطلقنا في طريقنا إلى مكان السهرة. كان المكان في أحد الفنادق التي تتمتع بإطلالة ساحرة على

النيل. أمضينا فيه سهرة دافئة للغاية.

وفي طريق العودة، ركبت مع (هشام) سيارته. كان الجو شديد البرودة كما نحب، فقمنا بفتح نوافذ السيارة حتى نتمتع بلسعة البرد معًا. فسألني مازحًا:

- هل ستحمل هذا البرد حين نكبر؟

أجبتَه بضحكة طفولية:

- بالتأكيد لا. ولكن يمكن أن ترتدي ملابس ثقيلة ونفتح الشباك بشكل طبيعي.

فقال بود:

- أنا أريد أن أكبر معك. أريد حين أصير عجوزًا، أن أمشي يدي في يدك وقت النوات بالإسكندرية.

ربّثُ على يده وأنا أقول:

- سنكبر معًا، أنا واثقة.

- الله! ما أجمل هذه الكلمة «أنا واثقة»! ثقتك فيما بيننا حبيبتني هي هديتي اليوم.

كنا قد وصلنا إلى منزلي سريعًا نظرًا لخلو الطُرق في ذلك الوقت، فالتفتُ إليه مرة أخرى وقلت:

- كان أجمل أيام عمري! حين تصل طمئني أنك وصلت بالسلامة.

- وكان أجمل يوم في حياتي أنا أيضًا. أعدك أن يوم عرسنا سيكون الأجمل على الإطلاق.

خرجت من السيارة وأنا ألّوح له، ولم أدلف إلى المصعد كعادتي، بل هُرعتُ أصدد درجات السلم بسرعة كالأطفال، والابتسامة لا تفارق وجهي. وعندما دخلت الشقة، توجّهت بشكل تلقائي إلى صورة والدي المعلقة في غرفة الجلوس، أنزلتها من مكانها، ثم احتضنتها، وسالت دموعي وأنا أخبره بأنني أفتقده بشدة. لقد ترك رحيله في قلبي ندبةً لا تزول بالتقادم. أنا أغفر له ضعفه أمام جبروت (زهرة)، أسامحه على تخاذله أمام تعسّفها معي، حبي له يشفع له أي شيء، حُبّه لي كان نورًا يضيء حياتي في أوقات الظلام الحالك، كنت ألومه في حياته على مواقفه الهزيلة أمام أعاصير غضبها التي كانت تعصف بي بلا رحمة، لكن بداخلي كنت أعلم أنه ضحية أخرى لتربية جعلته يعتقد أن الحبّ المصحوب بالأذى طبيعي، فكان يحاول تصديق أن (زهرة) تحبني حتى لا يفقد عقله، وحتى لو تخاذل عن الفهم، فإن قلبه الرقيق كان شفيعه. أغفر لك ضعفك يا أبي رغم ما حلّ بي من أذى نتاجه. أغفر لك كل شيء.

قبّلت الصورة، ورفعتها على الحائط في مكانها، استجمعتُ أنفاسي ثم عدتُ إلى غرفتي، فوجدتُ رسالةً من (هشام) تُطمئنني بوصوله، فمدّدت جسدي على فراشي، وجاءت قطني تعلق وجهي تعبيرًا عن افتقادها لي، فسكنت.

٣

في موعد جلسة العلاج الجماعي توجّهت إلى المكان، وكنت أنوي أن أتكلم هذه المرة باستفاضة مثل الجميع.. لديّ رغبة قوية في أن أسرد أشياء ربما تبعث بعض الأمل في قلوبهم، وأنا أمل أن يتعافى الجميع من ألم الاقتراب من الأشخاص النرجسيين. عندما دخلت الغرفة قبل الموعد بدقائق، كانت معظم الوجوه حاضرة، ألقىت السلام، وجلست في كرسي بمنتصف الغرفة عكس كل المرات السابقة؛ مما جعل (جيهان) تبتسم وهي تتحدّث في الهاتف بجوار النافذة. تجمّع الباكون في خلال الدقائق المتبقية، وجلسنا جميعًا استعدادًا لبدء الجلسة.

كانت البداية مع (حازم)، الذي ألقى التحية، وبدأ في الكلام مباشرة.

- طبعًا أنا حكيت لكم طول الفترة الماضية عن طفولتي ومراهقتي مع أبي. ربما الظاهر منها أن الأب يجب أن يكون شديدًا مع ابنه كي يصبح الابن قويًا مثلما كانوا يقولون لي كي أتحمّل ما يفعله بي أبي. لكن حينما كبرت وتخرّجت وبدأت العمل، لم يعد هذا مبررًا مقنعًا بالنسبة لي، خصوصًا أنني أتحمّل مسؤولية نفسي وأعمل منذ الصغر مثلما قلت لكم، فلم يعد هناك مبرر لأن أقبل قسوته معي، ومعاملته المهينة لي دون سبب لمجرد أنني استيقظت مثلًا ومررتُ بجانبه، ربما هذا ما ساعدني أن أرى فيه أشياء غير طبيعية، وبحثت عن وسيلة أفهم منها لماذا هو هكذا؟ كان أقصى طموحي أن أعرف لماذا يعاملني هكذا؟ لماذا لم أشعر بحبه لي يومًا؟ لماذا يتعمد إنذالي رغم أنني ابنه؟ وحين بدأت زيارة الأطباء بدأت أفهم لماذا يفعل ذلك، أدركت أن الله لم يطلب منا أن نتجاوز ونقبل الإهانة والضرب والسباب مثلما كان يدعي أبي، لقد كدت أكفر من الظلم! لممت أغراضي من المنزل وغادرته، استأجرت شقة مع زملاء أعرفهم منذ أن كنت أعمل في المرحلة الثانوية. اتصل بي وسبني بأبشع الألفظ، وقال إنني لو لم أعد فسيقاطعني، ابتزني بحالة أمي الصحية. كاد أن يتسبب في موتها ببُطء في كل الأحوال. وجودي من عدمه لم يكن يؤثر فيما يفعله بها، لم أخضع لابتزازه. هذه الأمور حدثت منذ ثلاث سنوات تقريبًا، وأنا الآن شخص آخر، أدركت أن لي قيمة، وأن الله لا يكرهني مثلما كنت أظن. بالعكس، ازداد إيماني، وأصبحت قريبًا من الله. عرفت أن كل ما عانيته كان بسبب نرجسية أبي، وأنه مريض لا أكثر.

وصمت حازم لدقيقة، فسألته دكتورة جيهان بابتسامة:

- تستطيع أن تكمل الجلسة المقبلة إن كنت تفضل ذلك.

فأجابها حازم:

- نعم، هذا أفضل. شكرًا يا دكتورة.

بدأ الذي يلي حازم بالكلام، وكانت امرأة خمسينيةً أنيقة تُدعى رانيا. أَلقت التحيّة علينا، وبدأت.

- كل يوم يمر أتأكد أنني تزوجتُ نسخة مُذكرة من أمي! في الماضي كنتُ أرى أن تقليله من شأنِي -بصورة خبيثة- خوفًا عليّ، وأن نواياه طيبة. رغم الألم كنتُ أُبرّر له كل أفعاله؛ فأنا لا أعرف الحب إلا بصورة مشوهة للأسف، الآن بعد أن عرفت مَنْ هو، ولماذا يفعل هكذا، رأيت صورة سعيثُ بكل جهدي ألا أراها، رغم أنها كانت واضحة وضوح الشمس. عشتُ في إنكار لها؛ لأنني لا أريد أن أشعر بالفشل، كان كل همي أن تنجح حياتي، وأن أثبت لنفسي أنني سعيدة، واخترت شخصًا يعوّضي عن العذاب الذي رأيته مع أمي، ولكن اتضح أنني أُكرّر كل ما حدث تمامًا بوعي أو دون وعي. تشبّعت من جلد الذات، وقررتُ أن أحنو على ذاتي، ومن وقتها أخشى على أولادي منه جدًّا. يسمّم أفكارهم منذ زمن، وأنا كنتُ أحاول أن أمحو ما يغرسه فيهم. نجحت مع ابني الصغير، لكن الكبير أفلتَ مني للأسف؛ لأنه يُقدّس والده، ويراه أفضل رجل في الدنيا، وأنا لا أستطيع ولا أريد أن أهدم الصورة لابني. ابنتي في حالها نوعًا ما، ليست متأثرة به كثيرًا، لكنها تسألني أحيانًا: لماذا يفعل أبي ما يفعله؟ ستلتحق بالجامعة هذا العام، لم تُعد صغيرةً كي أُبرّر لها ما يقوله والدها مثلما كنتُ أُبرّر في الماضي أنه لا يقصد، وخصوصًا أنها مثقفة. ربما أسئلتها هي تحديدًا التي دفعتني للتوقف عن الإنكار وأقرر أن أعالج المشكلة. في البداية كنتُ أظن أنني سبب المشكلة؛ لأن زوجي رجل أخلاقه عالية والناس يحلفون به وبدوقه وبمعاملته الطيبة، لكن حين باشرت العلاج بدأت أرى تصرفاته المؤذية بشكل آخر، اكتشفت أن النرجسي الخفي الذي تزوجته لا يختلف عن أمي التي يرى نرجسيتها أي كفيف مثلما يقولون، بالعكس، هو أصعب؛ لأنه خدّرني لسنوات، أو أنا خدّرت نفسي كي لا أرى سوى ما أريد أن أراه، من أجل السعادة المتوهمة التي وعدتُ نفسي بها طوال عمري. فكرة الطلاق صعبة لكني لا أستبعدّها. أجلتها لحين أن ينتهي الأولاد من دراستهم. أنا لا أفكر في الزواج مجددًا كي أنفصل سريعًا، يجوز أن يكون تفكيرِي ليس صحيحًا، لكن هناك شيء ما بداخلي ما زال خائفًا، غير قادرة على التخلُّص من الخوف، ربما مع الوقت والعلاج أكون أكثر حسماً، لكن حاليًا أنا أعمل على

تنظيف جروحي وقلبي، على أمل أن أخرج من هذه المتاهة دون أن أخسر ولادي. شكرًا لكم لإنصاتكم لتجربتي.

انتهت من الحديث، وشرعت في تجفيف عينيها اللتين غلبتهما الدموع في أثناء السرد. التي تليها كانت سارة، وهي فتاة عشرينية يبدو عليها القلق، وتقريبًا هي وجه جديد. لم أرها في المرات السابقة، وربما رأيتها ولم أدقق كعادتي؛ فأنا لا أحفظ الوجوه بسهولة.

- لا أعلم من أين أبدأ، وهل أتحدث بعفوية مثلكم أم لا؟ مشكلتي مثلكم كانت مع النرجسيين، أشعر بأنني عديمة القيمة، قبلت الإهانة والضرب والسب وجذب شعري في الشارع، قبلت أمورًا لم يكن ليقبلها أي شخص لديه كرامة.

وسالت دموعها، وغلب صوتها التائر، فقالت دكتورة جيهان:

- إن كنت لا تستطيعين الحكي اليوم يا سارة فلا داعي، أنت اليوم هنا لأول مرة، ويمكنك أن تكتفي بالاستماع، وهنا لا أحد سيطلق عليك أحكامًا فاطمئني، هنا مكان آمن للجميع.

قالت سارة بصوت مختنق وهي لا تكف عن البكاء:

- أفضل هذه المرة أن أستمع إليك فقط.

فقالت دكتورة جيهان:

- كما تريد، وإن غيرت رأيك تستطيعين الكلام في أي وقت.

والتفت إليّ، فقد كان دوري في السرد. وبدا على وجهي الوجوم تأثرًا بما سمعته من الجميع. كنت أود احتضانهم وطمأنتهم أن الغد قادمٌ بأمل جديد، وأنهم يستحقون كل المحبة والاحترام. لكن قررت أن أهدأ وأسكت صوت المنقذ بداخلي، وأحكي، لعل ذلك

يعطيهم بعض الأمل، أو حتى يبعث في قلوبهم بعض المشاعر الإيجابية. أخذت نفسًا عميقًا، وشرعت في الحديث.

- «إن الأم هي مرآة لا غنى عنها للطفل. والأم المتغيّبة عاطفيًا لا تكون تلك المرأة على الإطلاق، مما يترك الطفل دون تكوين صورة إيجابية لذاته، أو إحساس واضح بذاته، وذلك يجعله يشعر بشكل افتراضي بعدم كفاية على مستوى عميق، وقد يشعر أيضًا بالاستخفاف والعار، كما لا يتعلم كيف يتعامل مع أمور الحياة المختلفة».

في حالتي، لم تعلّمني أمي كيف أتعامل مع أي شيء في الحياة. لم أكن أعلم أي شيءٍ يخصُّ عالم الفتيات، حتى اكتشفته بنفسي. لم تعلّمني حتى أبسط الأشياء، مثل: أنواع الأقمشة، أسماء الألوان الفرعية، أنواع الملابس وأسمائها، الاعتناء بشعري، الاعتناء ببشرتي، استخدام أدوات التجميل، الملابس المناسبة للأوقات المختلفة، إلى آخر هذه الأشياء التي تعرفها أي فتاة التقيتها في حياتي. لم أعرف منها حتى الأشياء الأساسية لحياتي كوني فتاة، كالبلوغ مثلًا! أو أي شيء يتعلّق بصحتي وبجسدي كوني أنثى. كيف أتحدّث، وفي أي وقت؟ كيف أقلم أظافري؟ كيف آكل وأمضغ حتى طعامي؟! كنت كارثة متحرّكة في مرحلة مراهقتي وفترة شبابي؛ فتاة أقرب إلى الفتيان في الطباع والسلوك، لا أعرف كيف أقوم بالتسوّق، ولا أطلع على ما تطلّع عليه الفتيات عمومًا، بالتالي كنت آخذ اهتماماتي من والدي، أراقب تصرّفاته في أثناء طفولتي وأتعلّم. وجدتُ في القراءة الصحبة والونس؛ وعندئذٍ قررتُ أمي أن تبتاع لي الكتب بغزارة؛ لأنها فرصة ذهبية أن تتفاخر وسط معارفها وأصدقائها بأن ابنتها تحب القراءة! وقد كان، فأخذتُ تتباهى أمام الجميع بأنها علّمتني حب القراءة، وأنها تنفق الأموال بغزارة على الكتب حتى تساعدني، وسط انبهار الجميع بكون فتاة في المرحلة الابتدائية تقرأ كبرى الأعمال الأدبية المحلية والعالمية! فدخلت عالم الفتيات وأنا لا أعرف سوى القراءة، وألعاب الفيديو، وأفلام الرعب، والأغاني كما يهوى والدي.

طبعًا لم أكن في محل قبول على الإطلاق من الفتيات. كنت موضع تنمُّر ونفور؛ وخصوصًا لتحدّثي كثيرًا باللغة العربية الفصحى وسط الكلام العادي؛ كان ذلك خارجًا عن إرادتي، وليس على سبيل التحذلق، فقط لم أعرف كيف أعبر عن نفسي بغير لغة الكتب.

لكن الفترة التي مرت من حياتي كانت مختلفة، كل تفاصيلها جديدة.. أنا أعالج منذ فترة طويلة، ليس لصعوبة الحالة ولا لفشل الأطباء، لا، ولكن لأنني كنت متشبثة بالماضي ولا أريد أن أتركه، ربما كان خوفي ينبع من أنني لم أجرب شيئًا سواه، في بعض الأوقات يكون الثبات على المألوف أكثر راحة حتى لو كان مؤذيًا. هل من الأفضل أن أظل في مكاني في الأذى الذي اعتدته، أم أذهب لشيء جديد قد يكون مؤذيًا بشكل أكبر، وكانت كفة المألوف هي التي ترجح.

وفي مرحلة مرّت، سألت نفسي: ما الذي يُعطّلي؟ لماذا أَلَف في نفس الدائرة؟ لماذا لا أخرج منها بكل ما عرفته ووصلت إليه؟ لماذا أترك أطياف أُمي تحاصرني في نومي وصحوي؟ ما الذي سيحدث أكثر من أني تركت المنزل وانفصلت عنها؟ هنا دقّ جرس بداخلي يقول إنني استطعت تغيير مكاني، ولم أستطع تغيير أفكاري، ابتعدتُ عنها بجسدي لكن عقلي ما زال تحت رحمتها، استغرقْتُ وقتًا كي أستطيع التغلب على تخلُّها لكل ما أفكر فيه، أسكت صوتها بمعجزة، وحين مات ارتاح شيء ما بداخلي، لكنني رجعت أدخلها في حياتي دون أن أشعر، وقعت في الفخ قليلًا، ولكن انتبهت أن المشكلة بي وأنا الذي أخشى أن أنسى ما حدث، أخشى إن نسيتُه أن أطمئن ويصيبني الأذى مجددًا، لكن هذه ليست حياة، أتتنفس في تربة واسعة فقط؟ أخدع نفسي أنني خارج هذه التربة لكنني خائفة من كل الناس دائمًا؛ أعيش التجربة لكن لا أنغمس فيها، ربما عملي هو الاستثناء. اتخذت قرارًا بأن أحياء، فتحت قلبي وعقلي فوجدت نفسي أتتنفس هواء أخيرًا. رائحة الهواء نفسها تغيرت، تبقى لي خطوة واحدة، إن استطعت إكمالها سأقول من قلبي: إنَّ الماضي قد مات. هذه الخطوة تتلخص في كوني أمًّا، أن أكون أمًّا جيدة قدر استطاعتي. أعتقد أن هذا لو حَدَث سأتمكن من دفن الماضي في نفس التربة التي دفنت نفسي بها لسنوات، ممتنة لكم وأشكركم على إتاحة الفرصة.

أنهيت حديثي، وصمْتُ لإتاحة الفرصة لِمَن يليني في السَّرْد.

كانت فتاة في العشرينيات اسمها (مريم). ابتسمت بخجل، وبدأت في الحديث.

- أميس ضربني أبي بالكرسي على قدمي، الحمد لله لم تنكسر، والسبب أنني لم أقم لأقف له في أثناء مروره؛ هو تقريبًا يظن نفسه في الجيش وهو القائد، كنت أكتب ومندمجة في رسالة الدكتوراة، مثلما أخبرتكم المرة الماضية؛ هي السبب في أنني لم أسافر، لا بد أن أناقشها أولاً ثم أسافر، أي بلد لن يكون فيها أبي ستكون جنة. شعرت بوجع شديد من الضربة، لكن لم أكن خائفة، لم أنظر له؛ لأنه لو شعر بأنني غير خائفة سيقتلني، لا أريد أن أموت، أريد أن أعيش وأعرف طعم الحياة بعيداً عنه، وبعدها أموت ليست مشكلة. محمد خطيبي كلمني بعدها وحكيت له، فبكي من التأثر، وأنا لم أتمكن من البكاء.

مثلما قلت لكم، محمد أنهى أوراقه بعد أن ناقش رسالته، وينتظرني لنكتب الكتاب ونسافر، وواقفة من أن أبي سيماطل، لكن قراري حاسم ولا رجعة فيه. سنتزوج ونسافر حتى لو لم يوافق. الجامعة التي حكيت لكم عنها متمسكة بمحمد؛ لأنه متفوق وتخصّصه نادر، وأنا فور أن أستلم الشهادة سأقدم في نفس الجامعة. رئيسة القسم رحيمة بي وبحالي بصراحة، ربما لأنها تعرف أبي جيداً، هو زميل لها منذ سنوات طويلة، وتعرف طباعه القاسية، وما يفعل في الطلبة. لم يكن رحيماً مع أحد ولا حتى مع نفسه. المهم هي حدّدت لي موعداً لاستلام الرسالة والمناقشة، وأنا شبه انتهيت منها وأضع فقط لمسات أخيرة.

أمي هي النرجسي الخفي الجميل، نموذج يُدرّس صراحةً. تقول لي: تحملي، مهما كبرت فهو والدك، ولا بد أن تقفي له في أثناء مروره. أنظر إليهم أحياناً كأنهم أميبا، انقسموا لنصفين مثل الأميبا لا يختلفان عن بعضهما إلا في الطريقة؛ هو نرجسي واضح، وهي نرجسية خفيّة، لكني مُصرّة أن أخرج من عذابهم وأذيتهم إلى الأبد، وأعلم أنني أستحق أباً وأماً يحبونني، حرمت من هذا الأمر دوناً عن إرادتي وتعلمت أن أطيب بخاطر الطفلة التي بداخلي. أكتفي بهذا القدر من الكلام اليوم، وشكراً لكم.

توالى الأدوار في الحديث بعد انتهاء (مريم)، حتى مضى الوقت، وانتهت الجلسة الجماعية. لم أهرب سريعاً مثل كل مرة. انتظرت دكتورة جيهان حتى تفرغ من حديثها مع الجميع، ثم توجهت إليها رافعةً يدي بالخاتم الذهبي. اتسعت عيناها لوهلة قبل أن تبتمس بلطف وتهنئني. وقالت بدهاء:

- كنت متوقعة أن هذا سيحدث.

فقلت ضاحكة:

- طبعاً، لو لم تتوقعي أنت، من سيتوقع!

- مبروك يا مها. تستحقين الحب والسعادة، كلامك اليوم كان أكثر من رائع، أعلم أنه ليس مجرد كلام وأنك تخطين خطوات بالفعل.

- الله يبارك فيك، شكراً لك. وفعلاً أنا كسرت الدائرة. لا أريد أن أدور بها مهما كبر حجمها، اكتفيت منها، سأتي إليك الأسبوع المقبل، أراك على خير.

- في انتظارك! مع السلامة.

ألقيت السلام على الجميع، وانطلقت إلى السيارة، وأنا أطلب رقم (هشام).

الفصل العاشر

«من نقاط الضعف الخاصة بك سوف تأتي قوتك».

سيجموند فرويد.

١

كان أهم شيء في حياتي خلال الأشهر الستة (مدة خطبتنا)، هو أن أتخلص من أي مشاعر تعوقني عن المُضيِّ قدمًا في حياتي. لا مزيد من مرارة الماضي التي لطالما تجرّعتها في كل خطوات حياتي السابقة. لم يعد لديّ الرغبة في تذكُّر الماضي قدر رغبتني في أن أستفيد بشيء واحد، ألا وهو أن أصبح أماً جيدة. لكن لم أجعل ذلك أيضًا عقبة، خصوصًا أننا قد اتفقنا أن تلك الخطوة مؤجلة حتى نشعر باستعدادنا بشكلٍ كافٍ لها.

ولمساعدة نفسي، كنت أتخلّص من حالة (Flash back)، أو استرجاع الماضي بشكل مستمر. قرّرتُ أن أزيد من وقتي المخصّص للاسترخاء وتفريغ العقل عبر التأمل. Meditation، وكم كان هذا مريحًا بحق! كنت أزيد من وقتي للتأمل بالتدريج، وأواظب عليه بشكل شبه يومي. نصف ساعة يوميًا تحوّلت إلى ساعة كاملة بعد شهور، لكن كان لها فضلٌ كبيرٌ في تدريب نفسي على التخلّص من الأفكار السلبية التي كانت تحاصرني وعودتني أن أبقى رأسي هادئًا معظمَ اليوم.

كان (هشام) و(وزة) يساعداني في شراء أغراض تجهيز الشقة. كان (هشام) بالفعل قد وضع فيها الأغراض الأساسية كافة، والباقي كان أشياء بسيطة لم تُرهقني في البحث. كما أنني لم أعارض إطلاقًا ذوقه في أي شيء. وبالفعل انتهينا في وقت قياسي، وأمضينا الوقت معًا نتعرّف إلى الأقارب والأصدقاء، ونتبادل الخبرات أيضًا كي يعرف كلُّ منا عن

الآخر كل الأشياء البسيطة والكبيرة أيضًا. ووجدنا اتفاقنا في معظم الأحيان، وكان هذا مؤشرًا جيدًا على التوافق. وحتى الاختلافات كنا ندرّب أنفسنا على التعامل معها بشكل موضوعي، وكان هذا مريحًا للغاية؛ فوجود التفاهم كان الضمان الكافي للاستمرار في العلاقة. وبناءً عليه حدّدنا موعدًا لكتب الكتاب؛ إذ لم نجد داعيًا لإطالة المدة.

وقبل أسبوعين من كُتِب الكتاب، شعرتُ بتوتر شديد؛ فها أنا أُغيّر حياتي بشكل جذري كما حلمتُ. أكون نفسي التي طالما تطلّعت إلى رؤيتها على طبيعتها. لكن خوفي من الالتزام كان يطفو أحيانًا على سطح العلاقة، وساعدني في تجاوز ذلك مواظبتي على جلسات العلاج والقراءة عنه؛ فحتى آخر أسبوع قبل كُتِب الكتاب، كنت أحضر جلسات بانتظام مع دكتورة جيهان، واستطعتُ في تلك الفترة أيضًا أن أخرج كل مشاعري تجاه أبي منذ وفاته. فبعد أن تُوفّي، كنت في حالةٍ من الصمت حيال كل ما يتعلق به، عكس ما كنت في أثناء حياته. كنت أخشى أن أتحدّث عن الألم، فيعصف بي، لكن وجدت أن لا مفرّ من إفراغ هذا الوجود الشديد حتى أقبل على حياتي بشكل صحي.

وقفتُ في غرفتي حاملةً صورةً أبي، وأسندتها إلى الوسادة في فراشي، وجلست.

سألته عمّا كنت أعجز عن سؤاله في أثناء حياته بشكل مباشر. سألته عمّا كنت أسأله للمعالجين طوال الفترة السابقة لحياتي وقبل وفاته:

- أين كنت في أثناء إمعانها في تعذيبي؟ لماذا لم تهبّ للدفاع عن سلامتي النفسية في أثناء طفولتي وعجزتي؟ لا أنكر أنك دعمتني عندما استقللتُ، لكن قبل ذلك وأنا في أشدّ الاحتياج إلى من يقف بجواري، لم تكن هناك من أجلي. تركتني أخوض حربي وحيدةً صغيرةً، عاجزةً عن الدفاع عن نفسي. كانت حربًا غير عادلة، وكنت بارعًا في الدفاع عن أفعالها، وتلتمس لها الأعذار كي تسكت صوتي. صوتي الذي كان يذكرك بغلطة حياتك، وهي الزواج منها. صوتي الذي يذكرك بضعفك الشديد واحتياجك لتلك المرأة النرجسية التي تحتاج إلى أن تدور في فلكها مثل الأرض حول الشمس، وسمحت لها بأن تكون مركز كل شيء، بل وكنت داعمًا لها فيما تفعله كله. خفت أن تواجه نفسك بأنها مؤذية، فعزوت كل

تصرّفاتنا المرّضية إلى الحب! أيّ حبّ هذا يا أبي؟! أيّ حبّ ذلك الذي قتل طفولتي ومراهقتي وشبابي؟! أيّ حبّ هذا الذي جعلني لا أرى نفسي وأقلل من شأنها حتى أصبحت في مرحلة ما نكرة؟! الأغرب هو أنك لم تكن راضيًا عنها في علاقتكما. كنت تتألم مثلي، وتكره ما تفعله بك! والأغرب هو أنك لم تكره أو تستنكر ما فعلته بي! كيف رَضِيتَ لي ما لم تَرْضَهُ لنفسك؟! كيف تحمّلتَ دموعي وحزني طيلة سنوات طفولتي؟ كيف استطعت النوم وأنت تعلم أن طفلتك تجلس في غرفتها طيلة اليوم ولا تقترب من أمها؟

لا أنكر أبدًا رعايتك لي؛ كنت تُطعمني وتشتري احتياجاتي ولا تحرمني، وتأخذني معك إلى عملك، وتُدلّني، بل وإلى المقهى في أثناء لقائك بأصدقائك، لكنك كنت ترى غيرتها من اهتمامك بي. كنت ترى ثورتها عندما حدث موقف فيه خطورة على حياتكما، وكنتُ معكما رضيةً، واهتممت بحملي والجري بي، ولم تغفر لك هي هذا قط. كانت تتبجّح أمام الجميع طيلة حياتها وتقول إن كل ما يهتم به زوجها هو ابنته الرضية، وأنه لم يهتم بها.. فقط ابنته! لم تغفر لك قط حبك لي؛ كانت تكره هذا الحبّ بشدّة!

ضممت الصورة إلى صدري بقوة وقلت له:

- أحبك وأغفر لك. وكم تمنيتُ أن تشهد معي كل لحظاتي الحرّة السعيدة، وأحب تذكّر كل لحظاتنا الحلوة. أتذكّر البرنامج الإذاعي الذي كنّا نمثله معًا في السيارة في أثناء قيادتك بي إلى المدرسة. أتذكّر أنك كنت تضمّني في أثناء مشاهدتنا لأفلام الرعب، وتتركني أستمتع بوقتي كما أحب خلال رعايتك لي. أتذكّر لعبة الفيديو جيم المفضلة لديّ التي كنت تلعبها معي طوال الوقت، ونتنافس في النقاط؟ أتذكّر الأتاري الذي كنت تنتظر أن تلعبه معي في نهاية الأسبوع عند أقاربنا؛ لأنني مُنعت منه لأسبابٍ طبيّةٍ متعلّقةٍ بمرضي، لكن لم تحرمني منه في عطلة الأسبوع، وسمحت لي أن أتنافس معك لوقت بسيط، كي لا تحرمني من تلك المتعة كسائر الأطفال. أتذكّر أشياء كثيرة جميلة ستصحبني في رحلتي، ولا أريد أن أكفّ عن تذكّرها أبدًا.

في يوم كُتِبَ الكتاب، ارتديت تايورًا أبيض أنيقًا، ووضعت في خصلات شعري المجعّدة رابطةً بيضاء مصنوعةً من الزهور المجففة، وأسدت شعري للوراء. لم أكن أكثرث لارتداء فستان زفاف، ولم يمانع هشام في ذلك. بالعكس، لقد رحّب كثيرًا بما أحب وبما يشعُرني بأنني على سجيّتي.

وعندما انتهينا من طقوس الزواج في المسجد، كان (مروان) قد حجز لنا كالعادة في أحد الفنادق الهادئة التي تتميز أجواؤها بالدفء، كما نحب أنا وهشام، وتوجّهنا جميعًا، الأسرة والأصدقاء، إلى الفندق كي نحتفل.

كنت أشعر بسعادة ممزوجة بالتوتر؛ فمن المقرّر أن نساfer فجر الغد لقضاء أسبوعين في (بالي)، وكنت منذ الطفولة أتوتّر في أثناء التجهيز للرحلات الطويلة. لاحظ (هشام) أن وجهي مشدود قليلًا، فاصطحبني من يدي، وأخذني إلى الحديقة الخارجية.

- ماذا بك يا حبيبتي؟ تُبدين متوترة؟

- آه، قلقة من تجهيز أغراض السفر. لديّ مشكلة في هذا الموضوع منذ الطفولة، يصيبني التوتر قبل السفر الطويل؛ لذلك لا أسافر أكثر من يومين أو ثلاثة على الأكثر، حتى ولو كنت لن أستطيع الاستمتاع بكل ما في المكان.

- سأساعدك في تجهيز الأغراض. وإذا كان احتجنا إلى شيء نُكلّم (مروان) أو (شيري) أو حتى (وژة)، لإحضاره قبل أن نتحرّك للمطار. هل يكفي هذا بالنسبة لك أم أن هناك شيئًا آخر يتعلق بالسفر يُقلقك؟

أجبتُه مبتسمةً:

- كافي يا حبيبي. انظر، هل ترى الأرجوحة التي هناك؟

التفت إلى المكان الذي أومأْتُ إليه برأسي وقال:

- نعم يا حبيبتي أراها، ماذا بها؟

فقلت بابتسامة جَذلة:

- أريد أن أركب الأرجوحة. صحيح أن حركتها هادئة وبطيئة؛ لأنها أرجوحة للكبار، لكنها تفي بالغرض مؤقتًا.

فقال ضاحكًا:

- هيا بنا.

أمضينا نصف ساعة في الحديقة بين الحديث واللعب بالأرجوحة، ثم عُدنا إلى الطاولة، وأمضينا وقتًا لطيفًا مع الجميع، حتى حلَّ المساء، وحين موعد ذهابنا إلى المنزل حتى ننال قسطًا كافيًا من الراحة قبل السفر، وكي نُنهى حزم ما تبقي من احتياجاتنا.

عندما دلفنا إلى شقتنا، كان قلبي يخفق بقوة. نظرت حولي إلى كل شيء، وشعرت بأنه منزلي بحق. هذا هو الشعور الناتج عن كون المرء يعود إلى منزله الذي يشعر بالألفة والراحة مع كل قطعة فيه، وكل ركن من حوائطه. لم يخفق قلبي لحوائط منزل قبل ذلك قط؛ فحتى عندما استقلت، كنت أجلس في شقة إيجار مفروشة. لم أحظْ بفرصة تجهيز شقة من قبل لكي تتألف مع مشاعري.

قاطع أفكارِي صوت (هشام) وهو يقول:

- أشعر بأنها أول مرة أدخل الشقة، رغم أنني عشت فيها كثيرًا! روحها تغيرت بك يا حبيبتي، ولمساتك على كل شيء واضحة، حتى الأشياء التي كانت موجودة من البداية، عليها لمساتك.

- هذا بيتي، يا الله! أنت لا تتخيل إحساسي ده بيتي.. أشعر بكل جزء فيه.

وضممته بقوة، وبادلني الضمة بقوة أكبر. شعرت أن مشاعري تذوب حرفيًا في حضنه، كأن هذا الحزن هو ضالة وجودي. كيف كنت قبل تلك الضمة؟! كيف كنت قبل حبي له؟! لا أعلم، ولا أريد أن أعلم. أنا هنا الآن معه، ولا يعينني الكون بأسره.

جلسنا في الطائرة مُسترخيين مبتسمين كالبهائم بلا سبب واضح، وكل من مرَّ بجوارنا يلمح ابتسامتنا، فيبادلنا الابتسام، رغم أننا نعلم أن أمامنا رحلة طويلة حتى الوصول (حوالي عشرين ساعة)، وسيكون هناك ترانزيت في دبي، لكن قررنا أن نتمتع بكل لحظة في تلك الرحلة.

جهَّزنا مجموعة من الأفلام وكتابين كنا قرَّرنَا قراءتهما معًا، وأيضًا قررنا النوم لثماني ساعات في موعد نومنا البيولوجي، فلم يكن لدى أحدٍ منا عائق للنوم في الطائرات. فقط سنضع وسادات النوم، ونغطُّ في نوم عميق.

مرَّت ساعات الطيران بطريقة ظريفة عندما نَقَّذنا هذا البرنامج. وعندما وصلنا، كنا قد استيقظنا من النوم للتو، فشعرنا بطاقة حيوية شديدة حيال برنامجنا هذا اليوم.

ذهبنا إلى الفندق، وأفرغنا حقائبنا في هِمة، ثم توجَّهنا إلى تأجير (Scooter) للتنقل؛ فهو وسيلة سهلة وآمنة للتنقل في بالي. وقررنا الاعتماد على الـ (GPS) للوصول إلى الأماكن التي قررنا زيارتها.

- هيا يا حبيبتي نتجوّل بالـ (Scooter) لنلقي أولاً نظرة عامة على المنطقة المحيطة بنا،

- حسنًا وماذا سنفعل بعدها؟

- سنتوجه لزيارة أول وجهة لنا، وهي معبد (تاناها لوت)، ومعناها هو (معبد الأرض الواقعة في شرق البحر)؛ لأنه بالفعل يقع على صخرة كبيرة تشكَّلت في قلب المياه بفعل المد

والجزر، وبُنِي في القرن الخامس عشر.

- رائع، أنت تعرف هذه المعلومات، يبدو أنك تحب هذه الأماكن.

- طبعًا، وأجهّز لك مفاجآت أيضًا، وأحفظ كل مكان سنذهب إليه.

ابتسمت وأنا أفكر أن من الأشياء المبهجة في علاقتنا أننا نحمل نفس الاهتمامات في كل شيء تقريبًا، فلم نختلف على ترتيب برنامج رحلتنا نهائيًا. بالعكس، كنا نتطّلع إلى رؤية نفس الأشياء، فكانت زيارة المعبد رائعة، واهتمامنا بتفاصيل كل شيء، وكان (هشام) مطلعًا على الكثير في الديانة الهندوسية، فشاركني الكثير من معلوماته عنها في أثناء الزيارة.

بعد أن انتهينا، ذهبنا لتناول الغداء، وعُدنا إلى الفندق مبكرًا حتى نلعم بقسطٍ جيدٍ من النوم والراحة إثر عناء السفر لساعات طويلة، واكتشفت خلال سويغات زواجنا القصيرة، أن (هشام) شخصٍ محبٍ للعناق، يفعل ذلك بشكلٍ تلقائيٍّ ومحبّبٍ للنفس كثيرًا، لكن المشكلة أنني لم أتعود قط على التعبير عن الحب باللمس! لم أحظ بالأحضان في حياتي كلها مثلما حظيت بها في مدة زواجنا القصيرة! كان هذا شيئًا جديدًا عليّ، وكنت أمل أن أعتاده وألفه مع الوقت. وكنت أعلم أن لهذا علاقةً بكوني قضيتُ معظم سنوات عمري خائفةً من الاقتراب والانغماس، لكنني أريد التغلّب على تلك السمات غير الإنسانية في هذا الجزء من شخصيتي، التي حوّلتني إلى (روبوت) مع الوقت.

كنتُ أشعر بالامتنان لمجرد وجوده نائمًا بجواري. ظللتُ أتأملُه فترةً طويلةً، حتى إنني سخرت من نفسي بأنني أبدو كقاتلٍ مُتسلسلٍ يتأمل ضحاياه، وأن هشام سيصحو، ويجدني أحدق فيه بمقلتيّ الواسعتين ويدعر. فضحكت عند الخاطرة، وأغمضت عينيّ بين ذراعيه، وغصتُ في نوم عميق.

في الأيام التالية، تمثَّعنا بكل ركن في (بالي)، فزرنا معبد (بورا أولان دانو براتان)، وهو هندوسي أيضًا، ويقع في بقعة ساحرة تؤثر في النفس وتخلب العقل، كمعظم (بالي) تقريبًا. كان المعبد على ضفاف بحيرة (براتان) المحاطة بالجبال قُرب منطقة (بيديغول)، ومارسنا السباحة مع الدلافين، وكانت من أجمل الأشياء التي قمْتُ بها في حياتي. وذهبنا لزيارة منطقة (سفاري بالي)، ولهوت كثيرًا مع القروء، وكان (هشام) ينظر إليَّ بعين محبَّة مستمتعة بكل ما يبدر مني، وخصوصًا كل أفعالي الطفولية. وكنتُ أشعر بالراحة في تدليل طفلي الداخلية أمامه؛ فقد كان يعرف أنني لم أعش طفولتي الطبيعية قط، وكنت في أوج انطلاقي الآن، وكأني طفلة في الخامسة من العمر. ولهونا كثيرًا معًا في الحديقة البحرية في (جيانيار) التي تُعتبر من بين أكبر حدائق الحيوانات في جنوب شرق آسيا.

وفي آخر يوم لنا في (بالي)، كنت حزينةً كطفلةٍ سوف ترحل من الملاهي؛ لأن موعد إغلاقها قد حلَّ. فاستيقظت عابسة، ونظرت إلى (هشام) الذي كان يحاول الإفاقة، فقال لي:

- تُبدين حزينة؛ لأننا سنرحل!

قلت مقطبةً:

- نعم، اللعب هنا لا ينتهي، سنعود مجددًا للعمل.

- سنسافر مرة أخرى أعدك بذلك، كلما أتتنا فرصة للسفر سنختار مكانًا ونذهب إليه وتمرحين كما تريدين، وبالمناسبة القاهرة بها أماكن كثيرة للعب واللهو أيضًا، سنذهب إليها وقتما تريدين.

قلت بابتسامة ودلال طفولي:

- اتفقنا، ماذا سنفعل اليوم؟ نرتاح قليلًا على أي شاطئ؟

- أولاً: اشتريت لك هدية وأريدك أن ترتديها الآن.

قمتُ مسرعةً إلى المكان الذي أشار إليه، وفتحت العلبة، ووجدتُ فستانًا أبيضَ قصيرًا مصنوعًا من الزهور، وله عقد من زهور عباد الشمس، وتاج للرأس مصنوع أيضًا من نفس الزهرة.

أطلقت صيحات انبهار؛ فلم أتخيّل يومًا أن أرثدي شيئًا يمثل هذا الجمال. ووسط نظراته السعيدة، بدأت في ارتدائه، ونظرت في المرآة كي أضع تاج الزهور بشكلٍ يناسب شعري المجعد المتدلي على ظهري. اجتاحني شعور لا تصفه الكلمات، وأردت الطيران! وأخذت في الالتفات يمينًا ويسارًا مستعرضةً جمالي، فلم يكن هناك شيء في العالم قادرًا على زعزعة ثقتي بنفسي مرة أخرى.

سرعان ما شرع (هشام) في ارتداء ملابسه المكوّنة من قميص بأكمام قصيرة أزرق بلون السماء، وشورت أبيض ناصع، وتوجّهنا للإفطار، وبعدها انتهينا ذهبنا إلى الشاطئ، فوجدت العديد من سكان الجزيرة بأثوابهم الرائعة يصطفون في صفين، ممسكين بطبول صغيرة، وتتناثر الورود ذات الألوان المبهجة على الرمال، ممزوجة بنجوم البحر المجففة. وفي نهاية الصف، كانت هناك كوشة مزينة بالورود شديدة الجمال، توجّهنا إليها وأنا في حالة من الانبهار من روعة الموقف. وقفت معه ممسكةً بيده، وبدأ قارعو الطبول في عزف أغنية محلية شديدة العذوبة بأصواتهم الرخيمة ولكنتهم البديعة. وقال لي (هشام) وهو ينظر في عيني نظرة جعلت قلبي يخفق في قدمي:

- أعلم أنك مثلي لا تحبين الأفراح، لكن هذا ليس فرحًا صاخبًا تقليديًا، الفكرة جاءت لي منذ أن قرّرنا أن نساغر لـ(بالي)، وأردت أن أحتفظ بها لتكون مفاجأة لك في اليوم الأخير، أحبك يا مها، وسأظل أحبك حتى آخر يوم في عمري، هل تقبلين أن تكوني رفيقة رحلتي ونكبر معًا؟

- أنت دائماً تعرف ما أنا بحاجة إليه، لم أتخيل يوماً أنني يمكن أن أحب فرحاً وخاصةً فرحي، هذه أجمل مفاجأة تحدث لي، أحبك وسأظل أحبك حتى أموت.

قبّلني قبلة خفيفة رقيقة حانية، مثله تماماً، فشعرت بأنها أول قبلة لنا! وقضينا اليوم بأكمله على الشاطئ، حتى حان وقت الغروب، فعدنا إلى غرفتنا لتجهيز الحقائب، وودّعنا (بالي) على أمل بلقاء قريب.

٣

استقبلنا (مروان) في المطار، وتبادلنا المزاح والمشاكسة كالعادة. وعندما وصلنا، ألقينا التحية على (وزّة)، التي غمرتني بالأحضان والقبلات قبل هشام، وكانت قد ملأت ثلاجتنا بالطعام الجاهز للتسخين فقط، وقابلنا هذا التدليل بالامتنان. ووجدت قطتي تستقبلني بلهفة وشوق أكثر من العادي؛ فلم أغب عنها كل تلك المدة قط، وكانت (وزّة) ترعاها وتُدلّها في أثناء غيابنا، فكنت مطمئنة عليها كثيراً. وشرع كلُّ منا يتفقد أخبار عمله بالهاتف والإيميل، ووجدنا الكثير من رسائل التهنئة تملأ هواتفنا. واستغرقنا وقتاً في الرد عليها، حتى حلّ موعد الغداء، فتطوّع (هشام) لتسخين الطعام وإعداد المائدة.

- سأعتاد هذا التدليل، ونحن مسافرون كنت تفعل كل شيء بنفسك، حتى الشنط كانت مشاركتي في ترتيبها شرفية.

- اعتادي لا يهكم. أنا نشيط ولا أحب أن أبقى دون حراك.

- خلاص، بما أنك مثلي في النشاط، فلنتبادل الأدوار، كل واحد منا يجهّز وجبة.

وجذبتة، وأعطيته قبلة ممتنة، فابتسم وبادلني مثلها، ثم جلسنا نتناول وجبة (وزّة) الشهية. وكم كانت بارعة بحق في الطهو.

كنت أتأمل الوضع الجديد، وكوئي تعوّدت الوحدة طيلة عمري، فكانت مشاركة شخص في كل شيء تجربة جديدة قرّرت أن أستمتع بها، وأن أترك الوقت يعلّمني التأقلم مع ذلك. فعندما ذهبت مثلاً إلى المطبخ وجلبت بعض القهوة من ماكينة الاسبريسو، وهممت بالخروج، تذكرت أنني لست وحيدة، ومن الذوق أن أسأل (هشام) إن كان يريد البعض. ذهبت لسؤاله في أثناء عمله في غرفة مكتبه، فأجاب بنعم، ففرحت أنني انتبهت لذلك الأمر.

مع الوقت، تعوّدت رويدًا رويدًا على أننا نعيش معًا؛ والحق أنني حتى عندما كنتُ أغفل عن ذلك، لم يكن (هشام) يشعر بالضيق؛ فلقد سألته مرارًا، وكان يجيب بنفس الجدية كل مرة أنه غير مُستاء، ويتفهّم تمامًا أنني أحتاج إلى وقت كي أتأقلم على ذلك. ومرت أول ستة أشهر في حياتنا بسلاسة، عكس كل ما يُشاع عن أول فترة في الزواج، فلم نتصادم؛ لأننا اتفقنا على إرساء التفاهم كقاعدة في كل شيء. وأي شيء وجدنا فيه اختلافًا كنّا نجلس بشكل هادئ ونطرحه للنقاش بشكل موضوعي. ولم يكن هذا بالكثير؛ حيث إن بيننا توافقًا في الطباع والعادات بشكل كبير، وأسهم التفاهم في تجاوز أي شيء استثنائي.

سار كل شيء على ما يُرام، حتى فوجئتُ بعد الشهر السادس بحملي! حمل غير مخطّط له على الإطلاق!

لأكثر من ساعة كنتُ أنظر إلى اختبار الحمل بوجوم شديد، والأفكار تتصارع في رأسي. لقد كان اتفاقنا من قبل الزواج أن الحمل لن يحدث إلا عندما نقرّر أننا على أتمّ الاستعداد لذلك، ونحن لم نستعد لذلك بعد؛ على الأقل أنا لم أستعد نهائيًا!

كنت قد صارحتُ (هشام) بمخاوفي من الحمل، لكنه طمأنني، وأحضر لي الاختبار المنزلي كي يطمئن قلبي، والآن أنا فزعة، و(هشام) في الغرفة نائم؛ فالوقت لا يزال مبكرًا. أنا فقط شعرتُ بالقلق في السادسة صباحًا مع رغبة مُلحة في التبول، فقممت وانتهزتُ الفرصة كي أقوم بهذا الاختبار المنزلي اللعين!

كم أتمنى الصراخ وكسر هذا الشريط الغبي! ما الذي يجعل لهذا الشريط كل تلك الأهمية حتى يتحكّم في مسار حياتي طيلة السنوات المقبلة؟!

خرجت من الحمام وأنا لا أقوى على حمل جسدي، وتوجّهت إلى ماكينة القهوة، وأخذت بعضًا منها. دخلت إلى الشُرْفَة، وأنزلت التندة، وجلست واجمة. لا بدّ من أن أتخلّص منه، لا بد. لن أستطيع أن أكون أمًا حاليًا. ولربما لن أستطيع في أي وقتٍ. شعرت بوجود (هشام) بقربي في أثناء انهيار الدموع من عيني. جلس بجواري، واحتضني قائلاً:

- الاختبار إيجابي، أليس كذلك؟

قلت بعد دقيقة من الصمت والبكاء:

- نعم.

ساد الصمت بيننا لدقائق، وأحضر لي (هشام) بعض المناديل الورقية لتجفيف دموعي وأنفي الذي غطى مخاطه وجهي. فلم أكن أشعر بأي شيء سوى الرعب. اجتاحتني فجأة برودة دفعتني إلى الارتعاش. وكان (هشام يضمّني) بقوة لم تفلح في تدفئتي. كنت أشعر بأن كل شيء على وشك الانهيار. فتحت فمي أخيرًا لألقي قبليتي.

- لن أحتفظ به.. سأجهضه.

قال بعد دقيقة من الصمت:

- حَقِّك؛ لأنه جسدك، لكن السؤال: يا ترى -بحكم أنه طفلنا معًا- أليس لي حق أن أقرر معك؟

صحتُ فيه بغضب:

- أنتِ قُلْتها... هذا جسدي، هل ستشاركني به؟! تشاركني في قرار سأتحمل تبعاته بمفردي؟

نظر إليّ (هشام) بدهشة، وقال وهو يربت على كتفي:

- يا مها هو جسدك وحقك لا أنكر ذلك، لكن هذا الطفل مِنَّا؛ أنتِ وأنا، وطبيعي أن يكون قرارنا مشتركًا. أنا لا أعارض إجهاضه، لكن أعارض أنك تأخذين القرار بشكل منفرد، وتتحدثين بصيغة فردية، وحتى مبررك تستخدمين فيه صيغة المفرد! ولماذا ترين أن تبعاته عليك بمفردك؟

أنزلت ذراعه من على كتفي، وأجبتُه بغضبٍ أكبر:

- لأنني أمه وأنا التي ستحملة فعلاً، ما الغريب في كلامي الواضح جدًّا ولا يحتاج إلى توضيح؟!

هرعتُ إلى غرفة النوم بَعْتَةً، وأغلقت الباب خلفي، وجلست في الفراش أكمل بكائي. طرق الباب (هشام) عدّة مرات، فصحتُ به في كل مرة من مكاني كي يرحل إلى أن يئس!

مرث ساعتان وأنا على هذا الوضع، لكنني كفتُ عن البكاء، وبدأت في الشعور بالهدوء بشكل نسبي، وعاد رأسي للعمل مرةً أخرى بعد توقُّفٍ دام ساعات. شعرت بأنني كنت قاسيةً على (هشام)، وبأنه كان مُحَقًّا في أن القرار لا بد أن يكون مشتركًا؛ فهل إذا كان هو مَنْ يحمل الجنين وأتخذ هذا القرار بمفرده، هل كنت سأشعر بأنه مُحَقٌّ في اتِّخاذ القرار وحده؟ كانت الإجابة لا بالطبع. فقررتُ أن أذهب وأتحدّث معه بهدوء كي أحلّ تلك المعضلة التي جاءت في وقت غير متوقع.

اقتربتُ منه بهدوء، وقلت له بصوتٍ خافتٍ:

- أنا آسفة.. طريقتي كانت سيئة، ولم يكن هناك مُبرِّر أن أتحدّث بهذا الأسلوب!

فقال وهو يحتضنني لكن لا تزال على وجهه علامات الغضب:

- لا عليكِ يا حبيبتي، بماذا تشعرين الآن؟

- لا بأس، أنت تغير الموضوع لشعورك بالضيق، أليس كذلك؟

- ضيقي ليس منك، رد فعلك كان غصبًا عنك، أنا وضعت نفسي مكانك ومنتفهم رُعبك. الموقف نفسه ضايقني؛ لأنه حَدَثَ في وقت نحن غير مستعدين له. وحتى إن لم يكن لدي مشكلة -وهذه حقيقة- فأنا أقبل كل الأوضاع معك يا مها، لكن أنا أعلم أنك غير مستعدة ولا قدرة على هذا حاليًا، وهذا أزعجني وأخشى عليك من الإجهاض؛ لأن مخاطره الصحية كبيرة، وأنتِ عندي أغلى وأهم شخص. وحزين أيضًا من أنك تجاهلتِ وجودي وتأخذين قرارات منفردة.

احتضنته أنا أيضًا بقوة، وجلست بين ذراعيه، وصمتنا لدقائق كنت أفكر خلالها في حل لتلك المعضلة. وكانت الأفكار تتصارع في رأسي بسرعة رهيبية. ووسط زخمها، كنت أشعر بأنها تدفعني وكأنه شجار حقيقي بين شخصين؛ شخص يريد التخلص من هذا الجنين؛ لأنه سيجسد كل ما عانيته من آثار الأمومة المريضة أمامي، وشخص آخر يهمس ويقول: «أنتِ مختلفة عنها كليًا. لِمَ لا تجربين الاحتفاظ به؟». فيقوم الأول بدفعه والصياح قائلاً: «إن حياة هذا الطفل ليست محلًا للتجارب، وإن نتيجة التجربة لو فشلت فستكون عاقبتها تدمير هذا الصغير للأبد». قاطع أفكاري صوت (هشام) قائلاً:

- سنبحت عن طبيب جيد ونذهب إليه نفهم منه حالتك الصحية، وما الحل الآمن لنزول الجنين دون أن يُسبب لك أذى. لكن أرجو أن تتفهمي أنني لن أقبل أي حل يحمل أذى صحيًا لك، وهذا ليس له علاقة بالجنين، لقد تزوجتك أنتِ وأحبك أنتِ، ولن أقبل أي مخاطرة تجعلني أفقدك يا مها، لن أقايض حياتك بأي شيء.

- موافقة.

في مساء ذلك اليوم، كان (هشام) قد حجز لي عند طبيبٍ كان صديقًا لوالده، وكنا متعجلين؛ لأن أي تأخير يعني صعوبةً في الإجهاض. وذهبنا إلى عيادة الطبيب في الموعد

المقرّر ونحن في حالة من التوتر، حاولنا تخفيفها بالمزاح في الطريق، لكن ظلّ التوتر سيّد الموقف.

دلفنا إلى غرفة الكشف، وبعد ترحيب د. سالم بنا، طرحنا عليه المشكلة، وباشر في الكشف عليّ للاطمئنان على الوضع العام. وبعد انتهائه، جلسنا لمناقشة الوضع؛ فابتدأ دكتور سالم الحديث بقوله:

- أنا مُقدّر الموقف بالطبع، ومتفهم أن هذا الحمل غير مُخطّط له، لكن بداية لا بد أن أقول لكما الوضع الصحي العام، أولاً: مدام مها حالتها الصحية جيدة، والجنين أيضاً حالته جيدة؛ أي لا توجد عواقب صحية لاستمرار الحمل. بالنسبة للإجهاض، سأحدثكم بصراحة من منطلق الواجب والضمير؛ الإجهاض -في حالة مثل حالة مدام مها- مُخالف للضمير والالتزام المهني والقانون، وأنا لا أستطيع مخالفة أي منهم. هل هناك أمل أن تراجعوا قراركم بالإجهاض؟

كان كلامه موجّهاً إلينا، لكنه نظر إلى عيني عند طرحه سؤاله الأخير، وكانت نظرة تجمع بين الإشفاق والرجاء.

قلتُ بسرعة:

- نعم يا دكتور يوجد أمل. في اللحظة الحاليّة أنا أريد الاحتفاظ بالجنين.

نظر إليّ (هشام) بدهشة، لكنني لمحت أيضاً وسط الدهشة راحة كبيرة، تحوّلت إلى ابتسامة فورية مطمئنة. الابتسامة التي لطالما جذبتني لا إرادياً إليه وأوقعتني في حُبّه. ووجدته يقول موجّهاً نظره إلى الطبيب:

- وأنا أتفق مع مها في الرأي.

فابتسم الدكتور سالم بارتياح وقال:

- رائع، الإجهاض مهما كانت حالة الأم الصحية جيدة مُخاطرة غير محسوبة، وعواقبه ليست مضمونة، وهي مُجرّمة لهذا السبب بدايةً، بغضّ النظر حتى عن الوازع الديني.

ونظر إليّ وهو يردد:

- سيدة مها، ستضطرين لتناول أدوية؛ لأن الحمل بعد الأربعين تكون به بعض المخاطر رغم أن الفحص يقول: إن صحتك على ما يُرام، لكن سنتناول الأدوية على سبيل الاحتياط، وسأتابعك كل أسبوعين.

- حاضر يا دكتور، اتفقنا.

وبدأ في كتابة العقاقير الطبية التي سأخذها. وفي أثناء ذلك تبادل معي (هشام) نظرةً متسائلةً، فأجبتها بابتسامة هادئة. وما إن انتهى الدكتور، حتى تبادل معه (هشام) حوارًا وديًا عائليًا، يتساءل فيه عن أحوال الأسرة جميعًا، وهممنا بالنهوض كي لا نأخذ من وقت باقي المرضى.

في أثناء انتظار المصعد، لم يتمالك (هشام) نفسه من سؤالي بفضول:

- لماذا؟

فأجبت بهدوء:

- السونار... حين رأيته شعرتُ بأنني أحبه جدًّا، ولا أريد التفريط فيه.

- أحبك.

- وأنا أيضًا.

وصل المصعد في تلك اللحظة، فدلّفنا إليه، وساد الصمت بيننا لوجود ركاب آخرين. وحين
خرجنا من البناية، هرولنا إلى السيارة بسعادةٍ طَفَتْ فجأة، وكأن ما يحدث منذ الصباح كان
كابوسًا مزعجًا أفقنا منه، وعُدنا إلى حالتنا الطبيعية!

الفصل الحادي عشر

«إنَّ أرقَّ الألحان وأعذب الأنغام لا يعزفها إلا قلب الأم».

بيتهوفن.

١

في نفس اليوم الذي عُذنا فيه من عند الطبيب، جلستُ مع (هشام) في جلسة أشبه بالعصف الذهني. قررتُ مصارحته بكل مخاوفي قبل أن أُصرِّح بها حتى للدكتورة جيهان.

- سأُتحدث إليك دون تفكير كي يخرج الكلام بعفوية، اتفقنا؟

- تحدّثي على راحتك، وهذا سلوك سليم؛ لأنك أحياناً تواجهين مشكلة في التعبير عن مشاعرك.

- صحيح. طبعاً أن أكون أمّاً، فهذا يُوقظ بداخلي كل المخاوف، ليست انتكاسة قدر ما هي مخاوف مواجهة طبيعية؛ لأنني سأصبح في مكان أمي، التي هي في الأصل سبب كُفري بالأمومة كلها تقريباً.

- أفهمك تماماً، فأم كافرة بالأمومة تبدو مثل شيخٍ أو قسٍّ كافر بدينه! كيف سيجعل الناس يؤمنون وهو نفسه غير مؤمن؟!

- بالضبط، كيف سأجعل أولادي يحسون بالأمومة وأنا لا أعرفها ولم أرها؟ صحيح أنني رأيت عن طريق أصدقائي نماذج جيدة، وعن طريقك رأيت (وزّة)، وهي نموذج مبهّر، لكن أين أنا من هؤلاء؟

- لا تغفلي أنك عُولجت بشكل جيد.

- نعم، صحيح أنني تعالجت، وحتى السمات النرجسية الناتجة عن تربيته معها عالجتها، ولكن ما الذي يضمن أنني بعد أن أنجب لن أستحضرها بشكل لا إرادي، هل تعلم مدى الأذى الذي سيتعرض له الطفل؟ لا أريد أن أكون اليد التي تبطش وتدمر أي أحد.

- لن تكوني كذلك صدّقيني.

- طيب لنفترض أنني كنت جيدة معه بشكل زائد عن اللزوم وجعلته لا يرى سوى نفسه، وأصبح طفلاً نرجسيًا، أليس من الوارد أن أعلمه النرجسية؛ لأنني لا أعرف قواعد التربية السليمة ولا السوية، وبالتالي قد أصبح سببًا في بلاء وشقاء أشخاص آخرين على يد الطفل الذي قمتُ بتربيته؟!

- خوفك يغالبك الآن.

- أنت لا تدري أنني استمعت إلى مهازل من الجلسات الجماعية، ومن أصدقائي ومعارفي عن الأذى الذي تعرّضوا له على يد النرجسيين، سأذهب للدكتورة جيهان، وأستشيرها مثلما اتفقنا، أنا تناسيتُ هذا الأمر من الصدمة والغضب والإنكار، لكن وقت الجد أنت شريك في تربية الطفل، ومن حَقك الاطمئنان على مصيرهم، ما أعدك به أن أسعى لتطوير ذاتي كي أقدم للعالم نموذج إنسان جيد، لكن إن لم أستطع، أرجو منك أن تواجهني ولا تتركني أجعل الأمور تسوء أكثر.

- أقرُّ قبل أي شيء بأن مخاوفك من حَقك ومشروعة، وليست مَثار استغراب بالنسبة لي. أنا لستُ طبيبًا، لكن أكاد أجزم بأن هذا نتاج طبيعي لما مررت به، أتفهمه، وكلي أكون أميًّا معك، ليس دوري أن أقول: إن كلمك صح أو خطأ، لديك طبيب تعودين إليه، وهو الذي سيفيدك.

- أشكرك على دعمك.

- ما أستطيع قوله بثقة هو أنني بجانبك، صوتي إليك سيكون صوتًا حقيقيًا غير مزيف، سأصارعُ حال رؤيتي لشيء خاطئ، وأنبهك لذلك، أنا أثق بك وأنتِ لديك أخلاقيات تمنعك من التماذي في الخطأ.

- جميل أن تعدني بذلك.

- حبيبتي، أنا أعلم أنّ مها التي أحبها بشرّ تخطئ وتُصيب حتى وهي أم، وهذا طبيعي، وفي نفس الوقت واثق من أنكِ حينما ترين الخطأ ستحاولين تصحيحه والعودة إلى المسار السليم.

مها، أنتِ ما زلتِ تُراجعين طبيبتك حتى الآن بسبب إصرارك على التخلُّص من أي شيء مؤذٍ، وهذا مؤشر على أنكِ ستظلمين تفعلين ذلك حتى بعد أن تصيري أمًّا، ولن تستسهلي القرارات الخطأ بخصوص ابنتنا أو ابننا، صراحة، أنا أيضًا قلق من الأبوة.

- هل فكرت بنفس طريقتي في التخلُّص من الجنين؟

- بصراحة لا؛ لأنني لستُ خائفًا بنفس درجتك، لكن هناك قلق. لا أخشى أن أكون مثل أبي، ولكن أخشى ألا أكون قدر مسؤولية رعاية طفل، أخشى ألا أكون مُتزنًا ومعتدلًا في تربيته. حين قلتِ للدكتور سالم إنك تريدان الاحتفاظ بالطفل، فكرتُ فورًا في الذهاب للمعالج وأن أبدأ في قراءة كل ما له علاقة بالأبوة. تستطيعين أن تقولي إنني أريد تطوير ذاتي، وأنتِ أيضًا تطورين ذاتك، سندعم بعضنا يا حبيبتي، وستجاوز الأزمة، أنا واثق، وحتى لو لم نتجاوزها، سنظل معًا مع بعضنا في السراء والضراء.

ثم طَبَعَ قُبْلَةً حانيةً على جبيني، وجذبني برقة، وأجلسني بين ذراعيه في سُكُون.

في الأسبوع الذي أعقب هذا الحدث، كان موعد جلستي مع د. جيهان، وقد مرَّ شهران على آخر جلساتها؛ إذ إنها أخبرتني في وقت سابق بأنني لم أعد أحتاج إلى جلسات منتظمة، وأني أستطيع القدوم متى أحسستُ بالحاجة إلى ذلك. طرقت بابها، وسمعت صوتها يأذن بالدخول.

قالت لي بابتسامة مرحة:

- أهلاً يا مها، كيف حالك؟ تفضلي اجلسي.

- كيف أحوالك يا دكتورة؟ أنا بخير الحمد لله.

- أخبريني، ما الذي أتى بك اليوم؟

أجبتها ببعض الوجود:

- أنا حامل.

- ألف مبروك يا حبيبتي. وجهك يقول كل شيء، قلقة طبعاً؟

- مرعوبة. أنت تعلمين أن مسألة الإنجاب بالنسبة لي كانت من أهم أسباب امتناعي عن الارتباط، وقلتُ لك عن اتفاقي مع (هشام) ألا يحدث حمل إلا لَمَّا نستعد. لكنه حدث رغماً عنا، ورغم كل الاحتياطات.

- وارد طبعاً أن يحدث حمل مع كل الاحتياطات، حتى الآن لا توجد 100% في وسائل المنع. وواضح أن هذا أربكك، صفي لي باستفاضة بماذا تشعرين؟ غير الرعب يا مها.

- أولاً أنا أشعر بالذنب.

تساءلت متعجبة:

- لماذا يا مها؟!

- لأنني فور أن عرفت بالحمل، قررت أن أجهضه، دون أي وازع أخلاقي، فكرت في إجهاضه ببساطة!

أكملت مازحة، لو قام (إيمانويل كانت) من مدفنه كان سيقول لي: خسارة كل كتب الأخلاق التي قرأتها!

قلت جملتي الأخيرة، وضحكت ساخرة من نفسي.

قطبت د. جيهان وقالت:

- مبدئيًا، جلدك لذاتك على مجرد الفكرة ليس أفضل شيء تقدمينه لنفسك يا مها، منذ متى يُحاسب الإنسان على الأفكار التي لم ينفذها؟ يا مها، الإحساس بالذنب من مجرد الفكرة، هو أحد المشكلات التي سبق وقتلناها طرْحًا وبحثًا، وأنتِ بالفعل كنت تخلصتِ منها. ما أتى بك إلى هنا هو أن الفكرة تماست مع مخاوفك أن تكوني أمًّا سيئة من البداية.

- معك حق. وربما بداخلي شيء يدفعني -دون أن أشعر- إلى أن أفكر في أنني سيئة مثلما أخشى أن أكون، يا إلهي! هل سأعود لنفس الدوامة مُجددًا؟!

وصمتُ وأنا دامعة ذاهلة.

- ومن قال لك إننا سنعيد الأمور من البداية؟ كل الموضوع أن الجروح القديمة التي أغلقناها لو داس أحدٌ أو شيءٌ على مكان الندبة فإننا قد نتألم، كل ما تمرين به طبيعي خاصة في حالة مثل حالتك، أنتِ فكرت هكذا بسبب دُعرك من تجربتك مع أمك، الذعر ليس له كبير يا مها، الخوف حين يسيطر علينا يذهب بنا لمناطق في التفكير لم نكن نتخيل أن نصل إليها. والخوف مشاعر إنسانية طبيعية جدًّا، وأنتِ حين تداركت ذلك، لم

تقبلي أي فكرة طرأت عليك وقت الخوف وفعلت ما يتوافق مع أخلاقيات مها، إذن فالمطلوب أن تسامحي نفسك وتتوقفي عن جلدِها.

- لكنني لم أراجع عن قراري بسبب أخلاقياتي. أنا رأيتَه في السونار، ودقَّ قلبي له، وأدركت أنني أحبه. سبب أناني جدًّا من وجهة نظري. يا ترى لو لم أره وأخذت قراري أين كنت سأصبح؟

- غيَّرت رأيك؛ لأنك شعرت بأنك تحبينه وغازبة من نفسك؟! ما قمت به اسمه الأمومة الحقيقية يا مها. وأي مشاعر بها بعض الأناية، جزء مما نقدمه أو نشعر به يكون من أجلنا ويكون أناية صحيَّة أيضًا، ليس مطلوبًا أن تكون كل أفعالنا خالصة من أي احتياج داخلي، كونك أدركت أنك تحبينه فهذا رائع، نتفق معًا في أننا نغمس في الواقع، الأرض الصلبة الخاصة بنا، ونتمسك بها، وأي فكرة غير واقعية خاصة من هذا النوع تبعدنا عن الأرض علينا أن نتخلص منها، سنعيش اليوم، ونستمتع بكل تفاصيله، ونندمج فيما نفعله حاليًّا، ولا نفكر في غيره. بماذا تشعرين حاليًّا؟

- أنا أحبه، وسأحتفظ به، وسأطوّر نفسي كي أستقبله بشكل جيد، أشعر بقلق لكني سعيدة.

- ممتاز. قولي لي كيف ستفكرين في تطوير نفسك؟

- سأقرأ كثيرًا كيف أكون أمًّا جيدة، سأقوم بتمارين بانتظام كي أركّز على الواقع، وأطرد الأفكار السلبية، وأغلق نافورة هذه الأفكار التي انفجرت بفعل القلق.

- هذه خطوات جيدة، وستستطيعين يا مها، أنا أعرفك جيدًا، وصدّقيني، أحيانًا الأمور غير المخطط لها يكون وقعها أجمل من مسبقة التخطيط، ولك في معرفتك بهشام عبّرة، استمتعي بالمفاجأة، واستعدي لها بهدوء وروية.

- اتفقنا، وسأزورك هذه الأيام؛ لأنني قلقة.

- سأنتظرك في العيادة في أي وقت.

- شكرًا يا دكتورة. أراكِ على خير.

ونَهضت مُلقية السلام، وتوجهت إلى الباب للخروج.

٣

أمضيتُ الأيام التالية لتلك الزيارة في إنهاء الكثير من مشاريع عملي، حتى لا تصبح معلقة إذا ساء وضعي الصحي لأي سبب؛ فلا أريد أن أخسر السُّمعة التي ناضلت لأجل بنائها في عملي. وكانت العلاقة بيني وبين (هشام) سعيدة هادئة، و(وردة) أصبحت بمنزلة أمِّ لي لم أحظَّ بها قط؛ إذ كانت دائمًا تراعي شئوني من بعد الحمل، من أول إرسال السيدة الكريمة التي تساعدها في شئون المنزل لمساعدتي أيضًا، حتى شراء الملابس، وأي شيء أحتاج إليه وأشعر بإرهاق فلا أستطيع النزول للحصول عليه. بدأت أعتاد مشاعر الإرهاق والرغبة في النوم مع الوقت، رغم محاولاتي لمقاومتها أول المطاف، لكن ما لبثت أن اقتنعت بأنها تغييرات خارجة عن إرادتي، وأن تسليمي بها شيء منطقي وإنساني.

خصّصت وقتًا يوميًا لقراءة كل ما يتعلّق بالأم والطفل، وكنثُ أتعجّب من كمّ ما تستطيع الأم أن تقدّمه لطفلها، فلم أحصل على ذلك قط، لدرجة أنني أصبحت مقتنعة أنني (ناجية Survivor)، كما كان يقول لي الأطباء النفسيون، وكنت أحسبها كلمة تشجيعية للتربيت على ألمي، لكن كلّمًا تعمّقت بالقراءة وجدتُ أن هذا اللفظ يليق بما حدث وبما وصلت إليه.

- ماذا تقرئين؟

جلس (هشام) بجواري وكان يبدو واجمًا قليلًا.

- سأحكي لك، ولكن قل لي ماذا بك؟

- لا شيء، بعض الإرهاق واحتاج إلى بعض الراحة من العمل، احكي لي أنتِ كي أشغل رأسي بأمور أخرى غير العمل؟

- ما قرأته حتى الآن في كتاب (الأم غير المتاحة عاطفيًا)، أنَّ الأم هي شجرة الحياة، توفر المأوى والمنزل والحماية. شجرة يمكنك تسلُّقها بحق، وتناول الطعام من أعلاها! وفي التقاليد الصوفية العالمية، شجرة الحياة هي المحور الرئيسي الذي تدور الحياة حوله. كذلك هي الأم؛ فهي المحور الذي تدور حوله الأسرة، وتدور حياة الطفل العاطفية حوله أيضًا. ولكن هذا لا ينفي حاجة الأم لتطوير نفسها بعيدًا عن الأمومة؛ فلا بد من تلبية احتياجاتها الأخرى أيضًا بشكل جيّد، وأن تسعى إلى ذلك؛ لأن الأم غير المُشَبَّعة من باقي النواحي الحياتية، قد لا تستطيع بالضرورة تلبية احتياجات طفلها. وكذلك فهناك أسباب مشروعة قد لا تُمكن المرأة من أن تكون مؤهّلة أو مستعدّة للأمومة، مثل الحمل عن طريق الخطأ؛ فذلك يجعلها تشعر بأنها لم تُمنح اختيارًا، فلا بد في هذه الحالة أن تتلقّى الأم المساعدة حتى تؤهّل إلى القيام بذلك.

- وأنا متفق مع هذا الكلام؛ ولذلك أطلب منك أن تركزي في عملك وتمارسي كل هوايتك.

- أنوي فعل ذلك، والمعلومات التي أكتسبها بمنزلة طوقِ نجاةٍ لي، فكنت أروي ظمئي بها، وأشعر بالأمل في أنني سأصبح أمًا جيدة إذا وازبنت على العلاج التأهيلي لذلك، فكان ذلك في حدّ ذاته دافعًا لي كي لا أنزلق في الإحباط والاستسلام لكل ما حرّصتُ على التخلُّص منه طوال سنوات علاجي الطويلة.

وقمتُ فجأة من جوار (هشام)، وذهبتُ إلى المرأة الطويلة الموجودة بجوار باب المنزل، ونظرت إلى وجهي نظرةً مطوّلةً، وابتسمت وقلت بصوتٍ مسموعٍ لنفسِي:

- أنتِ الآن كأعمدة الخلق التي تولد منها النجوم الجديدة في الفضاء.

جاء (هشام) من ورائي واحتضنني، فضحكت. وهمس في أذني:

- أنتِ بالنسبة لي إلهة الجمال والحكمة والفلسفة. لكن هل يمكن أن تقولي لي ما هي أعمدة الخلق؟ أول مرة أسمع عنها.

استدرت إليه وقلت:

- اسمع، (ناسا) اكتشفت منطقة تولد نجومًا جديدة، وأسمتها (أعمدة الخلق)، والواحد منها بعرض المجموعة الشمسية كلها. وأنا أشعر أنني سأكون للطفل مثل هذه الأعمدة، وقلت: إنه نوع من التغيير عن مصطلح (شجرة) الذي أقرؤه في كتب الأمومة.

- هل أدركت لماذا أحبك أكثر كل يوم؟ أنت تمارسين الفلسفة في علاقتك بالطفل قبل أن تربيه، هل هناك جمال مثل هذا؟

- نعم يوجد. أنتِ.

وقبّلته، ثم قاطعنا صوت رنين هاتف (هشام)، فاستأنن بالرد وأفلتته. كان المتحدث (وزة)، فقد أعدت لنا غداءً شهياً، وتتمنى أن ننزل ونتناوله معها، فأجبت بصوت جهوري كي يصل إليها:

- حالاً يا (وزة). لا تجعلى (مروان) يبدأ بتناول الطعام قبل أن نصل!

٤

شاركني هشام بخطواته في الاستعداد للأبوة بحماس مثلما كنت أشاركه. واظب على جلسات منتظمة مع معالجيه، وأيضاً قراءة كل ما تقع عليه يداه من كتب متعلقة بالأبوة والأطفال. بل وشاركني في قراءة كتب الأمومة، فاستغللنا حبنا للقراءة في تبادل أحاديث مختلفة عن طفلنا المقبل الذي لم نعلم بعد نوعه. وعندما وصلت إلى نهاية الشهر الرابع من الحمل، علمنا أنها فتاة. فرحنا كثيراً، وذهبنا للتسوق معاً لشراء متعلقات لها. وقضينا أوقاتاً

ممتعةً في تجهيز غرفتها. وبحكم عملي وهوايتي كنت أنفئن في تزيين غرفتها بكل طاقة الحب التي بداخلي لها. وكنا قررنا تسمية ما نقوم به بـ(مشروع إيڤا)؛ إذ كنا قد قررنا تسميتها (إيڤا)، التي تعني باللغة العربية: حواء أم البشر؛ فهي الأولى في حياتنا، مانحة الأمل، وواهبة الحياة الجديدة لنا. تسمية غرفتها بالمشروع، كان بحكم العادة؛ ففي نطاق عملي وعمله، نطلق اسم المشروع على ما نعمل عليه في الوقت الحالي.

وما بين عملنا الأصلي و(مشروع إيڤا)، كنا نقضي أوقاتاً ممتعةً بحق؛ فمن الجميل أن تنزّج صديقاً لك، بينكما كم كبير من التفاهم والانسجام.

وفي أحد الأيام، أخبرث (هشام) بأنه في حالة وفاتي بسبب الولادة أو لأي سبب آخر، فإنني أريد أن أجعل (وزة) و(ليلي) بمنزلة عرّابتين للطفلة؛ أي تساعدانها في كل شيء يتعلّق بها، وأن يسعى بكل جهده لإيجاد زوجة مناسبة تكون بمنزلة أمّ بديلة لـ(إيڤا).

بعد كثيرٍ من الاستنكار من ذكري للموت، أعطاني وعدّه على مضض؛ فهو لا يطيق تخيّل فكرة فراقني، ولا أنا؛ لكن دوري كأُمّ يجعلني أتوقّع كل الظروف والأحوال، لكي أوّمن لابنتي حياة طيبة سعيدة، حتى ولو لم أكن موجودةً فيها.

تعلّمتُ أيضاً في تلك الفترة أن أردّد لطفلي الداخلية مها، كي أطمئنّها، أنها ليست بحاجة لأن تكون مثالية في علاقتها بـ(إيڤا). فقط تحتاج إلى أن تكون مُحبّة، وهي قادرة على ذلك. أنا أثق بها، وأعلم قدراتها الطاغية على المحبة والمنح والعطاء. وأخبرتها بأنني (مها) الراشدة هنا بجوارها لمساعدتها في تخطي أي شيء، وأن تسمح لنفسها بالإخفاق أحياناً؛ فلا بأس به كي تتعلّم (إيڤا) أن الإخفاق جزءٌ من الإنسانية أيضاً.

كنت أتفوق بين الحين والآخر مدة بسيطة؛ يومان أستعيد فيهما طاقتي ونشاطي. وكان (هشام) يفعل المثل وكنا نحترم مساحة بعضنا البعض، ونترك المسافة الكافية بيننا، كي لا يشعر أحدٌ منا بأنه على غير طبيعته اضطراراً إلى إرضاء الآخر. ولم أنقطع أيضاً عن دائرتي الصغيرة، فكنتُ أتواصل معهن عبر الهاتف، ويُررّني باستمرار بعد حدوث الحمل كي لا

يُرهِقَنِي بِمَشَاوِيرَ كَثِيرَةٍ. وَأَصْبَحَ أَهْلَ هِشَامٍ وَأَصْدِقَاؤَهُ بِمَنْزِلَةِ أَهْلِي وَأَصْدِقَائِي، فَضَمَّمْتَهُمْ إِلَى دَائِرَتِي بِسَعَادَةٍ، وَوَجَدْتُ مَا كُنْتُ أَفْتَقِدُهُ طَوَالَ عَمْرِي، أَلَا وَهُوَ الْعَائِلَةُ الْكَبِيرَةُ. كَانَ هَذَا يَزِيدُ مِنْ ثِقَتِي بِشَكْلِ لَا شَعُورِي فِي اسْتِطَاعَتِي أَنْ أَكُونَ أُمَّاً ذَاتَ تَوَاصُلٍ جَيِّدٍ مَعَ أَطْفَالِهَا. لَمْ أَكُنْ مَنفُورَةً مِثْلَمَا كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَحْيَانًا فِي الْمَاضِي. بِالْعَكْسِ، شَعَرْتُ بِأَنْنِي مَحْبُوبَةٌ.

هَكَذَا مَرَّتْ شُهُورٌ حَمَلِي. لَمْ أَتَوَقَّعْ أَنْ تَكُونَ بِهَذِهِ السَّلَاسَةِ بَعْدَ الصَّدْمَةِ الَّتِي تَلَقَيْتَهَا عِنْدَمَا عَلِمْتُ بِحَدُوثِهِ، لَكِنْ ثِقَتِي بِنَفْسِي، وَحَصُولِي عَلَى الدَّعْمِ الطَّبِيِّ وَأَيْضًا الدَّعْمِ النَفْسِيِّ مِنَ الْمَحِيطِينَ بِي، جَعَلَ كُلَّ ذَلِكَ سَرَابًا، كَأَنَّي لَمْ أَحْفَ قَطُّ مِنْ إِنْجَابِ (إِيْفَا) حَبِيبَتِي الَّتِي أَرَاهَا عَبْرَ السُّونَارِ فَيَنْتَفِضُ قَلْبِي وَأُرِيدُ ضَمَّهَا بِقُوَّةٍ.

وَجَاءَ يَوْمٌ وَوَلادَتِي، وَذَهَبْتُ مُحَاطَةً بِفَرِيقِ الدَّعْمِ الرَّائِعِ مِنْ أَسْرَتِي وَأَصْدِقَائِي، حَتَّى إِنْ (شِيرِي) اسْتِطَاعَتْ أَنْ تَعُودَ إِلَى مِصْرَ فِي إِجَازَةٍ اسْتِثْنَائِيَّةٍ تَارِكَةً أَطْفَالَهَا مَعَ زَوْجِهَا كِي تَرَافِقُنِي فِي أَوَّلِ أَيَّامِ الْإِنْجَابِ. رُبَّمَا تَبَقَّى بَعْضُ الْقَلْقِ الطَّبِيعِيِّ بِدَاخِلِي مِنْ كَوْنِ أَنْ الْوِلَادَةَ الْقِيَصْرِيَّةَ لَيْسَتْ أَحَبَّ شَيْءٍ، وَتَعْتَبَرُ جِرَاحَةً كَبِيرَةً، لَكِنِّي كُنْتُ مُسْتَعِدَّةً لِذَلِكَ.

الْبِنَجُ النِّصْفِي كَانَ خِيَارًا رَائِعًا كِي أَرَى وَجْهَهَا الصُّبُوحَ عِنْدَمَا تُثَلُّ عَلَى الْعَالَمِ، فَتَحَمَّلْتُ أَلَمَ وَخُزْ حَقْنَةَ الْبِنَجِ النِّصْفِي فِي عَمُودِي الْفَقْرِي بِثَبَاتٍ؛ لِأَنَّي أَعْلَمُ أَنَّهَا سَبِيلِي الْوَحِيدُ إِلَى رُؤْيَيْتِهَا فُورَ نَزُولِهَا مِنْ جَسَدِي. تَمَدَّدَتْ هَادِئَةً، وَكُنْتُ أَشْعُرُ بِحَرَكَةِ الطَّبِيبِ وَفَرِيقِهِ فِي بَطْنِي، لَكِنْ لَمْ أَشْعُرْ بِالْم.. مَجْرَدُ شَعُورِي بِالْحَرَكَةِ وَالرَّجِّ، وَكَأَنَّ بَطْنِي تَحَوَّلَ إِلَى زَجَاجَةٍ مِيَاهٍ!

وَبَعْدَ دَقَائِقَ، سَمِعْتُ صَوْتَهَا الرَّقِيقَ يُعْلَنُ قَدُومَهَا إِلَى عَالِمِنَا، وَقَرَّبُوهَا مِنْ وَجْهِي، فَشَعَرْتُ أَنَّي أَذُوبُ مِنْ مَجْرَدِ النَّظَرِ إِلَى مَلَامِحِهَا الصَّغِيرَةِ وَحَجْمِهَا الدَّقِيقِ. هَمَسْتُ لَهَا بِقَدْرِ اسْتِطَاعَتِي:

أَنَا أَحْبَبُكَ يَا (إِيْفَا).

وسألني الطبيب إن كنتُ أرغب في النوم عبر البنج الكلي الآن، فهممْتُ بأنني أريد ذلك،
وغبْتُ عن الوعي بعدها بثوانٍ.

٥

عندما أفقت وجدتُ أنني على سريرِي بغرفة المستشفى، وكان (هشام) يجلس بجواري في
حالة من الترقب والقلق، و(وزة) و(شيري) و(سارة) و(إنجي) يجلسن في أرجاء الغرفة.
همسْتُ لهشام بأنني أشعر بالعطش، فأخبرني بإشفاق أن ذلك غير متاح حاليًا، وأنهم
سيعطونني الماء بعد مُضي وقت كافٍ حدَّه الطبيب.

وأردف بابتسامته الدافئة:

- حمدًا لله على سلامتِك يا حبيبتي. أنت و(إيفا) على ما يُرام، سيأتون لكِ بها حالًا كي
تحتضنيها.

أجبتُه بإرهاق:

- نعم، أريد احتضانها وأضعها على صدري كي يدر اللبن، لا بد أنها جائعة حبيبتي.

- لا تقلقي، سنأكل وتشبع، هَوّني على نفسي وكل الأمور ستكون على ما يُرام.

طرقتُ البابَ إحدى الممرضات، وألقت السلام، وهنأتني بوجه بشوش، وأطلتُ معها (إيفا)
التي كانت تجر سريرها، وحملتُها ووضعتها على صدري.

تمنَّيتُ أن يتجمد الزمن كي أشعر بتلك اللحظة للأبد. أهذا هو الحب؟! أهذه هي الأمومة
التي سمعت وقرأت عنها؟! يا إلهي! إن تلك المشاعر تُزلزل قلبي. أريد أن أحتضنها للأبد،
وأن أحميها من العالم بأسره!

أخذتُ أخبرها بصوتٍ مسموعٍ بأنني أحبها، وسأظلُّ أحبها حتى آخر نفسٍ يتردّد في صدري. كان الجميع يلتفتون حولنا، وجمعتنا مشاعر من الدفء والحب والرغبة! رهبة! رهبة! حضور ذلك الجمال البريء والنقاء، وجلاء مشاعر الأمومة المذهلة التي لم أعتقد بصدقها إلا الآن. قبل هذه اللحظة، كنت أظن أنني أحبها بشدة، وبعدها تيقّنت أنني أحبها حتى الثمالة!

ورغم أن الأيام الأولى في الأمومة مرهقة، ولكن مذهلة. ذلك الكائن الصغير الذي يتشبّث بي بكل ما أوتي من قوة. يتناوبون جميعاً حملها وتدليلها، لكنها تعرف أنني أمها بمنتهى السهولة والذكاء. لا تريد تركي، ولا أريد تركها. يحايلونها ويحايلونني كي أدعها وأحصل على قِسطٍ من الراحة، لكن عندما أسمع بكاءها الملهوف عليّ، أقوم فزِعَةً، وأهرع كي أحتضنها، فتصمت. لدرجة أن (وزة) أصبحت تأخذها إلى شقتها كي لا أقوم فزِعَةً على صوتها وأحظى بالراحة التي أحرم نفسي منها، بدافع الحب والإحساس بالذنب! نعم، كنتُ أشعر بالذنب إذا حاولت الراحة، وكأنني أفعل شيئاً شائئاً في حقها. وبسبب ذلك، أصبحت في حالة صحية سيئة، لدرجة أن (شيرى) سافرت وهي تشعر بالتأنيب تجاهي. صارحتني وهي مسافرة بأنها مرتعبة على من رعشتي، والهالات السوداء التي تُحيط بعينيّ، وخطواتي غير المتزنة طوال الوقت، رغم تناولي الفيتامينات التي كتبها د. سالم بانتظام، لكنني لم أكن أستطيع النوم أو تناول وجبة دون الشعور بالذنب تجاه (إيqa)، مما استرعى انتباه الجميع بأن سلوكي غير طبيعي على الإطلاق تجاهها، فكانت تصرّفاتني تتّسم بالمبالغة من وجهة نظرهم، ومن وجهة نظري أنا كنت أقوم بما يمليه عليّ قلبي وضميري!

مرّ شهران وأنا على تلك الحال، حتى استيقظت في منتصف إحدى الليالي فزِعَةً؛ لأنني نمتُ ولم أسمع صوت (إيqa)، فذهبتُ إلى غرفتها، ولم أجدها في الفراش. فاستدرت في رعيّ، فوجدت (هشام) ورائي ينظر.

- أين (إيqa)؟

- تحت مع (وزة).

- متى أخذتها؟ ولماذا لم تقل لي إنها ستفعل ذلك؟

- أخذتها في أثناء نومك قبل قليل، أنا من طلب منها أن تأخذها.

- لماذا؟ لقد كانت نائمة وكنت أراعيها جيداً.

فقال وهو يحتضنني:

- حبيبتي، أنت منذ شهرين تهلكين في صحتك حرفياً، هل هذا في مصلحتك، أو في مصلحة (إيها)، أو مصلحة أي منا؟!

- يا هشام، هذا واجبي، وأياً كانت عواقبه لا بد أن أقوم به، هذا حقها.

- هل حقها عليك أن تموتني نفسك؟! مها، أنا أحبك، ولا أستطيع أن أراك تفعلين ذلك في نفسك ولا أتدخل.

- وماذا بي يا هشام؟! هل اشتكيت أو صرخت مثلاً؟!

- ليس بالضرورة أن يصل المرء إلى هذه المرحلة كي يبدو عليه التعب، أعصابك ليست بخير، انظري إلى رعشة يديك واهتزاز قدمك وعينك الحمراء ووزنك الذي انخفض، ألا ترين أن هذا هو الهلاك؟

تركته، وجلستُ على السرير الكبير بجوار سرير (إيها) الخاص بالرُّضَع وتنهَّدت. كنتُ أعلم في قرارة نفسي أنه محق؛ فجسدي يصرخ بي من الألم، لكنَّ صوتاً بداخلي يفوق جميع آلامي كان يأمرني بالأفارقها لحظةً، وأنني إذا لم أفعل ذلك، فسأكون في بداية الطريق لأتحوّل إلى (زهرة).

- لن أخفيك سرّاً، أنا متعبة، لكن لو جعلت تعبي عائناً بيني وبين رعايتها، لن أكون جديرة بالأمومة.

فقال وهو يجلس بجواري:

- لستِ جديرة بالأمومة! بسبب تعبك الجسدي؟! أسمعِين نفسكِ يا مها؟

- أسمعها، وهناك صراع داخلي، جزء راضٍ عن هذا الكلام، وجزء يقول إنني مجنونة.

- لقد اتفقنا من بداية الحمل أن من يشاهد الطرف الآخر يخطئ فليُشر إلى مكان الخطأ كي يعالجه، لمصلحة إيقا أولاً، وكي لا نرتد للخلف بخصوص مشكلاتنا مع الأمومة والأبوة. أنت تهلكين نفسك هكذا؛ لدرجة أنني أخشى من وقوعك وعدم استطاعتك القيام بعدها، أخشى أن أغلق الغرفة وأنا أعمل، ولا أشعر بك إذا وقعتِ، هل أنتِ متخيلة؟!

قلت باستسلام:

- أشعر بأنَّ هناك عطلاً في رأسي يجعلني غير قادرة على التفكير حالياً.

فقال وهو يمد يديه إليَّ:

- إذا نمتِ جيداً اليوم ستُصبحين أفضل، وتفكرين بشكل أفضل، ننامُ الآن وصباحاً في أثناء شربك للقهوة تُفكرين على راحتك. و(إيقا) مع أمي ومعها رضعات تكفيها حتى المساء.

أمسكتُ يديه، وتوجهتُ معه إلى غرفة النوم، ونمت بجواره وضممته، فضمّني برفق، وأخذ رأسي بين ضلوعه كعادته كلما أحبَّ أن يهدئني. كان مخي يعمل بلا توقّف، لكن أفكارِي كانت مشوّشة. لا أعلم بماذا أفكّر وما حالي الآن حقاً! وغرقت في أفكار مضطربة حتى غصتُ في النوم.

استيقظتُ صباحاً، ونظرتُ إلى الساعة المعلّقة على الحائط المواجه للفراش، فوجدتها العاشرة صباحاً، فتمطّيت، وتسَلّلتُ من جوار (هشام) الناعس بعُمق. توجّهتُ إلى حوض الاستحمام مباشرةً؛ إذ كنتُ أتوقُّ إلى حمام صباحي دون أن أشعر بأنني على عجلة من

أمري، وتركتُ نفسي تحت المياهِ الدافئة لفترة طويلة لم أحسبها، لكنني كنت أشعر بأنني أزيل كل إرهابي ومتاعبي في أثناء غمر جسدي بالماء.

خرجتُ من المرحاض شاعرةً بسلام. مشطتُ شعري، وأعددت القهوة في الماكينة حتى يستيقظ (هشام) ويجدها جاهزة، فمضى وقت طويل على آخر مرة قمتُ أنا فيها بإعداد القهوة بدلاً منه، وأخذتُ هاتفي والقهوة، وتسلفتُ إلى الشرفة، وقمتُ بالاتصال بـ (وژة) بصوت هامس كي لا يسمعي (هشام).

- وژة، صباح الفل.

قالت بصوت نشيط:

- صباح الفل يا قمر. كيف أحوالك؟

- أنا بخير ونمتُ جيدًا، اطمئني.

- الحمد لله يا حبيبتي. لا تقلقي على (إيڤا). لم تبكِ إلا مرتين للرضاعة، وسكتت حين تناولت الرضعة، غيّرت لها حفاظتها باستمرار، وألعبها الآن وأنا أتناول إفطاري وفي منتهي السعادة.

- حسنًا، ألا يكفي هذا، ألا أخذها منك الآن؟

- لا، لم أنزعج منها، بل أنا مُرتاحة معها، يا حبيبتي في سني هذا أنام نومًا مُتقطعًا، ولا أكمل خمس ساعات، فـ(إيڤا) حبيبة قلبي لا تسبب لي أي إزعاج، ولعلمك هي مسلية جدًا، أفضل من المناكفة مع (أم دنيا) طوال اليوم في المطبخ. أم دنيا الآن تجلس في المطبخ بمزاج، وتحمد الله أنه رزقنا بـ(إيڤا) كي أبتعد عنها.

وختمت جملتها ضاحكةً ضحكتهَا المشرقة، وبادلتهَا الضحك، وأغلقتنا الهاتف.

ارتشفت قهوتي على غير عجل، وأغمضت عيني قليلاً مفكراً في وجود (وزة) الذي أصبح من أجمل ما حدث لي في حياتي؛ فلم أتوقع أن تكافئني الحياة بها في هذا العمر. فتحت عيني، ونهضت مُتسللة إلى المكتبة، وأحضرتُ بعض الكتب بهدوء كي لا أزعج هشام؛ فلم أره هو الآخر نائماً بهذا العمق منذ فترة طويلة.

- أنا مستيقظ بالمناسبة.

- ما هذا؟! كنت أتجنب إصدار أي صوت كي لا أزعجك.

- استيقظت كي أجلس معك قليلاً قبل أن تذهبي للدكتورة جيهان.

- د. جيهان؟! ليس بيني وبينها موعد اليوم!

- أنا حجزتُ لكِ موعداً معها.

- هل أصبحت تحجز لي مواعيد دون إذن مني يا هشام؟

نظر إليّ بمزيج من الحب والحزم:

- مها، أنتِ في حالة ليست جيدة، وتحتاجين إلى الاستماع إلى صوت عاقل وعلمي دقيق يقول لك ذلك، أرجوكِ اذهبي وناقشي معها هذه الفرضية، لو قالت لك إنني ليس من حقي أن أتدخل أو أحجز لكِ أعدك بأنني لن أفعل ذلك مجدداً.

نظرت له بوجوم ولم أجب!

وتوجهت في الميعاد للعيادة، وطرقتُ باب الدكتورة جيهان التي استقبلتني ببشاشتها المعهودة:

- مبروك يا مها، عرفت من (هشام) أنكِ قُمتِ بالسلامة.

- الله يبارك فيك يا دكتور، بصراحة أنا استغربت من موقف هشام.

- هو طبعا ليس أفضل شيء أن يُقرَّر نيابة عنك أو يحدّد لك موعدًا معي دون الرجوع إليك، لكنني ألتمس له العذر؛ فقد خشي أن يصيبك اكتئاب ما بعد الولادة، والذي قد يدفع بعض السيدات إلى الانتحار، أو تطول مدة اكتئابهم وتلازمهم طول العمر، وهؤلاء نسبتهم مرتفعة في كل مكان.

- لهذه الدرجة أصبح يشعر بانني غير متزنة؟

- لا توجد امرأة تظل متزنة بعد الولادة، مجهود الرعاية والحالة الصحية والنفسية تكون في أضعف حالاتها، التماسي العذر لنفسك وله.

- حاضر.

- ها، لماذا لا تريدين المساعدة؟

- أريدها ولكني أرى أن رعاية ابنتي واجبي بمفردي.

- ومن قال لك إنه واجبك بمفردك؟ هذا واجب والدها والعائلة بأكملها، هل هذا هو المعنى الحقيقي للأسرة.

- يحيرني أيضًا أن أفهم ما هي احتياجاتها، وماذا أعلمها من هذه السن؛ لأنني قرأت أن الطفل منذ يومه الأول يكون قابلاً للتعلّم.

يا مها، لقد حذرثك من أن تضغطي على نفسك بشدّة فتنفجري! الانهماك بشدّة في الأمومة، لدرجة أن تغفلي عن نفسك، سيؤدي لنتائج عكسية، ما أريدُه منك هذه الجلسة أن توافقني على تناول دواء مهدئ بسيط لن يؤثر في الرضاعة، وبعد أسبوعين نتحدث مجددًا، هل هذا ممكن؟

- ممكن.

٦

- الدكتورة شرحت لي لماذا فعلت ذلك.

- واقتنعتِ؟

- نعم، يبدو أنك قلق.

- جدًّا، لكن اليوم اطمئننت قليلاً.

- لا تقلق، أنا بخير.

واحتضنته وجلسنا دقيقة بهذه الوضعية ثم التفت إليّ وقال:

- سأخذ حمامًا وأعود إليك لتتناول الغداء عند (وزة)، هل انتبهت أن الإجازة التي أعطيتها لنفسك من العمل ستنتهي بعد شهر؟

قلتُ بدهشة:

- لم أنتبه لذلك، أشعر بأنني كنتُ في غيابة منذ أن ولدت ابنتنا، سأجلس مع نفسي لأرى كيف تسير الأمور.

فقال وهو ينهض:

- افعلي ما تريد، المهم أن تشعرني بالراحة في أي وضع تختارينه، وإن أردتِ المساعدة فأنا بجوارك.

بالمناسبة، رثبي نفسك أن الجمعة المقبلة ستكون لنا بمفردنا فقط، لم نخرج منذ أكثر من شهرين.

- هل تُصدِّق، حتى هذا الأمر لم أعد أتذكره ولم أنتبه أننا لم نخرج معاً منذ فترة.

- فعلاً، سأحجز تذكريتي سينما، اختاري الفيلم الذي تريدين وبعدها نذهب لتناول الغداء في أيِّ مكان نحبه.

قلتُ بسعادة:

- موافقة. خُذْ هذه القُبلة واذهب إلى الحمام.

وبعدما ذهب أحسستُ بصوت د. جيهان يتسلل إلى أذني وهي تقول: «لا تدعي صوت (زهرة) يحركك، حتى لو رأيت أن هذا الصوت يوجهك لأمر تبدو جيدة، اتركي صوتك أنتِ فقط هو الذي يحركك، صوتك الحقيقي».

واضحٌ أنني قد نسييت كل هذا، لكنني لن أرفع السُّوطَ لِنفسي. سأندارك ما فعلته، وسأرتب أفكارى بهدوء، ولن أهلع لمجرد أنني تغافلت عن بعض الأشياء.

نزلنا على موعد الغداء عند (وزة)، وهرعت إلى (إيف) صغيرتي -كما أحب أن أدلِّها- وغمرتها بالقُبلات من قدمها الصغيرة، واستكانت بين ذراعي، وهرع إليها (هشام) كذلك، وضمَّنا معاً. فقالت (وزة) ممازحة:

- ماذا بكما؟ هل كانت في هجرة مثلاً؟! احملها وائتيا بها بجانبنا ونحن نتناول الطعام.

نقذنا كلام (وزة)، وجلسنا للغداء نتبادل المزاح، وسمعنا صوت باب الشقة يُفتح، فخمَّنا أنه مروان، قد عاد من العمل. وهرع هو أيضاً سريعاً إلى (إيف) وحملها، وأخذ يدلِّها حتى نهرتة (وزة) كي يذهب ليغسل يديه أولاً. فقال:

- حاضر يا (وزة). على رِسْلِكَ.

- أسرع، الأكل سيبرد.

قَطَّب مروان مقلدًا إياها، فلكمته في ذراعه، ففرَّ هاربًا من أمامها بشقاوته المعهودة.

أمضينا فترة المساء معهم، فجاءت سارة وأطفالها، واجتمعنا معًا لأول مرة منذ ولادتي؛ إذ كنت لا أغادر المنزل تقريبًا طوال الشهرين الماضيين إلا للذهاب إلى طبيب النساء أو طبيب (إيڤا)، وسرعان ما حلَّ الليل، فقرَّرنا الصعود. واستأذنتني (وزة) بإبقاء (إيڤا) معها حتى أحظى بنوم ليلي هادئ اليوم أيضًا، فירתاح جسدي المنهك. لم أجادلها كثيرًا، وصعدت أنا و(هشام) دون حلوتي، وعزَّيت نفسي بأن هذا القدر من النوم سيجعني في صحَّة جيدة ومزاج رائع لأستطيع رعايتها بشكل جيد.

الفصل الثاني عشر

«إن الأم التي تذوب في الأطفال يمكن أن تمنحهم القليل جدًا».

ميخائيل لابكوفسكي.

١

في الشهر الثالث من عمر صغيرتي (إيڤا)، زرت د. جيهان عدّة مرّات، وأخبرتها بالمأزق الجديد الذي انزلت إليه دون وعي، ألا وهو أن حبي لـ(إيڤ) لو استمرّ مرتبّطًا بهذه السلوكيات، فسيكون حُبًّا غير صحي، وعلى حد قولها: «ليس كل الحب صحيًا ومفيدًا يا مها. أحيانًا الكره يكون له فائدة واحدة أنه شيء واضح، فيشاور على نفسه كي نتجنّب الأذى الناتج عنه. الأسوأ هو الحب المؤذي؛ لأنه يصنع مشكلات مُغلّفة بطابع الحب، فأذاه يكون أعمق، مثل الدابّة التي قتلت صاحبها من فرط حُبّها له، كانت تريد أن تهش الذبابة من على أنفه، فضربتها بالحجر على وجهه، ومات! نموذج سهل أن تتذكره كلما وجدت نفسك تتصرفين بهذه الطريقة مع ابنتك.

كلامها استدعى بداخلي العديد من الأفكار، فتذكّرت مثلاً زميلةً لي في الدراسة كانت علاقتها بوالديها على هذا المنوال تقريبًا. كانت تحبهما بجنون، وهما أيضًا، لكن كان هناك شيء قبيح بخصوص هذه العلاقة لا تستطيع أن تضع يدك عليه إلا لو كنت مطلقًا على طبيعة العلاقات الإنسانية بشكل صحي. وقتها لم أكن كذلك، لكن لم أشعر بالراحة تجاه هذه العلاقة، وفسّرت ذلك لِنفسي بأنني لربما أشعر بالغيرة من علاقتها الرائعة بأماها، وكتمت بداخلي الصوت الذي يخبرني أنها علاقة مؤذية. لكن عندما خطوت خطوات واسعة في رحلة علاقتي، فهمت أن تلك العلاقة لم تكن صحية على الإطلاق؛ فلم يكن لزميلتي تلك أي خطوة في حياتها دون والديها؛ تحضر معهما الحفلات، وتبتاع ملابسها

معهما، بل تلتقي حتى بأصدقائها خلال وجودهما! لا تمارس أي نشاط داخل أو خارج المنزل دونهما، لدرجة أنني شككتُ لوهلة أنها لا تذهب إلى المرحاض دونهما! ولم يكن هذا حبًا صحيًا بأي حال من الأحوال؛ فالحب الصحي تجاه الأبناء يسمح لهم بترك الحرية والاستقلال لصغارهم، ويُوجب أن يمارس الصغار النشاطات المختلفة دون الآباء والأمهات، وأن يكون هناك وقتٌ مخصَّصٌ للأصدقاء والرفقة. لكن في حالة زميلتي التي تخطت الواحد والعشرين عامًا وقتها، لم تكن قد ذهبت لشراء قلم دون والديها قط!

خصت دفترًا كبيرًا لتدوين ملخصات جلساتي مع د. جيهان بخصوص تربيته وتعاملي مع صغيرتي (إيفا) حتى لا أشتت نفسي بقصد أو دون قصد عمًا ذكرته؛ وفي الجلسة بدأت في طرح تلك النقاط.

- أرى أنك عملتِ جاهدة لتدوين كل الملاحظات يا مها؛ فالدفتر شبه ممتلئ.

قالتها وهي تُقلّب الدفتر بين يديها.

- نعم، يا دكتور فليس لديّ أدنى استعداد للإخفاق.

- خطأ! لا بد أن نتقبل إخفاقنا يا عزيزتي.

- مع (إيفا) لا أريد.

- وبالذات مع (إيفا) لا بد أن تتركي لنفسك مجالًا للخطأ، هل تريدين منها أن تُخلق لعالم مثالي غير موجود؟

- بالطبع لا، أريدها قوية.

- إذن اخطئي حتى تكون (إيفا) قوية.

- حسنًا.

وبدأت دكتورة جيهان في القراءة من دفترتي بصوت عالٍ لكن قبلها قالت ملاحظتها:

- أول ملاحظة قبل كل ما سردتِ يا مها أنك بحاجة للتذكر دائمًا أن صغيرتك لا تحتاج إلى أن تراكِ مثالية، تحتاج إلى حبك ودعمك غير المشروطين، وأن تعتذري عندما تخطئين.

- حاضر يا دكتورة.

- الآن أكمل القراءة.. ربما سيصيبني السأم من الإرهاق والرعاية المستمرة لها؛ لذا عليّ تخصيص وقت أسبوعي -ولو ساعتين- لممارسة أي شيء بعيدًا عن الأمومة، وأيضًا أن أتماهى مع مشاعر صغيرتي قدر استطاعتي؛ لأن السأم سيكون ناتجًا عن هروبي من مشاعري التي تسبب بها أهلي بإهمالهم النفسي لي وتهربهم من الجلوس معي. فقط لا أخاف، وأواجه نفسي بهدوء، ولا أفلت مشاعر صغيرتي.. أن أمارس التمرينات النفسية بانتظام؛ فمثلًا إذا شعرت بأنني لا أستطيع التعامل مع صراخ صغيرتي أو أي مشاعر سلبية، فلأسأل نفسي: ما الذي حدث لي في مثل عمرها جعلني لا أستطيع التعامل مع تلك المشاعر؟ غالبًا يكون الهجر النفسي من الأم هو الإجابة؛ لذا فعليّ مجابهة المشاعر وتهدة نفسي وتذكيرها بأن صغيرتي سوف تشعر بما يعتريني.. أبتعد عن صوت الناقد الداخلي. ليس هناك أيّ داعٍ لأن أضع لقبًا لنفسي (أم جيّدة) أو (أم سيئة)، ليست بألقابٍ يجوز إطلاقها مع أخطاء اليوم العادية، كما أنها سوف تدفعني إلى التنكّر والهروب والدفاع عن الأخطاء التي ارتكبتها، وسوف أرتكبها، بدلًا من العمل على تصحيحها.

استوقفت واستجمعت أنفاسها وابتسمت وهي تخبرني:

- ألا تفكرين في تأليف كتاب يا مها؟

- أفكر وأنتظر أن تكبر (إيف) قليلًا.

- ستكونين مرشدًا رائعًا للأمهات الجُدُد، أنا فخورة بكِ.

- شكرًا يا دكتورتي العزيزة.

وأكملت قراءة بنفس الصوت المرتفع وعلى ثغرها ابتسامة خفيفة.

- أن أستوعب أن هناك العديدَ من التغيُّرات ستحدث في حياتي باختلاف المراحل العمرية لصغيرتي، وأن من شأن ذلك أن يؤثر في وفي علاقتي بهشام؛ فالحياة ليست مستقرَّة وجامدة، وقُدرتي على قبول التغيير والتعاطي معه أكثر فائدة من مقاومته. القبول يُحرِّرنِي ويطلق سراحِي، وكذلك الاعتراف بمشاعري بيني وبين نفسي، أو علانيةً، دون الخوف من النقد الذاتي أو الخارجي. ألاً نتشاجر أنا وهشام أمام (إيِّها) مطلقًا، مهما بدا لنا أنها صغيرة ولن تستوعب الأمر؛ فالطفل يستوعب الأجواء المحيطة به جيدًا حتى وإن لم يفهم اللغة. عليّ أن أقرَّ بمشاعر صغيرتي بدلًا من إنكارها أو التغافل عنها؛ فتجاهل أو إنكار مشاعر الطفل مُؤدِّ لسلامته العقلية؛ فمعظم أسباب الاكتئاب عند الكبار هي أن أهلهم لم يعلموهم كيفية التعاطي مع الألم، فكان يُطلب منهم وهم صغار أن يكتبوا مشاعرهم، فيتركون عند البكاء أو الغضب بلا دعم أو مساندة؛ ولذا أصبحت قُدرتهم على التعامل مع المشاعر المؤلمة محدودة.

توقفت وقالت لي:

- إقرارك بمشاعر صغيرتك شيء حُرمتِ منه، ووضعت له في سُلْم أولوياتك لهو شيء عظيم.

- أريد أن أمنحها كُلاً ما لم أحصل عليه.

شربت د. جيهان شربة ماء وأكملت بصوتٍ منخفض نسبيًّا لكنه وصل إلى أذني بشكل جيد:

- أنا شخص أميل إلى كبت مشاعري؛ لذا فهذا يؤهلني إلى تجاهل مشاعر طفلي التي لا أستطيع التعامل معها، فلا بد من الانتباه لذلك حتى لا أكون سببًا في كبت مشاعرها. عليّ أيضًا ألا أقوم برد فعل عكسي؛ أي لا أبالغ في ردة فعلي تجاه ما تشعر به طفلي؛ فإذا بكت

وحزنت، فليس الحل أن أظهر لها رغبتني في البكاء وحزني الشديد؛ لأن ذلك من شأنه أن يجعلها تتجنب أن تظهر مشاعرَها أمامي، أو تشعر بأنني ضعيفة ولا أستطيع التعامل مع ألمها. أن احتوي طفلي دون إطلاق أحكام، وأن أقبل أنها بحاجة إلى أن تشعر بجميع أنواع المشاعر حتى الحزن والغضب والخوف وكل المشاعر المزعجة كجزء من إنسانيتها وتكوينها. ونظرًا لكوني نشأت مع أم كانت تسخر مني وتوبخني عندما أبكي أو أحزن، يجب عليّ التركيز على ألا أفعل المثل مع صغيرتي دون أن أشعر.

عند هذا الحد انتهت النقاط ونظرت لي دكتورة جيهان بسعادة.

- هذا ما أسميه العلاج الناجح يا عزيزتي، عليكِ التركيز مع تلك النقاط جيدًا، فبها ملخص كل جلساتنا عن علاقتك بـ(إيفا).

- سأفعل دائمًا وأشكركِ لكل هذا الدعم يا دكتور.

- لا تشكريني، هذا واجبي يا عزيزتي، لا ثوقفي الأدوية أرجوكِ، وأراكِ الجلسة المقبلة.

- حسنًا، إلى اللقاء.

٢

عاد (هشام) من الخارج عصرًا، ووجدني أعمل في الشرفة، فقبّلني بحماس وقال:

- اشتقتُ إلى هذا المنظر، أتعرفين لماذا؟

سألته مبتسمة:

- لماذا؟

- لأنني أعلم أنك تكونين سعيدة وأنت تعملين، أخبرني، هل تواصلت مع العملاء الذين كنت تؤجلين اتصالك بهم؟

- آه، نعم، معظمهم لم ينتظر، ويتبقى معي مشروعان فقط، عموماً ليست مشكلة، أنا تواصلت مع جميع العملاء والكل يعلم أنني عدت للعمل، وأعلنت على صفحتي وعلى موقعي الإلكتروني، قل لي ما أخبارك وأخبار السيناريو الجديد، هل سلّمته؟

- نعم، سلّمته، التعديل الأخير حدث سريعاً، وحصلت على مستحقاتي، واشترت لك ولـ(إيف) هدية. حين تنتهي مما في يديك شاهديها، ستجدينها في الخارج.

قمت بحماس وقلت:

- لا، سأذهب لأراها الآن.

وهرولتُ إلى الخارج بسعادة، ووجدتُ الهدايا. كانت هديتي فستاناً أسود في غاية الرقة، وكانت هدية (إيف) فستاناً لطيفاً للغاية.

قلت له بامتنان:

- شكراً يا حبيبي، رائعين، ادخل لتغير ملابسك لننزل نحضر (إيف) ونتغدّى مع (وژة).

وقبلته، واحتضنني لدقيقة، ثم تفرّقنا كي نستعدّ للنزول.

كان الشهر الرابع من عمر صغيرتي ممتعاً؛ كانت تضحك وتتفاعل معنا بطريقة محبّبة إلى النفس. كنت أعمل أحياناً وأنا أضعها أمامي على عربة الأطفال، وأحياناً أخرى كنتُ أدعها مع (وژة) إذا كنت بحاجة إلى تركيز أكبر. وتعلّمت أن أمارس أمومتي وأنا أقوم بأعمالي المنزلية. مساعدة هشام و(وژة) سهّلت عليّ الكثير؛ فما تحتاج إليه الأم في الشهور الأولى من عمر الطفل هو يد حانية مساعدة، كي تتعافى صحياً، وتستطيع إشباع أطفالها نفسياً. هذا أمر مهم للغاية، لا غنى عنه مهما كانت الأم قوية أو على قدرٍ عالٍ من تحمّل المسؤولية؛

فالأومومة والأبوة غرائز مكتسبة تحتاج إلى الممارسة والصبر كي تحقق السلام النفسي للأبوين وللأطفال. والعون من المحيطين شيء أساسي كي تُنجز تلك المهمة على أكمل وجه. وكنت أستمع بأبوة (هشام) في أثناء مشاهدتي لِمَا يفعله مع (إيف)؛ فمجرد مشاهدته يغيّر لها الحفاضة أو يطعمها أو حتى يدلّها، كانت تجعلني أشعر بسعادة غامرة. فما كانت تستحقه مني صغيرتي قبل ميلادها هو اختيار أب جيّد لها، وشعرث -وأنا أشاهده- بأنني أحسنّ الاختيار، وأن أول شيء في حقوق صغيرتي أتممته على أكمل وجه.

وحرصتُ أن أتبادل حديثًا دائمًا مع (إيف)، رغم عدم قدرتها على الحديث، حتى أمرن نفسي على التواصل الدائم معها، وفي نفس الوقت علمت أن ذلك يحثّ الطفل على تعلّم اللغة في مرحلة مبكرة ويُشعره بالأمان. فكانت تبتسم وأنا أغني، وتقهقه أحيانًا. ومع بلوغها الشهر السادس، كنت قد ضبطت مواعيد نومها جيدًا كي أساعدها على النموّ بصحة جيدة ومزاج جيد أيضًا. وفي يوم نزهتي مع (هشام)، كانت (ورّة) تصعد لتراقبها في أثناء نومها، كي لا نغيّر أي شيء في مواعيد النوم التي أصبحت مقدّسة؛ ففي الثامنة مساءً كنا نطفئ أنوار المنزل بأكمله، ونغلق كل الشاشات، ونهددها ونُغني لها، أو حتى يسرد لها هشام حكايات للأطفال قد ألّفها بنفسه لها، حتى تغفو في سلام، ونخصص الوقت المتبقي حتى منتصف الليل لنا معًا، نمارس أيّ نشاط مشترك، ونتسامر حتى نشعر بالنعاس.

في مرحلة الحَبْو، كانت (إيف) قد بلغت شهرها العاشر تقريبًا. كانت تحبو بشكل مضحك رجوعًا إلى الوراء بدلًا من التقدّم للأمام. كنت أجلس أمامها وهي تزحف كالمسحورة، وأحمد الله أن لديّ دعماً من المحيطين بي حتى يتسنّى لي أن أشاهدها تفعل ذلك بمزاج رائع؛ فربما لو كنت مضغوطة ولا أتلقى مساعدة ما استطعت أن أتأمل تلك اللحظات الرائعة التي تكبر فيها صغيرتي بعين امتنانٍ كما أفعل الآن، فشكرت الله مرةً أخرى لأنني تعلّمت أن أقبل المساعدة عكس ما كنتُ في السابق؛ فلولا علاجي ما كنت قبلتُ أن يتحمّل معي أيّ شخصٍ مسؤوليتها. ضحكْتُ في سرّي عند تذكّر ذلك؛ فكيف يرفض الإنسان المساعدة وهي نعمةٌ قد تُنقذ حياته حرفيًا؟! لكنني كنتُ أعرف الإجابة؛ امتناع أمي عن

مساعدتي جعلني أنشأ أبيّة كارهةً لأيّ يدٍ تمدُّ العونَ لي، والعلاج هو الذي حرَّرني من تلك المشكلة.

لم أقطع جلساتي مع (د. جيهان)، فقط جعلتها جلسةً شهريةً كي أطمئن أنني على النهج الصحيح مع (إيف)، وكى أضمن أنني لن أتعرّض لانتكاسات مفاجئة لا ذنبَ لصغيرتي أو لهشام فيها. وكنت أراقب نفسي أيضًا في أثناء تصرُّفي مع صغيرتي وردود أفعالي معها؛ فلا أريد أن أعطيها إرثًا غير مرغوب فيه. أريد لهذا الإرث المدمر أن يتوقف عندي. وكذلك فعل (هشام)، رغم أنه صارحني بأنه غير قلق؛ لأن (إيف) فتاة، وهو كان متخوفًا من إنجاب فتى لذلك السبب، لكن قدوم (إيف) أولًا جعل ذلك شيئًا يسيرًا عليه، والآن هو مطمئن أنه سيفعل المثل لو حدث أن قررنا الإنجاب مرة أخرى وكان فتى.

أخبرته وقتها ضاحكةً بأن يطمئن؛ لأنني لا أفكر في الإنجاب مرّةً أخرى، لكن لم أجزم بداخلي؛ فقد علّمتني الحياة أن اليوم غير الغد، وأنني قد أغفو ليلًا وأستيقظ صباحًا، وبداخلي أفكارٌ لم أعتقد أنها قد تُوضَع في رأسي، ولو من قبيل المصادفة. و(إيف) أكبر دليل؛ لذا لم أشغل نفسي كثيرًا بما يأتي به الغد. أنا هنا اليوم مع أحبائي، وليحدث ما يحدث.

٣

انقضى العام الأول من عمر (إيف)، التي كانت تكبر بسرعة لم أتخيّلها. كنت أشعر بمتعةٍ في كل الأوقات التي أقضيها معها؛ كانت طفلة هائلة تميل للمرح، وتتصرّف بشكل مضحك طوال الوقت. مجرد مراقبتها كانت تُدخل البهجة في قلبي، وتبادل الأدوار بيني وبين (وژة) و(هشام) على مجالستها، خفّف من وطأة أشياء كثيرة.

أول مرة تعلّمت أن تمشي بمفردها، كئنا مجتمعين عند (وژة). كان تجمّعًا عائليًا، وشمل حتى الأصدقاء، مثل كل تجمّعات (وژة) الكبيرة، وقرّرت صغيرتي أن تترك الكنبه لتمشي بمفردها

بشجاعة بالغة، فجريت واحتضنتها، ودمعت دون قصد. ونهض (هشام)، وأخذنا بيديها معاً، وتمشينا معها في أرجاء الغرفة بفخر، وصعدنا في موعد نومها إلى المنزل. وبعدها غفت كالملائكة، وضعتُ رأسي على كتف (هشام)، فاحتضني وقلت:

- الفخر الذي شعرت به في قلبي اليوم مختلف عن أي شعور آخر بالفخر. أنا فخورة بك دائماً، وحين تذهب إلى عمل جديد أكون سعيدة جداً، وأكون فخورة بها مع كل ضحكة تضحكها، وكل دمة تنزل منها، ولما زحفت، ولما كسرت الأرنب حتى، لكن هذه المرة أحسستُ بطعم جديد للفخر.

رفعت رأسي، ونظرتُ إليه وأردفت:

- هل تظن أنني أبالغ في مشاعري؛ لأنني قد حرمتُ منها؟

أجابني مبتسماً:

- من قال لك: إن الفخر بهذه الأمور مُبالغة؟ حبيبتي، هذا طبيعي، أي أمٌّ أو أبٌ يشعران بالفخر تجاه إنجاز أولادهما، حتى لو كسروا كل ما حولهما، ما حُرمتِ منه هو ما جعلك قلقة من أن تكون مشاعرك مبالغاً فيها، لكني أراها طبيعية، ويمكنك أن تسألي (جيهان) أيضاً.

- معكِ حق، أحياناً أشعر بأنني أحسّس على كل المشاعر التي تخرج مني، وهذا شيء لا إرادي، أنا قلقة أن أتسبّب لها في أذى، لكنني أعلم أن الصواب ألا أكون كاملة أمامها، ولا حتّى مجرد أن أسعى لذلك. يوماً ما لن أكون خائفة مما أقدمه لها، أنا واثقة.

قال بابتسامة محبّة:

- وأنا واثق أيضاً.

وفي عام (إيف) الثاني، كانت تملأ كل مكان تطوّه قدماها الصغيرتان شقاوةً وحبوراً. كانت محبوبة من الجميع. وكان أفضل أصدقائها قطتي. كانت تلهو معها كثيراً، وتحاول نطق

اسمها بمخارج ألفاظها المضحكة الجميلة. وكانت قطتي تتمدد لها كي تلعب معها في أي وقت. مَنْ قال: إن القطط لا تعرف الوفاء؟! أي حيوان يعيش على ظهر الأرض يعرف الوفاء أكثر من البشر، حتى المفترس منها. الرحمة في قلوب الحيوانات لا تتجزأ، وهم يشعرون بالحب بشكل فطري. فقط أظهر لهم الرحمة والإخلاص، وسيظهرون لك المثل.

كانت صغيرتي تجلس بين ذراعي لأوقات طويلة، كنت أشبعها بالحب، وكانت تعطيني مثلما أعطيها وأكثر. أحضانها كانت تحتضن (مها) الصغيرة، في نفس الوقت الذي كنت أحتضنها فيه. كنت أعطيها بكل قوتي، وفي نفس الوقت أستمد من هذا العطاء سكينه، وكنت أذكر نفسي دائماً أنه في حال تغيّرت عندما تكبر وعزفتُ عن تلك الأحضان في فترة المراهقة والشباب فإن ذلك حقها، وإن عطائي لا بد أن يكون بغير انتظار المقابل. هذا حقها الأصيل في حبي لها؛ حب دون انتظار لأي شيء، فقط أستمتع بكل لحظة أقضيها معها.

٤

وعندما بلغت (إيف) عامها الثالث، كان قد حان الوقت لذهابها إلى روضة الأطفال، حتى تكون مُهيأة لدخول المدرسة العام الذي يليه، وتختلط بأقران في مثل عُمرها، وتتعود تدريجياً على الانفصال عن المنزل وعن العائلة لبضع ساعات في اليوم.

كنتُ في حالة من الرعب؛ فهذه أول مرة أتركُ فيها صغيرتي لأحدٍ لا أعرفه، رغم أنني حَرَصْتُ كُلَّ الحِرص أن أنتقي روضةً بها قدر كبير من الأمان والثقة، واستغرق البحث شهراً تقريباً حتى اخترتها من بين قائمة من رياض الأطفال. لكن هذا لم يجعلني مُطمئنة؛ فبمجرد أن اتَّخذت قرار نزولها، وحددتُ التاريخ، أصبت بحالة من التوتر، وكانت ملاحظَةً على وجهي بشدة، فقررت أن أعجلُّ بموعد جلستي مع (دكتورة جيهان)، وقد كان بالفعل في الموعد كنتُ أطرقُ غرفة الكشف.

استقبلتني (دكتورة جيهان) بابتسامتها المعهودة وقالت:

- أهلاً يا مها، كيف حالك؟ اجلسي.

- الحمد لله بخير يا دكتورة.

- وجهك لا يقول أنك بخير، ماذا بك؟

- آه، متوترة قليلاً؛ لأن (إيها) ستذهب إلى الحضانة.

- وما المشكلة؟ لقد كبرت فعلاً. أليس عمرها الآن ثلاث سنوات تقريباً؟

- بلى، ثلاثة أعوام وشهران، ولكن مسألة أن أتركها مع غرباء تُقلقني، أنتِ تعلمين جيداً ما يحدث للأطفال هذه الأيام من تحرُّش، وخطف، وتعدُّ جسدي أو لفظي. لم تعد هناك رحمة!

- ما تقولين إنه يحدث حالياً من تحرش وغيره كان يحدث قديماً أيضاً، الفارق أنه لم تكن هناك وسائل تواصل سريعة تُعرِّف الناس بما يحدث، الأطفال يتعرضون للأذى من قديم الزمن، ما المطلوب منّا كي نحمي أولادنا، نحسبهم؟!

- لا طبعاً، لم أقل ذلك، ولكن نحرص عليهم.

- وما هي فكرتك عن الحرص في مثل هذه الحالة؟

- أختار مكاناً جيداً به كاميرات، آمن، سُمعته جيدة، أفحصه بنفسي، وأرى طريقة المدرسين مع الأطفال. أتابعه على مواقع التواصل، واتحرّى أي أخبار عنه. أذهب لزيارة المكان في مواعيد مختلفة لأرى الأوضاع بنفسي، لا أتركها كثيراً أول فترة حتى تعتاد المكان. أعمل ذلك بالتدريج، حتى يسير الموضوع تدريجياً، ساعة أول يومين، ثم ساعتين، وهكذا، أطمئنها وأمهّد لها وأجعلها تفهم أنها لو تعرضت إلى أذى فعليها أن تقول لي ولا

تخف، أفحصها باستمرار، لأتأكد من عدم وجود أي علامات للتعدّي عليها؛ هذا هو مفهومي عن الحرص.

- ممتاز. إذا فعلتِ كل ذلك، فما الذي سيقلق؟ هل تظنين أنكِ تستطيعين منع الضرر من الأساس عنها؟ وهل تظنين أنكِ قادرة على حمايتها من أي أذى قد يطولها طوال عمرك؟!

- سأحاول على الأقل، ربما لا أنجح، لكن سأبذل كل جهدي لحمايتها والحفاظ عليها.

- قبورك لهذا مهم يا مها من أجلها ومن أجلك. أنتِ تقومين بدورك بحب وتفانٍ، ومن أدوارك أيضًا أن تساعدِها على النمو، وكي تنمو لا بد أن تنطلق خارج دائرة البيت، في عمرها هذا، حين تذهب إلى الحضانة مثلاً، فأنتِ لا تتخلين عنها، أنتِ تتركينها لمكان ستلتقى به تعليمًا ورعاية، وتعرف أصحابًا وبيئةً ومجتمعًا جديدين، وكل هذا مهم لها، ولا يقل أهمية عن دورك ودور والدها.

- أنتِ ترين أنني -بداخلي- أخشى من التخلي عنها؟

أجابت مبتسمة:

- بالضبط، أنتِ خائفة أن تتركها مثلما كانت تتركك أمك، ليس شرطًا أن يكون الترك المقصود أن تتركها في الحضانة فقط، أنتِ متمسكة بوجودها بجانبك في البيت بشكل لا إرادي. وصحيح أنكِ قلقة عليها مما تسمعينه من حوادث في المجتمع، ولكن لاحظي أنكِ فعلتِ ما في وسعك لتختاري لها مكانًا مطمئنًا عليها فيه، وستراقبين الأوضاع جيدًا؛ أي أنكِ تحمينها أيضًا.

قلت مبادلةً إيّاها الابتسام:

- أنتِ تفهميني جيدًا يا دكتورة، حسناً، سأفعل ما طلبتِ به؛ كي لا أعطّلها عن النمو الصحي، جيد أنني أتيتُ إليك كي أفهم ما يحدث لي.

- يعجبني فيك أنك تسعينَ بكل قوتك لمعالجة المشكلات، وحين تضعين يدك عليها، لا تتركها إلا محلولة. أنا بجانبك، وإذا شعرتِ لحين موعد ذهابها للحضانة بأنك غير مطمئنة اتصلي بي، إذا توترتِ في أول ساعة لها في الحضانة انغمسي في أي شيء حتى تمر الساعة الأولى.

- حاضر، سأفعل ذلك كله.

٥

كان فهمي لمشاعري الشخصية مع مشاعر الأمومة يساعدني كثيرًا في الفصل بين ما أفعله لي وما أفعله لها. كان الفصل بين الأمرين يُساعدني في اتخاذ القرار الصحيح في كثير من الأحيان؛ فالفارق في حالتي كان واهيًا ويحتاج إلى تركيز شديد في البداية، حتى أصبحت أميِّز ذلك بسهولة مع الوقت والممارسة.

فتعلّمت مثلًا، حين تفعل صغيرتي أمرًا يدفع للغضب، أن أسأل نفسي سريعًا إذا كان هذا الموقف يستدعي بداخلي أي شيء جعل أهلي يغضبون مني في مثل عُمرها. مجرد تفكيري قبل أن أتخذ أي رد فعل جعل أغلب ردود أفعالي معها هادئة وتمتاز بالرحمة، وأحيانًا بالطبع كنتُ أفقد السيطرة وأصيحُ، ولكن بمجرد إدراكي لذلك كنتُ أهرع للاعتذار إليها وإخبارها بأن ما قمت به شيء خاطئ. ما أعذب قلبَ بُنيّتي! فهي أجمل الفتيات على الإطلاق، وأكثرهن حنانًا. كانت تحتضني وتقول بلهجتها الطفولية: حصل خير يا ماما.. حصل خير. فكنت أذوب عشقًا لدفع قلبها ومساحة الغفران به.

ولطالما حرّضتُ أن أسألها عما تشعر به، وأعلّمها التعبير عن مشاعرها بلعبة تُسمّى (كروت المشاعر)، صنعتها معها حتى تشعر بالألفة تجاهها. ومن أحسن الأشياء التي قمت بها تجاهها وتجاه نفسي هو تذكري الدائم لمقولةٍ قد دونتها من كتاب (الكتاب الذي تتمنى لو قرأه أبواك (The Book You Wish Your Parents Had Read)، وهي:

«نحن نريد أن يكونَ أطفالنا سعداء أكثر من أي شيء آخر؛ ولذلك عندما لا يكونون سعداء، فإننا نرغب في إقناعهم وإقناع أنفسنا بأنهم سعداء، يمكن لذلك أن يُشعِرنا بالرضا على المدى القصير، لكنه يجعل أطفالنا يشعرون بالوحدة، وبأننا لا نأبه لمشاعرهم».

وضعتُ هذه المقولة نصبَ عيني؛ لدرجة أنني صمّمت لها صورةً وجعلتها (خلفية) على جهاز اللابتوب الخاص بي؛ فلا أريد أن أقع في هذا الخطأ أبدًا. أريدُ لـ(إيف) أن تكون حقيقية، لا أن تزيف مشاعرها لإرضائنا بأي حالٍ من الأحوال. ومن حقها أن تشعر كيفما تشاء. ولا بد لهذا ألا يُحِبطني؛ فهذه هي طبيعة المشاعر الإنسانية. فكما قال الطبيب النفسي (جيرى هايد): «ليس للعواطف لوحة لمزج الأصوات. فليس بمقدورك تخفيف صوت الحزن والألم ورفع صوت السعادة والفرح، فإذا خففت صوتًا، فإنك تخفف بذلك الأصوات جميعًا». وأنا أريد أن أستمع إلى جميع أصوات مشاعر صغيرتي؛ هذه هي المحبة الحقيقية.

ووضعتُ كل ما تعلمته عبر (دكتورة جيهان) وعبر الكتب التي رشحتها لي كي أقرأها في أثناء تربية (إيف)، أمام عيني، في الدفتر الكبير الذي دوّنت فيه كل شيء على هيئة نقاط كي لا أتوه. ربما يبدو هذا كالاستذكار، لكن ما المانع أن أستذكر لأجل أهم شيء في حياتي؟! صغيرتي التي وهبتُها الحياة لي كي أختبر الأمومة بحق، وأؤمن بها كما لم أؤمن من قبل. حتى إن (هشام) كان يعود للدفتر الكبير عندما يحيرُه أمر ما مع (إيف)، وكان يشعر بامتنان، ويشكرني على هذه الفكرة. وأذكر إحدى المرات عندما كانت (إيف) تريد أن تأكل شطيرةً من الشوكولاتة، وكان إناء الشوكولاتة قد انتهى في يوم لاحق وتأخر الوقت على شراء آخر، فعرض عليها (هشام) شيئًا آخر، فتضايقت وبدأت في الصياح، فنهرها عن الصياح وأخبرها بأنها تتصرّف بمبالغة، وأنها إذا كانت جائعة فلتتناول أيّ شيء. وقتها شعر من بكائها أن هناك شيئًا خاطئًا، ونامت وهي غاضبة. وعندما نامت، سألتني عن رأيي فيما حدث، فأخبرته لمَ غضبت (إيف)، وبأن رد فعله لم يكن مناسبًا، والمناسب أن بإمكانه تأكيد شعورها وإخبارها بأنه يتمنى لو كان بإمكانه توفير ما طلبته الآن، لكن الوقت تأخر، ويشكرها على صمودها حتى صباح اليوم التالي، وهي من نفسها سوف تهدأ، وترغب في

تناول شيء آخر. فأخبرني بأن أدون هذا أيضًا في دفتر الكبير -أو السحري كما يسميه أحيانًا- وعرض عليّ أن أحوله إلى مدوّنة، حتى يستفيد بها أكبر قدر ممكن من الأهل في أثناء التعامل مع أطفالهم. فأخبرته بأنني لا أجد وقتًا كافيًا، لكن ربما يومًا ما أفعل ذلك.

مع دفترتي السحري، حرّضتُ أن أتعلّم وأدوّن أولاً بأول، عن طرق التعامل الصحية مع (إيف). كنت أشتري الكتب، وأتعلّم وأقرأ كلما أُتيحت لي الفرصة، ولم أتوقّف عن هذا مهما كبرت صغيرتي في العمر. بالعكس، كنت أشعر مع تقدّم عمرها أنني بحاجة أكبر إلى التوصل إلى طرق أكثر تسهّل التواصل بيننا، خصوصًا أن الزمن غير الزمن الذي تربّيت به، ويوجد الكثير من الأشياء في الخارج التي أحتاج إلى معرفة كيف أتعامل معها في ظل وجود (إيف) بها وتكيّفها مع العالم الحديث.

ووسط كل هذا، كنتُ أتذكّر أحيانًا ومضاتٍ من طفولتي، إذا حدث موقف ما مع (إيف) تلامس مع شيءٍ حدث معي. لم أكن أحاول كبح أفكارِي. بالعكس، كنتُ أسمح لها بالخروج، وبتهدئة (مها) الصغيرة، وكنتُ أسمح لها بالاستمتاع مع صغيرتي بكل شيء، فكنتُ أربت على الطفلتين بحنانٍ في الأوقات التي تحتاج الصغيرة بداخلي إلى بعض التدليل والاهتمام. وإذا لمحننا (هشام) وقتها، نجده يبتسم بحب ويُقبل على اللعب معنا ويلاطفني بقوله:

- طفلتان تلعبان معًا!

فنكافئه بتقديم كوب من الشاي المزيف من حفلة شاي بمنزل عرائس (إيف).

لن أنكر إطلاقًا حدوث المشاحنات أحيانًا بيني وبين (هشام). لكنّ قدر التفاهم والاحترام الذي يجمعنا كان يساعدنا في حلّ أزماتنا بهدوءٍ وتروٍّ، ويجعلنا مُتلهّفين للوقوف في نقطة تسمح لكلينا بالشعور بالراحة. وهذه التوليفة سمحت للحب بيننا أن يكبر وينمو، لا أن يندثر ويختفي مثلما يحدث للزواج المبني على المشاعر فقط. فأرّضنا الصلابة التي ترعرع عليها الحبّ كانت مساحةً مشتركةً من التفاهم والاحترام والإصرار على البناء لا الهدم.

ست سنوات من السعادة، كما أحب أن أذكرها لنفسي. هذه هي الفترة التي قضيتها مع (هشام)، متضمنة خمس سنوات تقريبًا من الأمومة التي أشبعت رُوحِي ورَوَّتْهَا، حتى طمست أي شكوك في الأمومة. ابنتي برأت مشاعر الأمومة من أي خصومة حدثت في قلبي منذ طفولتي. ورحلة علاجي كانت أهم استثمار قدّمته لنفسي. استثمار ملاً نفسي بالراحة والسعادة التي لم تكن لتوصلني إليها جميع أموال العالم.

هذه هي تجربتي التي قطعْتُ عهدًا على نفسي أن أدونها يومًا ما حتى تكون النور الذي يرى منه المُتخَنون بالجراح -في نهاية الطريق المظلم- أن هناك نهايةً للألم.. نهاية للابتلاء. وأن أي شيء في الحياة قابل للتداوي والعلاج، فقط إذا وضعت قدمك على بداية الطريق الصحيح. ستحدث عثرات، وستكون بداية الطريق مؤلمة؛ فهذا حال أي جرح عندما يُطهَّر. لا فكاك من الألم في البداية، كما ستحدث بعض العثرات في منتصف الرحلة، لكن إذا استطعنا الصمود أمامها، وأكملنا رحلة التداوي، فسيصير الجرح ندبةً نذكرنا كم كُنَّا أقوياء عندما تحمّلنا ثَمَنَ الرحلة. وأنا هنا الآن أنظر إلى الندبة التي حولتها إلى وشم فراشة لا تكفُّ عن الطيران وارتشاف رحيق كل زهرة تقابلها، مثلما فعلت مع كل شيء جميل قابلته في مسار حياتي؛ ارتشفته، وارتويت، حتى أصبحت ما أنا عليه الآن مُتعاويةً من ألم الشعور بعدم الاستحقاق. فلطالما كنتُ أستحق.

الألم... لا يستمرُّ للأبد

إلا أنه يقتلك الآن

الندوب... تبهت

إلى أن يختفي أثر الجروح التي كانت

اليوم... يعقبه دائمًا غدٌ

لو أنك فَبِثَلْتَ في العثور على ابتسامتك

فَلديّ واحدةٌ يمكنك استعارتها

المساعدة.. تقف بجوارك

لكنها لن تعرفَ أنك تحتاجها

حتى تمدَّ يديك

الحب.. لن تستشعرَ لمسَّته

حتى تدعَ أحدهم يعرف

أن هذا العالمَ أكبرَ كثيرًا من أن تجتازه وحدك

(إيرين هانسون - ترجمة ضي رحمي).

1. [الغلاف](#)
2. [حواديت قبل الاكتئاب](#)
3. [إهداء](#)
4. [الفصل الأول](#)
5. [الفصل الثاني](#)
6. [الفصل الثالث](#)
7. [الفصل الرابع](#)
8. [الفصل الخامس](#)
9. [الفصل السادس](#)
10. [الفصل السابع](#)
11. [الفصل الثامن](#)
12. [الفصل التاسع](#)
13. [الفصل العاشر](#)
14. [الفصل الحادي عشر](#)
15. [الفصل الثاني عشر](#)